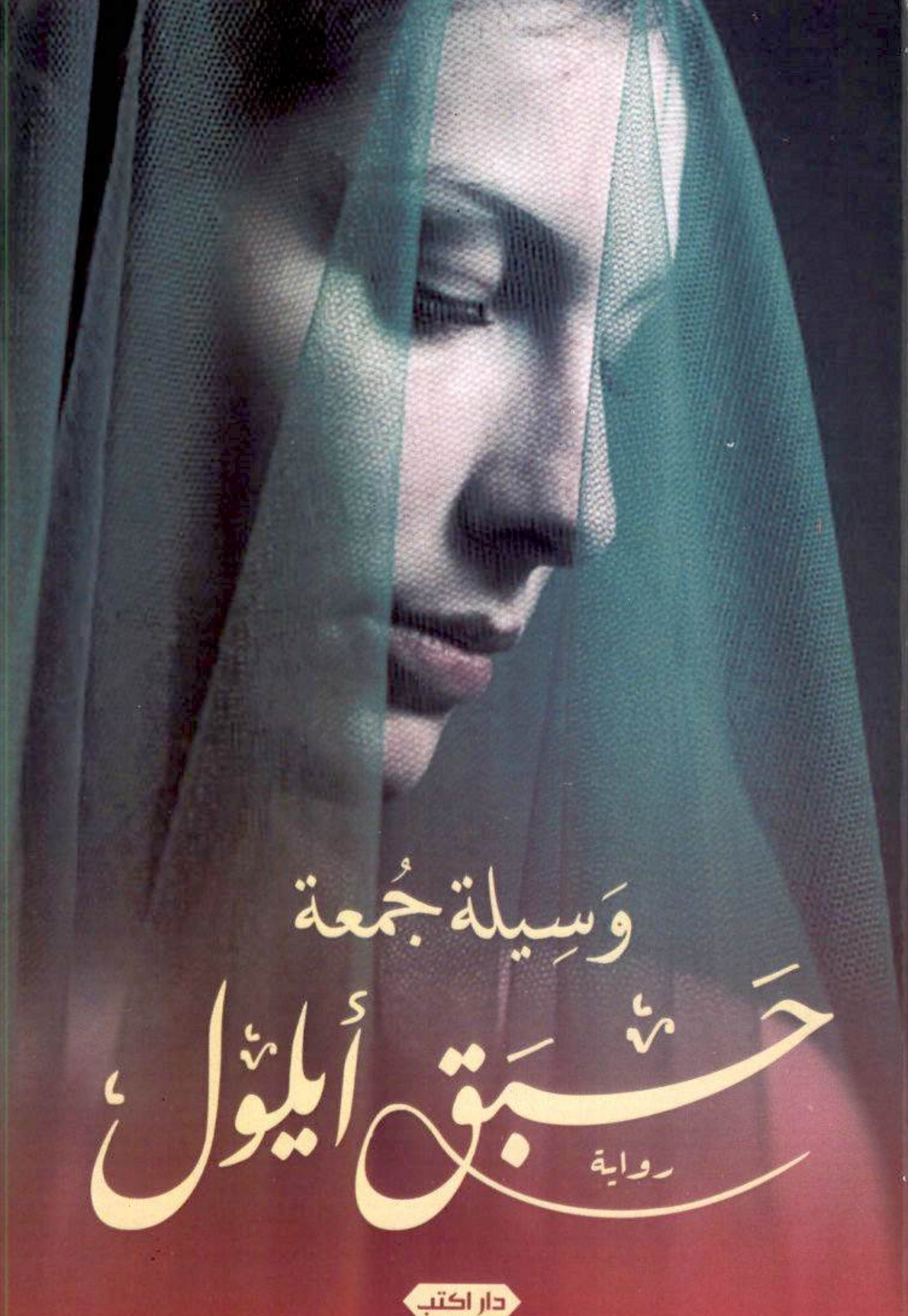

وَسِيلة جُمعة
حَبَق أيلول
رواية
دار اكتب

حـــبــق أيــلــول

حبق أيلول

وسيلة جمعة

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 25682 /2016

I.S.B.N: 978-977-488-485-6



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

حبق ايلول

رواية

وسيلة جمعة



دار اكتب للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى

أمي

و إلى طِفل الشارع الذي قال لي يومًا :

"أعطيني ليرةً أُعطيكِ قُبلةً".



1

(كُلُّ شَيءٍ يَغدُو صَغِيرًا أَمَامَ عَتمَةِ الرُّوح).



أنا لحبيبي وحبيبي إلي...

صَوتُ ناديا يُثيرُ انتبَاهَ المارَّة؛ إذ ما أَوقَظَ النائمينَ لِثَورةِ صَوت.

تُنادي، تَعَالَ يا ولَد.. آتِي لِي بِاللَّبَن، سمعتُ اسْمَهُ أَيُعقَلُ أَنَّهُ آتٍ مِن قَلبِ الثَّورَة!

أَظُنُّ أَنَّ لِلثَّورةِ رَحِمٌ تُنجِبُ المَيتَ مِن جَدِيد، لكِن لَا شَيْءَ عَاد لَا هوَ، وَلَا أنَا أَنفَكُّ أَتَذَكَّرُهُ بِشَهقَةِ نفَسٍ.

– لميا.. لميا..

– نعم أُمِّي، ماذا تريدين؟

– مَاذَا تَفعَلِين؟

– لَا شَيء، أستَعيد الوَطَن.

تَضحَك:

– الوَطَن!

– اشتَقتُ إلى مُعَانَقَة وَطَنٍ، مُتُّ فِيه قَبلَ أَن يَمُوتَ فِيَّ.

– كُفِّي عَن هَذِه التُّرهَات، وَتعَالِي سَاعدِينِي ...

– بِمَاذَا؟

– سَأَطبُخُ لَكِ مَا تَشتَهِين.

– حَرَّاء بِإِصبَعُو.

هَكَذَا دَومًا يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنِّي أُحَدِّثُ خَيَالَهَا، لَا يَنفَكُّ يُحَاوِرُنِي بِأَشيَاءَ تُضحِكُهَا.

هَيّا استَيقِظِي يَا قُرنفُلَة، استَيقَظَ عُصفُورَكِ وَالقُرُنفُلَة لَا تَزَالُ غَافيةً عَلَى حُلمِ الوَطَنِ. أَلَم يَكفيكِ هَذه السُنُون وَأَنتِ غَافِيَة لميا، أَلَم يَكفيكِ هَذَا الانعتاق؟

عَانِقِي الوُجُودَ وَاهَضِي، انظُرِي كَم كَبُرت لَم يَبقَ منكِ إِلَّا شَعرُكِ الفَوضَوِيّ، وَعَيناكِ بِرُغمِ الدُّمُوعِ الَّتِي تُزَيِّنُهَا مَا تَزَالُ جَمِيلَة.

لم تتنبّه لصوت ناديا ولا للهزات المتتالية التي تحاول من خلالها أن توقظها من تخيلاتها المتتالية، وكأنما غارقة، إنما هي تائهة داخل عوالمها

تستنجد حضور اليونانية فلا تجد، تبحث عن فَلسطينيِّها الرمادي، فينتهي بها الأمر في حضن آدم.

(أُشبهُكِ يَا نَهد)..

كُلَّمَا نَادَهَا بِهَذَا الاسم كَانَت تَضحَك.

بدأت عيناها تتجولان حول الجدران مرة للأعلى للسقف الخالي من أي ترف وأخرى على حجارة الأرض التي لا عبث فيها، حدَّقت بالجدران حوالي عشر دقائق في دورة متكاملة في كل الاتجاهات وهي تفكر وكأنها تعاني مخاض الأمومة، مخاض الاعادة والإنجاب من الموت.

تفكر ما سبب عدم طلاء هذه الجدران، أيُعقل لأني أشبهها؟! أيُعقل بأن جدي....

وقفت عند هذه الكلمة بالذات لتستوعبها بمقدارها الكبير، أعادتها ثلاث أو أربع مرات وهي تشدُّ على حرف الدال.. (جَددددي)، لتصححها بشكلها الدقيق بدأت تتلفظها بطريقة أخرى باستهزائها الهيستيري، أبي، بابا، بالفرنسية مع تسارع دقات قلبها بباااا، ولفظتها بالإنكليزية "دادِ" بدأت تسجل هذه الكلمات لديها لتتشكّل في ذهنها الكلمة الأعمق لجميع هذه المفردات باعتبار أن دول العالم تعاني داء التفرقة واللغة لتفرقة أعضائها تعاني شَتاتها، "اللغة العربية لها نموذج خاصٌّ بهيكلتها، نموذج يُعاني داء الانقراض"، لتخرج منها كلمة يتيمة تبكيها، بصراخها اليتيميّ الذي ارتعشت له الأرض.

تهزي ... نعم أنا اليتيمة على ضريح هذا الكون أنا التي لم تتلفظ يومًا كلمة بابا ولا بأي لغة، كنت مستعدةً أن أقولها بالسِّريالية... بالعبرية... بلغة الهواء لو كان بالإمكان، ولكنك أنت مَن بدَّل لي مفهوم الأبوة لينطلق بشكلٍ فِطريٍّ من أبي وجدي، وربما عشيق أمي إليك لتكون الرجل الأوحد في عالمي الرومنطيقي "حبيبي"، كنتُ وما زلتُ أعاني منكَ. ربما هو صاحب هذه التسميات المتعددة الذي – وإلى هذه اللحظة – لم أستطع أن أُركِّبُ له مُفردةً تتناسب مع موقعه في حياتي إن كان له موقع، أظنُّ أن الاسم الدقيق الذي سيتناسَبُ معها هو عشيق، ربما هو الذي كان يفكر قبل إنجابي أني سأُعاني داء الجدران الجرداء من الحياة.

وأحيانًا أخرى يخطر لي مَا الّذي يَجذِبُني فِي هَذِه الغُرفَة؟

أَيُعقَلُ أَنَّ لَونَهَا هُوَ المُشكِلَة! لَونُهَا القَاتِمَ النَّاقِم عَلَى الإِنسَانِيَّة، رُبَّمَا نَافِذَتُها المَثقُوبَة الَّتِي يَتَغلغَلُ مِنهَا كُلُّ مَا هُوَ جَمِيلٌ كَهَدِيلِ حَمَامَة، أَو لَرُبَّمَا صَوتُ ناديا!

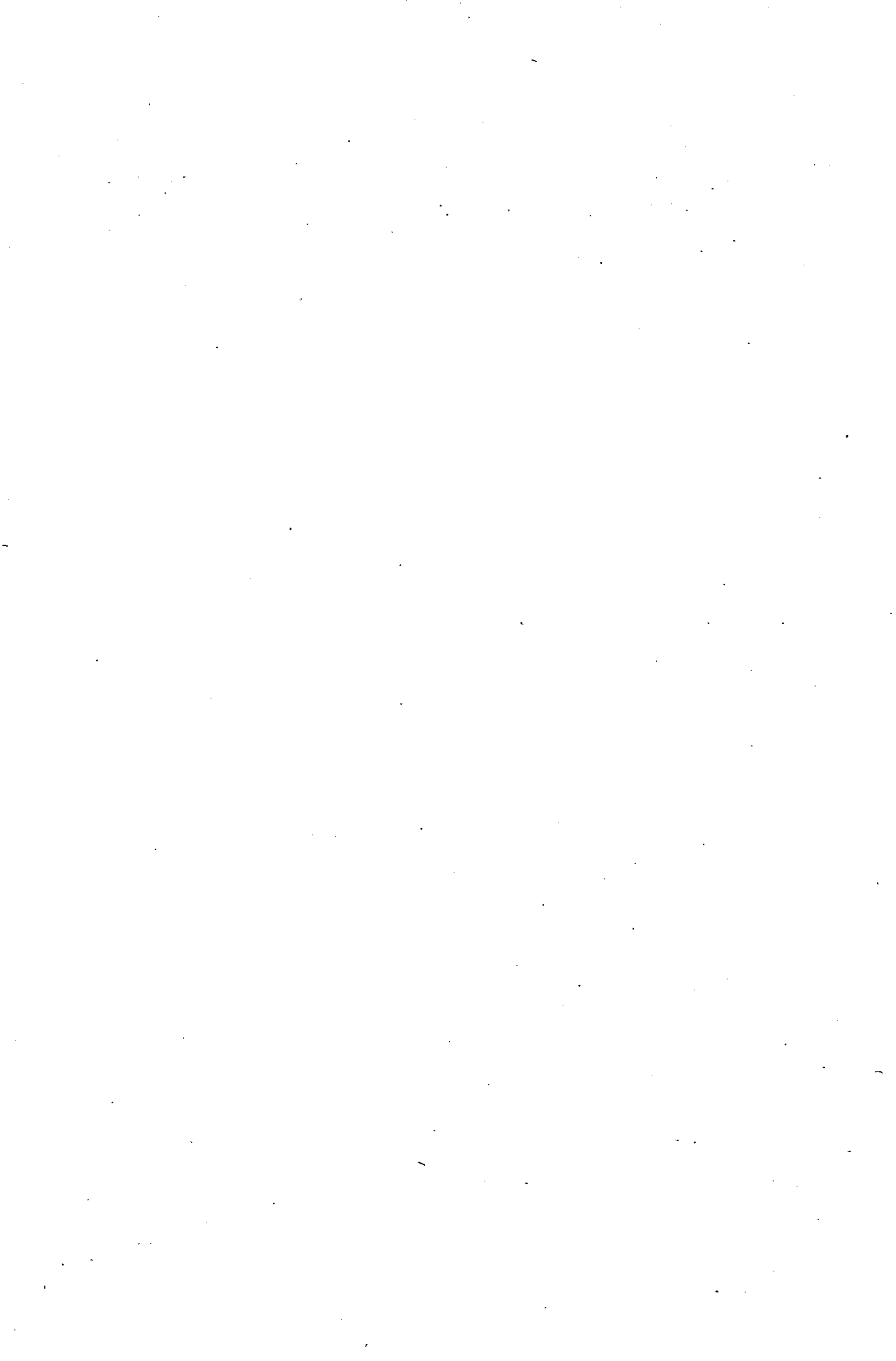
توقَّفتْ قليلًا، نظرتْ حولها وكأنما سمعتُ صوتَها، شعرت بحرارة جسدِها كأنما كانت قُربها تتلمَّس وَجَعَها، كانت قد تركتها وحدها عندما تأكدت بأن صوتها لن يُعيدها، بدأت همسها المُعتاد...

لَونُ شَعرِ جَارَتِنَا ناديا أَحمَر كَلَونِ الدَّم، يُغَطِّي بَقَايَا اليَاسَمِين.

تَضحَكَ.. تَضحَك مِلءَ قَلبِهَا الفَرِح.

تَقِفُ أَمَامَ مِرآتِها كَشَاهِدٍ يَعتَرِفُ أَمَامَ مَحكَمَةِ الإِعدَامِ، تقول:

سأَعتَرِفُ لَكِ بِشَيءٍ.. سَأَشِي لَكِ عليّ، أَنَا مَن ثَقَبتُ نَافذَتِي، كان يُخيَّلُ إليّ أني أراهُ... كغبيةٍ كنت أمارسُ دوري بسذاجة يكون خلف النافذة وأنا أمامها وما يفصلنا ليس حدود، إنما عارضة خشب حاولتُ مرارًا، وبجهد مرير أن أثقبها ليأتيني منها، ولكن عبثًا ما أحاولُ.



2

(خَيبَتِي لَا تُقَارَنُ بِخَيبَاتِ البَشَر).



تابعتُ همسَها وتذمُّرَها من كل ما يأتيها وما خزلَها ...

جَسَدي يُشبِهُ ثُقُوبَ هَذه النَّافذَة، رُوحِي هَادِئة كَلَونِ الجُدرَان.

حَمَلَت مِرآتَها الَّتي وَرَثَتهَا عَن جدَّتِها، تُشبِهُ الثَّورة.

التي فَارَقَت الحَيَاةَ وَهِيَ تُقَبِّلُ خدَّهَا. تُخبِرُهَا:

(حَفِيدَتِي وَهَبتُك إيَّاها يَا رَب لَا تُرِيهَا مِن بُؤسِ الأَيَّامِ مَا يُهَدِّدُ بَرَاءتَهَا) وكأن الله استجاب لدعوتها طردًا لتحل جميع اللّعنات عليها بما فيها لَعنةُ مخاضها، لعنة الأمومة التي لم تُمارسها أو لربما مارستها خُفيةً، لعنة الإنجاب عشرات المرات، ولم تُنجب بعد، لعنة وجودها القُدسي، لعنة انفصامها الفِطري.

بَدَأَت تَتَحَسَّسُ كُلَّ مَا بَقِيَ منهَا، لَم تَرَ سوَى السَّوَاد الَّذي وَرَثَتهُ وَهِيَ تَبكِي، شَعرٌ فَوضَوِيٌّ ثَائِرٌ عَلَى الثَّورَة بِحَدِّ ذَاتِهَا. بَدَأَت تُسَرِّحُه،

نَهضتْ تفتَحُ النَّافذَةَ كَأنَّه يُنَاديهَا، (حُبٌّ مِن نَوعٍ خَاصٍّ لَهُ نَكهَةُ الثَّورَة).

حَمَلَتهَا نَاديَا وَهِيَ تُنَادِي، استَيقِظِي.. استَيقِظِي لميا مَا بِك مُذ قَلِيلٍ تَركتُك..

ناديا خَبيرَةٌ بِحَالَاتِ الإغمَاءِ؛ لِكَثرَةِ عَدَدِ الرِّجَال الَّذينَ يُغمَى عَلَيهِم وَهُم فِي حِضنِهَا بين ريحان فَرْجِها، يَشهَقُونَ الحَيَاة، يَعِيشُونَ نَشوَةَ الفَرَح.

رَشَّت وَجهَهَا بالمَاء.. ما هي إلا ثَوَانٍ وَاستَيقَظَت، بِضعٌ مِن رُذَاذِ الحلمِ عَانَقَهَا، فَسَقَطَت.

إِلَى مَتَى هَذَا الحَال؟ عَن أيِّ وَطَنٍ تَبحَثِين؟ وَأَيَّ وَطَنٍ سَتُنبتِين؟ فَالوَطَنُ مَات وَلَن يُخلَقُ مِن جَدِيد. هَل سَمِعتِ يَومًا بِوَطَنٍ يُخلَقُ مَرَّتَين؟

لم تُعِرْ كلام ناديا أيَّ اهتمامٍ، ولا بكاءها العابث داخل جدرانها، حدَّقت بها بينما تلك الأخرى تصرخ، فهي لم ترَ إلا حركات يَديها وكأنها تتراقصُ أمامها كراقصة جمبازٍ، الفَرق بينهما أن الأولى تتقن فنَّ الجسد وناديا تتقن فنَّ استخدامه، لم تهتم لكلمتها بقدر اهتمامها لفنٍّ يديها تركتها تلك الأخرى وخرجت وهي تصرخُ، وكأني أحدّثُ ميتةً، أقسم بأنها مجنونة، فقدت عقلها، هي حقًّا لا تعرف بانها تعاني

انفصام الذاكرة الذي يسرقها منها مرةً ويُبكيها في حِضن الواقع مراتٍ كثيرة.

وَكأنّهَا مِن عَالَمٍ آخَر، لَا تَسمَعُ إلّا صَدَى عَالَمهَا يُنَادِيهَا، فَاستَجَابَت.

ذَهَبَت لِخزَانَتِهَا لَم تَترَدَّد وَهِيَ تَحمِلُ ثَوبَهَا الرَّمَادِيَّ حَيثُ لَا شَيءَ يُحَدِّدُ مَاهِيَتَهَا، أَبيَضُ أَم أَسوَد، رَمَادِيٌّ لَا لَونَ لَه، اختَارَت أَن تَكُونَ بِلَا لَون.. ليسَ كأولئك الّذينَ يعشَقون الوَطن بالألوان مجردةً من كلّ شيء يمسُّ الإنسانيّة تقول:

(رُوحي في حدادٍ دائم مع عقارِب الزمنَ).

لَم تقف عندَ موقف الحافلات، يُغريهَا جدًّا مشهدُ الشّتاء عبثَ الهَواء بشعرها بفوضَوية ما ترتديه، ويَحْدُثُ أحيانًا أن يعانقُها المطر ابنةُ الطبيعَة هي، ويحدثُ أحيانًا أخرى أن تكلّمَ الأبنيَة مِن ناحيَة الطريق العَام، حيثُ كلُّ بناءٍ معانقٍ للآخَر ببؤسٍ ربّاني، مشهَدُ الأطفَال العابثينَ بالكرَةِ بآلةِ الزمَن، بالوقت، بالثورة، معانقين الحُرّية لا انعتاقَ لا خوفَ من صاروخٍ ربّما يُنهي طفولَتهم، لا شيء يشغلَهم عن اللّعب، لَم يواجِهوا بعد ما هوَ مقيدٌ لتفكيرِهم لفكرةِ الطفولة، لفكرةِ الكُرة التي تطير في عالمٍ خاصٌ بهم مُخترقةً كل الأكوان لتُحقّق هم لربما هدف القُنبلة.

البَاعة المتجولون بصحبة عرباهم صوهم الموسيقي الذي يعانقُ السمَاء تارةً والأرضَ أحيانًا أخرى متناسينَ فوضوية هذا الكَون، كلُّ شيءٍ يجري كالمعتاد ملأ الفرحُ أعيُنَهم. يعانقُ البؤس ترهّل أصواتِهم، تقرأ في أعينِهم انتهاء الزمن، وبدأ وقتٌ جديدٌ سيُحدِّد إنهاء انتظارهم عن مسرح هذه الحياة، ستقرأ في عين كلّ واحدٍ منهم موعد الموت مع وقف التنفيذ.

منظرُ اليَاسمين مُغرٍ جدًّا تريدُ مشاكسَة الحبَق أحيانًا وأحيانًا أخرى تديرُ وجهها معانقةً كلّ بناءٍ على حدَة، والحبقُ يغازلُها يحاولُ معانقَتها.

مشهدٌ يثيرُ الغيرةَ في قلوبِ العشّاق للعبثِ مع الحب لمناداتهِ وعدم التكبُّر على وجودهِ.

الساعة الخامسة من وقت النِّسيان...

سرقتْ لها خلسةً موعدًا مع الطبيعة لمغازلة الحجارة تارةً والوحل أحيانًا أخرى لتشعُرَ أنها أنثى الطبيعة، أنثى الله.

تُريدُ ان تُعانِق الشوارع، تريد للهوَاء أن يتغلغَل داخل صدرِها، يُداعب كلّ جزءٍ من جسدِها، تُريد أن تُسافرَ حيثُ النسيان يُقيم مأتمَه الشهيَّة، وقفَت قليلًا تتأمّل الطريق المُتهادي للا شيئلائيكية شَيء فارغ من أيّ صخب

تُغني: (أنا لحبيبي وحبيبي إليّ)

كأنّها في مرضٍ مع هذه الأُغنية، كل من مرّ قُربها ظنَّ أنها مجنونةٌ، أو لربما تائهةٌ في شوارعِ المدينة.

تهزُّها يدُ عجوز ما بكِ سيدتي؟

لا شيء اعتذرُ اني شردّت قليلًا، سيّدة..!

نطَقتهَا وكأنّ الطبيعَة ثارَت على صدى صوتِها، الحجَارة انقلبَت، السيّارات توقّفت، الزمن في غفوة وقتية، السماء تصغي لصدى كلماتها، والله بكل جلاله يستمع ليتيمته لحوارها الفقهي. لم يعُد هناك بشَر صغُر العالَم أمَام عينيهَا مذُ بدأ التَاريخ لَم يُناديها أحدٌ بهذَا التعظيم الإلَهي، سيّدة.

نعم... سيدةٌ أنتِ تشبهينَ الياسَمين، كلا لا تشبهينَه فأنتِ الياسمين، بَل إنّي أظنّه هوَ من يُشبهكِ.

تضحَك..

لا أحَد يستحِقُّ، أحبِّ نفسكِ لا تُجهديهَا.

وأنتَ هل أحبَبت نفسك؟

أنا ظلمتُ نَفسي .

إنّها الخيبة أحيانًا لا أكثر.

نعَم الخيبة... (رداءٌ راقٍ باهظُ الثّمن، وما إن يرتدينَا حتّى يُصبِح شيئًا نادرَ الرّجوع).

لذَا لا تُعطي خيبتكِ الفِرصةَ أن تتغَلغل داخلكِ، تنفّسي، عانِقي الوجود لكِ الحياة.

تضحَك... هي لَم تَتغلغل بل عشّعشّت فيَّ حتَى أنجبَت أُنثى معتوهَة.

أنتِ أنثى تتوّجين على عرشِ الذُكورة المُباحة.

تضحكُ ثانيةً ..

قبلَ أن تُغادر أخبرهَا: ضحكتكِ

أقسمُ لو أنّهم نذروها لأجراسِ الكنائِس لرأيتِ أطنَانًا من البشر يخافونَ الله.

هي أُنثى عاشقَة اللّاشيء عاشقَة الفراغ، يكفِي أن يغطّي وجهَها رُذاذ من المَطر حتّى تستيقظَ للحُبّ من جديد.

تابعَت طريقَها ساعتَين وثلاثين دقيقَة دونَ أن تتنبَّه للوَقت، وصلت إلى شطّ البَحر، وقفَتْ قليلًا تتنفّس شَيئًا من السّفر يُعانقُ بقايا الحياة.

بدأَ شعرُها من تحتِ وشاحِها الفيروزي بالتبَعثر مُعانقًا بضعًا من حبّات البَحر، وأحيانًا أخرى يعبَث مع الهوَاء، فُتن البحرُ بوجودِ أُنثى

تُعانِق الطبيعَة من جميع مفاتِنها.. الحُبّ..نكهةُ الصبَاح..رائحةُ البَحر.. شيءٌ من أدرينَالين الحيَاة يتسلقُ لجسدِها العاري تحتَ العباءة الرمَاديّة اللّون!

أدارَت ظهرَها لهُ فهي لا تُريد البُكاء، تعلمُ في قرارة نفسهَا إن مكثَت أطوَل ستَبكي، وهي لم تعد تُطيقه، تقول في ذات سِرِّها:

(هو البحرُ أحيانًا يسرقُ منا ما يبكينَا، فيجعلُنا نبكي دونَ قصدٍ) حملت بعضها وغادرَت.

نعَم ذكرياتُنا أدوات راقية وجدَت فِراشًا دائمًا لهَا في خزائِن دموعِنا، أصابَها الوجَعُ، فِهي لم تعُد تحتملُ الألَم.

بائعُ الذُرة يُنادي: ألا يوجَد عاشقٌ يحبُّ الذُرة، لم يكُن بمقدورِها أن تتنَاول شيئًا لا تُريد أن تكسرَ بخاطرِه، ولكن هي لَم يُجبرها أحَدٌ، لا تزال تتناول من وجبَة الصباح، هي ذاكرةُ اليوم، مشاكسة لم تكن تدري، لم تُجهّز نفسها لمفاجَآت الواقِع بأنّه أحيانًا يغازِلنا يُباهِتنا خُلسة، وأنه في كل مرة يشي لنا بأن نكون على استعدادٍ لاستقبالِه، ولكن دون قصدٍ أو لربما بقصد نتعمَّد المُضي دون سماع نداء الروح.

لَم تكُن تعي أنّ هذَا اليوم هو زائرٌ ثقيلُ الدم، هذا اليوم هو ثورةٌ كاملةٌ خامدةٌ تمامًا كحبّة بُركان ما أن تُلقي فيهِ حجرًا حتّى يستيقظَ مدمّرًا كل شيءٍ أمامهُ، هي الثورةُ عندما تأتِي لا تطلُب إذنًا أو حتى

موعدًا مع النسيان، لا تطرُق الباب قبل مجيئها، لا تخضَع لآداب السلام أو حتّى لإتيكيت التعامُل مع الحيَاة.

يجذُبها اللَّون الأبيَض دونَما وعيٍ منها شاردةَ الذهن ربّما في عصافير تطير أو غيمةٍ تنادِيها هو لونُ السماء يُمازحُنا لا يستقرّ على لونٍ، أحيانًا تراهُ رماديًّا.. أحمر... وأحيانًا أخرى بيضاء لا عبثَ فيها جنينيّة لا تزالُ في المهد يشدّها اللون الأبيض كعصفورة تُغني لحنًا قديمًا.

لم تتنبه للرصيف الذي تمشي عليه بأنه مليء بالحجارة مع رمل رمادي يتناسَبُ مع لونها الماهي، فهي تغوص داخل ذاكرتِها، حتى مرة تمنت لو تنام داخلها، فتغفى. لم تعِ لمرض عينيها، لم تستجِب لنداء الحياة لتتابع معالجتهما عندما أجابت آدم: أريد أن أرى ضبابهما، لم تعد الشكلية تعنيني، هي من الأصل لا تعنيني.

هزّها صوتُ رجلٍ..

انتبهي فتاتي، كدّتِ تقعينَ أرضًا!

لم تتنبّه للحُفرة التي أمامها بقدرِ ما شدّها الصوتُ الذي يُناديها..

انتبهي فتاتي، كدّتِ تقعينَ أرضًا!

لم يهز أذنيها، إنما انتفضَ جسدهُا لصوتِه، تردَّدَ الصوت داخل مجرى رأسها، وأذنيها، وفي كل تفصيلة من جسدِها، وكأن العالم من

حولها الخرس حتى اقشعرت كل شعرة منها تمهيدًا للقيامة. سبع عشرة مرة وهو يُردِّدُ: "انتبهي فتاتي، كدتِ تقعين أرضًا".

لو لم تسمع الصوت ما كانت رأت إلا ضبابًا أمامها، وكانت ستتابع طريقها دون أن تتعرف إليه كخيال مَرَّ قُربها، عانقها مرةً وماتت بعدها.

لم ينبِّهها قبلًا أن تنتبه لئلا تقَع في قلبهِ سهوًا، لم ينبّهها لسفره المُفاجئ حتّى أنهُ لم ينبّهها للثورَة.

كانَ هذا الصَوت الذي هزّها حوّل قُشعريرَة جسدَها لبحرٍ خامد لا شُطآن فيه، لا موجَ يصرُخ منه صوتُ المُسافر، لا رجعَة لا بداية ولا نهَاية، لا موعد ولا إذن لا غافيَة ولا صاحيَة، متصالحةٌ مع السماء أحيانًا، وأحيانًا أخرى ثائرة معهَا حتّى الدونَات التي كانت تُطعمه ايّاها لرُبما نسيَها، اللون الأحمر الذي اعتاد أن يتزّين على خده بقبلةٍ طائرة منها تحطُّ جناحيهَا بلُطف على كتفه لتهمُس إن تأخّرَ، اشتقتُ إليك شَقيّ، ربطات العنق ذات اللون الليلكي التي تعودت أن تعقصها مع شَدِّها للأمام ليتلاحم مع جحيم جسدها لربما نسيها، مناداته لها كما خُيِّل إليها بعصفورتي تمهيدا لانفجار ذاكرتِها بأكملها.

لم تستوعب ما يحدث، وكأن ثقلًا كبيرًا هدم ما بَقِيَ منها لتِسترجع كل ما نسي بلحظةٍ، وتتماسك لكيلا تهزم أمام الرجل الذي هزمها بكامل جبروته.

صوتهُ كان كفيلًا بأن يهدّئ ذاكرتها..

سادَ صمتٌ طويل حركتهُ ملوحة البحر..

كيف حالكِ؟

.....

ما بكِ؟

أتفهُ سؤال ممكن أن يوجّه إليّ وأنا ما زلتُ على قيدِ الحياة هو أنّه كيفَ حالي؟

...

...

إلى متى هذا الصمت سيُزّين الرجل اليتيم في ذاكرتكِ؟

إلى أن يأتي.

أنا أمامكِ قد أتيتُ يتيمًا يرتجي حِضنك فيرتاح.

رافقَ صدى صوتِها تلعثم المفردات مع غُصةٍ بتباطُؤ كل حرف مما قالته له..

لا ..يتيمَ.. لديَّ ..وغادرت.

كلّ هذهِ الذاكرة التي تفتقدُها تعيشُ معهَا لمهمّة البَوح وحينَما وصلت مرحلةَ البوح كأنّها أنثى لا تهدأ، لا تستَكين، تَبكي ولا تُريد.

بدأ الصُراخ، ما الذي فعلتُ لألقَى هذهِ الحقود، أُنثى هي لا تعرفُ الرحمَة، انظر لحالها ياسمينة ترتجي الرّاحة، مُتعبَة تُكابر، اللعنةُ على الكبرياء! اللعنةُ على النرجسيّة! اللعنةُ على حبّي! اللعنةُ على الموت!

(هنّ الإناث يرتجِينَ الحياة، وهنّ في قلبِ الموت لا يشحذنَ الحُب).

بدأ يَهذي بكلمات مُبهمة لا معنَى لها..

بدأ البُكاءِ وهو يردّد: (نعم أنا الرجُل الذي يبكي مِن نظرة أُنثاه)

خرجَت منهُ آهِ وكأنّها خرجت من رجلٍ ناهز الثمانينَ عامًا أهلكتهُ معركة الحُب، كل مَنْ شاهدهُ ظنّ أنه مجنونٌ على رصيفِ الحياة.

لا تُبالي بأنّها لم تراني مذ إحدى عشر عام.

تابَعَ هذيانه ... لا تُبالي وكأنّي لا شيء، وكأنّي لا شيء.

أُقسمَ لو نطقت عيناها لقالتا لي تعالَ، ولو نَطَقَتْ لقطعتهم بيديها أعلمُ ما بها لن تستَكين أُنثى هي تقتلني ولا تموت.

لا أحدَ يسمعهُ يصرُخُ لا مُجيب.

حتّى أنها لم تنظر في عيني تركتني كأني شحّاذ.

هي بقرارةِ نفسها بأنّهُ رجل الكلمة الأولى، إن قال أحبُّك فهذا يعني أنكِ آخر النساء لديَّ، لا مُنازع بعدك خاتمة الأنوثة.

لو كانت تدري بما يهذي لما أدارت ظهرَها، كانت قد عادت أدراجها تعانقهُ كطفلٍ يرتجي الراحة في حِضنِ والدته فيرتاح.

(الإناثُ الشرقيّات دومًا يكسوهنّ داءُ الكبرياء وهنَّ في غمرة الموت).

سألَ رجل شارد الزهن، قطع عليهِ وحدتهُ:

هل هناكَ مَنْ يترك الرجل وحدهُ يبكي دون رأفةٍ؟

يضحك.. المرأة

وأنا رجل أبكي.

ولكنها امرأة

ما الفرق بين الأنثى والمرأة الشرقيّة؟

الأُنثى الشرقيّة تقضي على دموعِها، تبكي وهي في عمرِ الحياة، أمّا المرأة هذا الشيء العصيّ على التفسير تجعلكَ أنت الذي يبكي دون بُكاء، والمرأة التي تجعلُك تبكي هي التي تحبُّك، ولكنّها تُكابر لا تستهين بامرأة إن كانت سورية، فهي أُنثى الكبرياء هؤلاء منذُ بدءِ الخليقة خُلِقْنَ يجبنَ يهزِئنَ من الحُبّ، وكبرياؤهنّ يقتلهنّ يبكيهنّ من الوجع دون أن تدري، والمرأة السوريّة أُنثى بالفِطرة..لذا لا يمكنك

أن تتحدّث عن الفرق بينهنَّ، جميعهنَّ في الحب إناثٌ متمرداتٌ، أنثاك التي جعلتكَ تبكي هي ثورة.

ماذا يعني أن تكون امرأة شرقيّة؟

لن ترضى الهزيمة.

لكنّها لا تُشابهُ أحدًا.

لأنّها لا تشابهُ أحدًا جعلتكَ تبكي.

يبكي..

أعطاهُ العجوز منديلهُ الّذي لا يتجاوز طولهُ مع عرضهِ ستّ أصابع، بقيَ لهُ من معشوقتهِ التي كابرَت إلى أن جعلت منهُ عجوزًا يتعدّى ألفِ عامٍ.

كانت قد وصلَت لباب البناء حيثُ أخبرتهُ ناديا الذي عرف عنها ما لا تعرفه هي مذ سألهاِ منذ ثلاثة أعوام أين هي؟

أجابته حينها: إنّها هنا تتنفّس موهّا، لا توقظها.

عندما رأتهُ رجلًا باريسيًّا في ساحات الشّرق ينتظِر أُنثى على حافةِ العُمر تتساقط، واقفًا دون حراك، عيناهُ تتجولان حولَها، نظرتْ إليه خُلسةً وصعدت.

هو يشاهدُها ويداه في جيبيه، بذّته السوداء بياقة مفتوحة مُزينة بأزرار فضية ومنديل أحمر يظهر من شقٍّ جيبها العلوي من الجهة اليمنى. هدّأته رؤيتُها فارتاح بصمت.

توّج الصّمت الرِّجل اليتيم في حضرةِ أُنثاه.

دخلَت دون كلمة تُعانق غرفتها..

تتنفّسُ الياسمين، دقّات قلبها تدقُّ مسرعةً لو سمعها لفضحَها قلبُها، ولكنّها حمدت الربّ بأنّه لم يسمع شيئًا.

فركت يدها اليُمنى باليدِ اليسرى لا تدري ماذا تفعل.

شيءٌ من الحُب يباغتها..

شيءٌ من اللهفة يغازلها..

شيءٌ من الغبطة تُعانقها..

شيءٌ منَ الطفولة يسرقُها..

شيءٌ من الطبيعة يأتيها..

بدأت تكلّمُ نفسها: إنّهُ زيوس الشّرق، تعالَ حبيبي..

تعالي حبيبتي..

لكَ اللّوزُ والسُّكر ولي خدُّ القمر تسرِق قبلةً لها وتغفو.

حركّت مفتاح غُرفتها حركة لليمين ...

الآن لَن يستطيع أن يدخُل أيُّ ذكر إلى أن تفتحَها هي بنفسِها إن أرادَت، هي القائدُ والمواطن، الوزيرُ والرئيس، هي ملكةُ القفل والمفتاح هي فاكهةُ الحُب.

(تغدو الأُنثى فاكهة الحُب إن داعبت ولو جزءًا صغيرًا من ذاكرها، تشاكسُ الطبيعَة).

بدأت بترع ملابسِها عن جسدها، بدءًا بالأجزاء الخارجية انتهاءً بسروالها الداخلي، وكأنها تريد أن تلج ذاتها، وشاحُها الفيروزي وضعته بعناية فائقة على حافة السرير، ثوبَها الرمادي وضعته جانبًا إلى أن وصلَت لمرحلة العُري الكامل، لا شيء يشوّهُ الجسد كبدء الخليقة. لؤلؤةٌ عاجية طافيةٌ فوق سطحِ الحُبّ، وقفت أمامَ مرآها تُطالع ما بقي منها، تتحسّس ثدييهَا ببطْءٍ شديد خوفًا من أن تؤلمهُما ضغطت عليهما برفق تَحميهما بيديها الى أن وصلت للحلمة عصرها بيديها إلى أن صرخَت، كانت خائفةً أن تؤذيهما، احمرّا إثر الضغط عليهما، رفعت يديهَا، نظرت تحت إبطيها لترى أما زالا كمَا هُما، لا شيء يثيرُ الاشمئزاز، فهي منذّ أحد عشر عامًا لم تتفقّد جسدها، شيءٌ منسي بين زوايا المدينة، هل ما زالت كما ناداها طفلُها!

رائحتك كالحبق...

أخبرته حينها: أنهُ حبقها الأجمل.

هبطت للميناء تلامس الخليج، كان أملَس لا تعريجة تُزعج النظر كمنحوتة منسية هذا المرفأ البريء الذي لم تستلقِ عليه سفينةٌ حتى اعتاد الوحدة، اعتاد أن تكون سُفنه الطبيعة وما عداها شيءٌ لا يعنيه.

ببطءٍ شديد تلفُّ يديها حول خصرها بشكل متصلّبٍ لكيلا تنسى أن تتحسَّس ولا جزء كانت قد غفلت أن تتفقده، منسيًّا، هبطت بشكل متسارع لفَرْجِها مُطبقةً فخذيها لتلامس منطقة تجي التي أشارت إليها الدراسات بأنها المعبر الأساسي للأجزاء الأخرى حيث بها البداية وليست النهاية، مُتناسيةً الأسماء الأخرى لعضوها الأنثوي، تريدُ النشوة التي تفقدها ذاتها، تخرجها من عتمتها لنور أكبر، ترى فيه كونًا متكاملًا لا أنس فيه مليء بالبياض.

اكتسبت ثقافة جسدها من ناديا التي علمتها بطريقة غير مباشرة كيف تتشرَّب جسدها، كيف عليها أن تهرب من ذاتها لحِضن زوجِها تريد أن تفهمها بألا تكون غبية كأولئك اللواتي يعشن مرحلة الإيلاج دون الوصول للنشوة، مُتناسيةً أن زوجها إلى الآن لم يلمس منطقة إيلاجها، حتى أنه لا يعرف من أين تلج ومن اين يأتي بالنشوة لأجلها أو لربما ولجها بطريقته الجسدية، حتى ناديا لا تفهم نشوتها التي لا علاقة لها بجسدها، فهي تصلها روحيًّا إلى الآن تعيش مرحلة النشوة معه مرحلة السفر والخروج من ذاتها ودخولها عالمها السرمدي.

لربما ناديا تتقن فنَّ الجسد فقط؛ لأنها إن ضاجعت خمسة أو ستة رجال في الليلة لا تشبع غريزتها متناسيةً أو لربما لا علم لها بالروح أو لربما تتجاهلها، والتي لن يتمكن كائنٌ من ولوجها إن لم يلمس خُبزَها، خبز الروح هو مِلْحُ الجسد.

بدأت تلفُّ يديها حول جسَدها بالكامل إلى أن تكوّر، تهدهدُه بأن يغفو وألا يُبالي بالثورة.

لم تشعُر إلّا وهي مُستلقية على الأرض تبكي تردّد: واقعٌ مؤلّم لا يأخذ منّا إلا قطعة الحنين الّتي نملك. استمرّت على هذا الحال سبعُ ساعات لم تشعر بالبرد الذي أصابَها وكأنّها بنشوة الحُب تعيش، لا شيء يغطّي عُري هذا الجسد سوى خصلات شعرهَا الأدهمي الذي تتنّفسهُ منهُ، يغطّي أكثَر من نصفه كأنّ طيفًا من خياله مرّ فهدَأت برودتُهُ، وجهها للسقف، ممددة كجسد امرأة ميتة، كياسمينة ترتجي الراحة، تنتحبُ بكاءًا كأنّها تلد، تعيشُ مرحلة المخاض، داخلها جحيم يسكن مسام جلدِها.

هنّ الإناث يعشنَ مرحلة الأمومة قبل أن يَخُضْنهَا.

تردّد: سرقوا مني عمري، كادَت تغفو لولا صوتُ ناديا التي أيقظَتها بضربِ الباب برجلها، دفعتهُ بلطفٍ تُناديها وما هي إلا بضع ثوانٍ كانت قد عادت لوضعهَا الّذي أتت به، ثوب رمادي مصحوب

بمنديل فيروزي، ولكنّه هذه المرّة لا يغطّي الرأس، إنّما مُتدّلٍ على كتفِها بتثاقُلٍ.

– أين كنتِ؟ ومتى أتيتِ؟ لم أراكِ!

– لا أذكُر كنتُ أزور ذاكرتي قليلًا.

– ماذا؟

– لا شيء.

– وأنتِ هل أنهيتِ واجباتكِ؟

تضحك.. صوتَها ذو الطبع الحَاد يحدث أن تُقهقِه حتى تلاحظ الخشونَة التي يُظهرها مع تناغم حركة من جسَدها بضرب يديها كلٌّ بالأخرى وهي تقول:

– متى تُنهي امرأة مثلي هذا الكمَّ من الرجال، يكونَ دوني؟ ما إن لفظت كلمتها الأخيرة حتى انتقلت يداها تلقائيًا لخصرها، أتعلمين لميا؟

– ماذا؟

يخطرُ لي أحيانًا أن أحرِقَهم جميعًا، أن أقوم بمجزَرة جماعية، ولكن لا أستطيع فهم طيبي القلب جدًّا، ولا ترين ماذا يفعلون بنظرةٍ منّي إن قلت لهم موتوا سيجسدون طلبًا للمغفرَة، أترينَ عملي كم هو ربّاني، وإن رأيتهُم في حِضنِ امرأة أخرى غيرَ بناتي اللواتي لم يُنجبهنّ رحمي،

أقسمُ أنّي لن أهدهدَ لهُم، ولكنّهم لا يقوون، ضُعفاء لا حيلة لديهم، أن يناموا في حضنِ امرأةٍ، هذا بحدِّ ذاته يُمثِّلُ لهُم الجنّة.

– ونساؤهم؟

– البعضُ منهم متزوج، والبعضُ الآخر طائر حرٌّ لم يقتنِع بفكرة الزواج بعد، هؤلاء طيبون لا يقوون على دعسِ نملة، أما الصِّنف الآخَر، أولئك خبيرون بالمرأة إلى حَدٍّ يفوقُ الوصف، وليس هذا فقط بل هم خبيرون بعملية الحُب.

– عملية الحب..؟

– نعم عمليّة الحُب التي تُمارَس بالفِراش، هؤلاء لا يمكنك أن تكلميهم إلا وهُم في الفِراش تعطيهم قبلةً يمنحوك الحياة، طبعهم صعب إلى حَدٍّ لا يسمحَ لكِ أن تكليمهُم عن زوجاتِهم أو فيما يتعلق بحياتهم الخاصة، ضاجعيهم ولكن بصمتٍ، وأحيانا لهم ذوقُهم الخاص بالتفرُّد بالفتاة التي يريدون، وأحيانا يتلذذون بتعذيبها دونما التقرُّب منها، وهؤلاء كلما ناموا مع زوجاتهم يصرخون وجعًا من قَرفِهم من غبائها؛ لذا يهربون ليجدوا الراحة بين أحضاني، ومهمَا يكونوا أذكياء أظنّهم جرذانًا غبية في حقلٍ تجاريٍّ مهما تتوصل الاكتشافات والدراسات لممارسة الحب، يبقى الجنس البدائي هو الذي يُحقّقُ اللذة والولوج للنشوة.

أُقسم أنّ عدد الرجال الذين مروا بحياتي هم أكثر من عدد الشعر الذي على رأسي، تُنهي كلمتها الأخيرة مع قهقهةٍ تهزّ البناء مع ارتفاع أحد حاجبيهَا.

تلك الأخرى تحدث ذاتها...

الجنس البدائي كان الصوت قد خرج من بين شفتيها قبل أن تكتمل لديها الرؤية الكاملة لها.. عندها تبعتها الإجابة: يعشق الرجال الجنس البدائي القائم على توحُّد جسدين واحتكاكهما معًا، فمهما تتطور التقنيات الحديثة لتشويه صورته لن يستطيعوا استبدال الآلة بدلًا عن حرارة الجسد هناك شعلة تنهال من الأجساد أثناء تداخلهما معًا ولو أنها فقدتْ أصولها، ولكن في الجنس يعشق الرجل السادية وبطبيعتها المرأة مازوشية تعشق مَنْ يؤمرها ومَنْ يمشي فوقها، ولو أعطيتْ الحريةَ أن تختار لطالما عشقت الشرقية، فهي قبلت مذ بدء الخليقة أن تتبع غريزتها، وكان هذا مذ النشأة الأولى لولا ذاك الرجل لم أعد أذكر ما اسمه، ولكني أظنُّه طبيب في أحد المجاري، أعطاني درسًا كاملًا عن الجنس وتشريحات الجسد، والكثير عن مسميات كنتُ أجهلها تمامًا، والآن كما ترين خبيرة بجسد المرأة كما الرجل تمامًا، فمن لونه أستطيع أن أحدِّد لك إذا أنهيت مدته أم أنه قابل للاستعمال حتى أنه يمكن تحديد عطب الرجل من مشيته، لقد خبرت الكثير لميا لا يزورني الزبون مرة أو مرتين، إنه مقيم لديَّ ما دمتُ أوفِّرُ له المتعة

دون فرض، فلن يتردد من القدوم مرة ثانية وثالثة، الرجال بطبعهم يعشقون الحرية، يعشقون السادية والطيران دون مقابل، إياك أن تمتلكي، فعندها ستخسرين آدم، لا تبحثي كثيرًا عن الجنس البدائي؛ لأني أنا مَنْ سميته من خلال تجاربي بهذه التسمية، ولو أمكنني الجلوس على أحد الكراسي البرلمانية لدراسة وضع الوطن لشرحت لهم الجنس على العلن، وممارسته أمام أعينهم بدل التَّداوُل من تحت الطاولة، ونقطة ينتهي الأمر. هذه كل المشكلة بأننا نُريد ولا نُريد، بأننا نبحثُ عن حلٍّ، ونحن كل المشكلة نحن نركض إلى الروح خوفًا من مواجهة أهواء النفس، لا أحد لميا يطيق أن يعترف بذاته، الجميع هنا يعشقونني، وكل مَنْ في الخارج يلعنونني، أنا نبذتُ مذ وُلِدْتُ.

– أنتِ فتاة لم تختبري معنى الحياة بعد رُغم كل ما أعلّمه لكِ وما ترينه في منزلي تبقين صمّاء، لا علْمَ لي إلى مَتى هذا الصَّمَم سيسطر عليكِ، كُفّي لميا عن هذه التخيُّلات، وانهضي، افتحي عينيكِ، ألا تخافين أن يعشق آدم واحدة أخرى؟ اخرجي من عالمكِ الرومنطيقي، تلك الأخرى تحدث ذاتها بأنها معجبة بثقافة ناديا التي تعلمتها من ذاتها من الحياة التي اختبرت منها و اختبرتها، و بأن الواقع أحيانًا يجبرك على فعل أشياء لا تطيقها ذاتك.

رُبما تموتين، ولن تعرفي أن الحياة ليست حُلمًا نعانقه ونغدو. الحياة ليست روحًا تحتاج لعناقٍ ضالّتها كانت إنما هي بالنسبة لي رَجُل وإن

كان مومس مقرف يكفي أن يكون ذكرًا أتقاضى منه المَال ويتقاضى بعض الفرح الذي أعطيه ولو كذبًا.

أن تُعانقي الكتَاب وتغدين حالمةً هذا لي حِرمان الحياة، قولي ماذا يقدّمُ لكِ هذا الشيء الذينَ تحملين؟

– الحياة..؟

تلك الأُخرى ازداَد صوتُ ضحكتها كأنّها اشمأزَّت أصابها الغثيان من الكلمة التي يقدمها كتاب، الحياة، لقد تجاوز عمركِ الثلاثين وما زلت تؤمنين بأن هذا الشيء يعني الحياة..!

– ولو بعد موتي سيغدو قبرًا مُريحًا لي.

تُجيبها الأخرى بضحكةٍ ربما أثر صوتها شقّ السماء إن ما انفجر البناء.

– ماذا تعني لكِ الثورة ناديا؟

– الثورةُ هي بعض من فورة ليسَت أكثر أذهبَت ثلاثة أرباع الرجال الذين أعشَق إلى حيثُ لا أعلم، أحيانًا أبكي عليهم لولا القلة الذينَ بقوا لي لُمتُّ.

– متَى سيأتي لميا؟

– لم يخبرَني أظنّه اليوم؟

3

(ماتت دون موت)



لم يهُزّ موتُ رام ابنة السيد محمود الإسكافي صانعِ الأحذية هدوءَ الحي، حتّى أنّه لم يُزعج الغافين على صوت موت، أحذيتهُ التي ذاعَ صيتُها وسطَ المدينَة فضلًا عن أرجَاء الحَي على أنّها أجوَد صناعة يدويّة، حتى أنه اشتُهِرَ بها وأصبحوا ينادونه بدل اسمه بالإسكافي الذي لاحقه مذ ولادته ومن قبله والده الذي سبقه جدُّه الأكبر، وهي الكلمة المتداولة في الحي، لدينا دائمًا بدائل لأسمائنا بمهن يُعرف بها صاحبها، وهكذا يُلاحِقُه هذا النعت لموتِه أو لربما بعده هذا الشيء لم يولد بالفطرة إنما توارثوه عبر الأجيال كان يؤخذ بداية عن طريق رفع الكلفة بين الأشخاص حتى أصبح عادة فيما بينهم.

لم يتوقف عن صِناعتها بيديه المرهقتين على الرغم من الدمامل المستمرة التي كانت تظهر عليهما إنما يعتَني بها عنايةً فائقة وكل من

يراهُ للوهلةِ الأولى يظنّه يُداعِبُ جسدَ امرأة، وما إن يفرغَ من صناعة زوج منهُم حتّى يحملهُ بين يديه يقبّلهُ ويضعهُ جانبًا كأنّه يودّع امرأة.

حذاءُ رام الذي لم ترتَدِ غيرهُ كان هو من صنعهُ لها بعناية طفلة لم تخضَع قدماهَا لعمليَة النّمو التي تخضع لها الأُنثى، إنمَا بقيت مذّ أن صنع لها حذاءها مذّ أن كان عُمرها خمسةَ أعوام، نمو قدمَيها لم يخضع لطبيعةِ الحياة، لم يخطُر في بالهِ يومًا أن نموَّهما ليسَ طبيعيًّا وإنما اعتبرها نعمةٌ من الرب منَّ الله عليهِ بنعومة أظافر طفلته. تجاوزَ عمر فتاته العشرينَ ربيعًا، وهي لا تزال بنعومةِ الخمسِ سنوات، طفلةٌ منسيةٌ بين زوايا الحَي تعشقُ تفاصيلَ الطفُولة الّتي لم ترَها يومًا صنعَ لها مسبقًا حذاء يتناسبُ مع عمرها عندَما أصبحت في الثالثةَ عشرةَ ولكنّهُ ظَلَّ على حالهِ تضعهُ أمام مرآتها تتأمّلهُ كلما اشتهت أن تغدو أُنثى تُداعِبُ أطراف قدميهَا، وكلّما حاولت أن تجرِّبه لتمشي كسيدة من سيدات هوليود على البسَاطِ الأحمرِ كانت تقع لم تُفلح يومًا أن تمشي كمشية فتيات الصالونات، لا ترنّح بمشيتهم استقامة تفوقُ الوصف.

موقَا لم يكنَ الفاجعة التي اهتزّ الحي بأكملهِ لأجلها لم يستجب المارّة لصُراخٍ له نكهةُ الصمت، لم يتنبّه سكّانهُ لوجودِها، ذهبت كما يذهبُ الميت دون صوتٍ، لا مُناجي دون رجعَة، لا وداع يُعيد الذاكرة إلى سريرهِ الأبدي الفارغِ من أيِّ زينةٍ تُحدثُ الجلبَة يستقبلَه بهدوء أُنثى علَى طاولة عشاءٍ فاخر. الطريقة التي ماتَت بها هي التي

أحدثت ذعرًا في قلوبهم خوفًا على بناتهم بأنّ أحداث الوفيّات اللواتي مُتن دونما مَوت تعيد كرّتها، وأنّ موعدهُم مع النسيان قد غفا، قد طوَى رحلته وغادَر متناسيًا وعدهُ بأن يمحو ذنوبَهم يذوّبها في فنجان الشاي كقُطعة سُكّر. هي الحادثةُ الأغرَب مذّ ما يقارب المئة عام متجاوزين النسيان، المُلاحظ لحادثة الوفاة أنّها لم تَستخدم أداةَ قتلٍ على عكس اللّواتي متّنَ قبلها شنقًا.

موسى الحِلاقة قُربها دونما عبَث نائمٌ دون عنَاق حبلُ الغسيل المرتمي على حافةِ السرير قربَها وكأنّه يهدهد لُها: نامي يا جميلة لونهُ بني مصنوع يدويًّا من جلد خالصٍ لا عبثَ فيه، لطَالما اعتادت أن تلقى حتفها بهذا الشيء الشاهد على جريمتهِ بيد قاتلته، اختارتهُ عند الموت ليكونَ رفيقَها ليرأف بضحيته.

قدّيسة أعلَمت لميا في رسالتها التي كنّ يتناقلنها من خلال طِفل الحي الّذي أُنّث دون عِلمه يتميّز بحركاتهِ المائلة ومشيته المستقيمة ونظراته الصارِمة الّتي ورِثها عن والدِه، كانت الذكرى الوحيدة التي ينقُم بها على حالهِ والتي بقيَت له من زوجتهِ التي بترت لطفله هذا الشيء الّذي ربّما يحوّله فيما بعد لرجل كوالدهِ اختارَت أن ترأف بالبشريّة وبنساء الحي خصوصًا أن تجنبهم عاهات ذكورية تقف أمام حريتهنّ، فكان هو الذي يكتمُ الأسرار بالعلن ويفضحَها مساء بحضور ماخورهِ الذُكوري.

في الرسالة الّتي تجاوزت المئة كتبت فيها: بأنّ رام تتلقى العذاب على يد مجرمِها، لا أحد يعلمُ عن معاناتَها حتّى فتيات الحي ممنوعات من الزيارة أو حتّى الاطمئنَان على حالها، تقضي المسَاء كطفلة جائعَة لحضنٍ فلا تجد سوى عيني ذئبٍ تتبعانها في المكان الذي يحدّدها في غرفةٍ محاطة بكُل ما هو مثيرٌ للاشمئزاز، ومضرٌّ للنفس البشريّة، وكأنّها غرفة معزولة عن أبنيَة الحي، وهي تشكّل نهاية الحي الذي يأخذ شكلهُ المدوّر شكل الدائرة، وكأنّك تمشي في قوقعةٍ لا نهاية لها كالكُرة الأرضية، فمن حيث تبدأ تنتهي، ولكِن في مكانٍ مختلف مقابل للمكان الذي بدأتَ به.

هي الغرفة الوحيدَة الحارسةُ للقبور المواجهة لهُم خالية من العبث ومن ترفِ الحياة، عاريةٌ من أي رداءٍ يشوّب طبيعتها، فيخُلٌّ ربما في تُوازنِ حيِّهم المَقيت، نافذتان مغلقتَان بإحكام تام، إن ما حدث هدمٌ لهذه الغرفة لن يقدر بشريٌّ أن يتنّفس منهما هواء كأنّما صُنع بالخطأ عن طريق المصادفة، لا لونَ لها إلّا اكتئاب الحجارة الحاد الّتي على حالِها، لم تتعرّض لحالة الهندَمة وإعادة طيّها من جديد، حالُهم أشبه بحالةِ البائسين العاتبين على الزّمن الهاربين من دائرة الحياة، لم تلد إلّا بصحبةِ الموت الذي رافقَ والدتَها هذا الشيء الذي سمعتهُ من والدها كلّما سألته عنها يُجيبها: أنت سببَ البلاء.

حتّى أنّها آمنت بأنّها سبب وفاتها لربما عانت الأمرّين وهي تنجبها، هذا ما فسّرته لمعاملته الهمجية إن صحّ القولُ البدائية معها في قرارةِ نفسها هي سبب وفاة والدتها التي لم تعرفها لا من خلال وصفٍ يحدّد تفاصيلَها ولا من منديل يذكرها بها لم ينبهها يومًا أنها نسخة طبق الأصل من تفاصيل والدتها بقامتِها المَمْشوقة، وعينيها الجاحظتين، يكاد بؤبؤهما ينتفض بياضًا بشعرها الفضي الذي يصل لأديمها، مَنْ يراها وهذا لم يحدث أبدًا يظن بأنها إحدى الجنيّات اللواتي وُلِدْنَ بالخطأ كوالدتها عند ولادتِها صُعِقَ كل من رآها من هول جمالها القريب لقصص الجنيات أكثر منه لجمال الإنس حتى آمنت جدتُها ووالدتُها بأنها ربما تكون إحدى المشعوذات اللواتي وُلِدْنَ بالخطأ؛ لأنهن على طول الأيام التي عاشوها في حَيِّهم المنفرد لم تولد أنثى بهذا التفرُّد كما يوم أنجبت طفلتها التي ومذ عمرها ثلاث سنوات لم تغادر جدران بيتهم الكئيب.

لاحظ الجميع على وجهها لطخات زرقاء، حتّى جسدها لم يسلم منهُ، هالاتٌ رمادية محاطة بمدار عينيهَا، لم تئنّ يومًا بأنّها تعاني، لم تُصدر آه، كان جسَدها كفيلًا بالكلمات التي لم تستطع أن تبوح بها، باح ما خَفِيَ، ولكن ما من أحد يستجيب للُغة الصمت أو لرُبّما شيء عصيٌّ على الفهم، لم يبتدَع له لغة ناطقة باسمه، لربّما من الصعب لذكرٍ أن يستوعبَ الكلمات التي يُمكن أن تصدر من جسد أنُثى، جسدٌ لم يلقَ إلا الآثام، لم يتعرض للخيبَات، لم يكن مرفأ للمرور العابرِ، إنما لغة الكتم كانت دومًا حليفته الأقوى. لم تعلم عنها سوى أنّها امرأة طيبة احتمَلت ذلّ رجلٍ لا تطيقهُ، تشمئز كلّما رأتهُ بهندامهِ

الأسود الفضفاض وسرواله الأشبه بكيسٍ للحمام، وجههُ الذّي يعبثُ به الشعر في كل مكان، لحيته غير المرتّبة بشكلها الفوضوي المتداخل بعضه ببعضٍ حتّى أنّ البعض يظُنّ أنّها تخوض معركة، تحملّت ذلّ رجلٍ لا يعرف الرحمَة، لم تتناقل الألسنة حولَها لم تسمع يومًا أحدًا يتكلّم عنها، لربّما لأنّها لم ترَ أحدًا إلا بضع كلمَات تتناقلُها مع قديسة من خلفِ الباب، حتّى المال الّذي يجنيه لا أحد يعلمُ عنه شيئًا في كلّ مرةِ كان يعود لمنزلهِ خالي اليدين من رغيفٍ يسدّ رمق جائع إن نادَته معدتهُ فاستجاب.

في كلّ مرةٍ كان يخرجُ بها يقفل عليها باب زنزانتها، لا يسمح لها بأن تكلّم فتيات الحي بكلام يضيّعن به فراغهنّ المقيت حيث الإناث مقيمات داخل جدران مذ وُلِدْنَ إلى أن يمُتْنَ، كانت تقضي الوقت محدّثةً الجُدران أحيانًا وأحيانًا أخرى معانقةً الملل، أو تنتظر لتأتي قديسة لتتحدّث إليها بدقائق لا تتعدّى العشر، وأحيانًا ثلاثين دقيقة من ثقب لم يتنبه له قُرب النافذة التي تقع قرب الباب من جهة اليمين، وهي النافذة الثانيةُ في الغرفة، لا تكاد تُرى بالعين إنّما تستطيع أن تهمُس من خلالها بأشياءَ لن يسمعها البشَر، وفي بعضِ الأحيان يأتي لها بالأحذية؛ لأنّها تجيد تلميعها وكأنّها فنانٌ ماهر تتقوقعُ أرضًا تحمل المنديل، تلفّهُ حولَ يَدِها اليُمنى تضع الحذاء أمامها، وتبدأ بكلتَا يديها تحمل طرف المنديل من كلّ جانبٍ وتبصُق عليه إن استدعى للتلميع، لم تحتَاجْ يومًا أدواتًا أخرى.

تخبر قديسة، هل يعلمُ أحد بوجودي؟

نعم الجميع يعلمُ بأنّ في حيّنا فتاة تعانق الجُدران لا يراها الضوء لا يتمتع بمفاتنِها، فتاة تملك جمال الجنّيات.

أخبرها قديسة يومًا لربّما الضوء يخجل من جمالكِ إن رآك.

عندها ضحكت كبدرٍ سماويّ لم يرَ الفرَح.

هذه كانت آخر محادثةٍ بين رام وقدّيسة عندما علم أباها بأمرِ هذا الشّق، ذهبَت قديسة تولول لوالدتِها أثر العذاب الذي تتعرّض لهُ رام وهنّ لا يشينَ ولا بربع ما يفعل رجالُ الحي، عندما صرخَت الأخرى في وجهِها وكأنّما كانت تحتاجُ بكاءً مكتومًا لتنطق ولو بكلمَة في كل مرّة كانت تحاول سدّ أذنها لئلّا تسمع نحيبَ طفلتها، ولكنّها اليوم لم تحتمل.

- أجيبيني أُمي، ما ذنبُ رام أن تتحمّل هذا العذاب أن تتلقّى معاملةً أسوأ من معاملة القط الذي يربّيه المختار؟

إلى متى سنبقَى نعاني داء الصمت؟

ألبستمونا الصمت، ولعنتم وجودنَا، وكتبتم على صدورنا: (لكم الحياة فموتوا). حتى أني لم أكن أعلم بوجودها لولا همسكِ الخفي مع أم لميا عنها.

لِمَ كل هذا الخفاء؟

لِمَ هذا الكتمان؟

إلى متى؟

أجيبيني أمي لِمَ نُعاني الموت ونحن في صدر الحياة؟ والأخرى ما إن سمعت هذا الكلمات حتى انفجر كتمانها بكلمات صعقتها...

والدةُ رام لم تمت إثر العذاب الذي تعرضت له عندما أنجبتها، إنما زوجها خنقها بكلتا يديه دون أن يرفّ له جفنٌ، دون أن يحزن أمام مرأى الجميع؛ لأنّه في مرّة أتى رجل إليه لم يعرف اسمه أخبره أن زوجته تنام في حِضن الرجال، وأنّها تستدين منه مالًا للتبرُج وبدلات الرقص التي لم نرَها يومًا، هذا ما قالوه لنا، كانت تستقبل رجلًا بغيابه عندما سمع زوجها بالخبر قتلها حتّى أنه أخبر الجميع ماذا تفعل ولم تكن تعاني الجوع كما تدّعي، إنّما تحتاج لتسدّ رمقًا من نوعٍ آخر، لن يُشبعها إيّاهُ رجالُ الأرض لأنّها لم تكن تحبُّ زوجها تقرفُ منه لا يستحمّ أحيانًا إنّما على ما أظن استحمّ مرةً واحدة عندما قتلها، فهو بذلك أصبح نظيفًا من العار الذي لاحقَه طيلةَ حياته وهي تتنفس بوجودِه، سمعتُها في مرّة تقول لولا الجنين الذي أحمل لهربت قبل أن ألدَ، كان موتُها بعد ولادة رام بثلاث أو أربع سنوات لا أذكر ومنذ ذلك الحين لا يُسمح لبشريّ أن يقرب منزله خوفًا أن تتسرّب الألسنَة عن والدها فيخبروها عنها، وخوفًا أن تصبِح كوالدها، لأنّه ناقمٌ ليس على فتاتهِ فحسب إنّما على نساء الأرض أجمعين لأنهنّ خادعات

بالفطرة على حدّ قولهِ، ونحن مذ أن خُلقنا تحت إمرة المختار مكتومات من مغازلة عصفور، ومن النظر إلى السماء ممنوعات، فلا تسأليني لمن نشتكي.



4

مَرَّ رجلٌ بخيالي عانَقَ أحلامي

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي...



بدأت بتقليبِ ذاكرتها تريدُ الوصول للصفحاتِ الأولى... أن تخطو خطوةً للوراء تأخذُها دونَما رجوع خائفة لم يسبَق لها أن تاهت في صفحات كتاب كالّذي مرّ بها (مرّ رجل بخيالي عانقَ أحلامي، مر رجلٌ بخيالي سرقني منّي وهرَب). همس لو أنّي فراشة أحطّ على كتفه أهمس في أذنهِ اليُمنى اشتقتُ إليك أسرقهُ منه وأهرب.

تدخل غرفتها الّتي تفصلها عن هذا الواقع بفواصل واستفهامات وإشارات تعجب لتعيد ترتيب كلّ جزء منها إلى حيث كانت تعيشُ مرحلة المخاض، أحيانًا علامة الحُب التي يضعها الدهر على كاهلنا تشكّل علامة الاستفهام على وجوهنا مدى الحياة.

غُرفتها مربّعة الشكل، تُزيّنها شتلةٌ من الغاردينيا بهتت إثر الملل الذي تتعرّض لهُ دونَ أن يؤنس وحدتّها بشر تعيش في عالمٍ خالٍ من أنفاس المنافقين، يدفئها فنجانٌ مُصابٌ بالملل مثلها، عليهِ بعضٌ من حبّات الماء التي جفّت إثر الوقت كلّ شيء مؤنّق بطريقة هندسيّة

بكوكبةٍ بعيدة عن النمطيّة، بعضٌ من أجزاء آلة موسيقيّة يصعب تحديدها، لأنّها قطع صغيرة وكأنّها فتّتت لهذا الغرض لأن يتزين بها الجدار قُرب سريرها الذي يتموضع قبالةَ الباب على الجهة اليمنى منه قرب النافذة باهتةُ اللّون، لا زُجاج يكسوها، إنّما صُنعت من خشب الماهوجني، وعلى الجزء المُقابل خزانة ذات ضلفتين لا تحوي الكثير من الملابس، بها قطعتان أو ثلاث لا تهوى أن تكون محدّدَة فقط في لباسها يعنيها جدًّا الشال الذي يغطّي رأسَها، إن ما تدّل أحيانًا على جيدها باستثناء باقي الأشياء الثانوية تغطّي بها الجسد بعيدةً عن العُري الذي يشوّهه.تختار الألبسة الّتي لا تظهر منها ما يحدّد تعرّج استقامتها بضعة من الشالات التي تضعها على رأسها ورثتهُم عن جدّتها الباريسيّة، واحدٌ منها هو الشال الذي تُغطّي به الجزء العلويَ من السرير ذي الّلون الفيروزي، كأنّها في حداد دائمٍ مع الحياة، بين السرير والنافذة على الطرف الأيمن تجد مرآة بطولِ الجدار لا يتجاوز عرضها 30 سم خاليةً من أيّ مفاتن تجذب الإناث إن دخلت إحداهنّ ولكن لن يدخلن، فهي لم تعتد التكلّف، قُرب الباب المقابل للسرير على الطرف الأيسر تُلاحظ ثلاثة رفوف، كلّ رفّ فوق الآخر بطريقة غير مهذّبة، لا يتموضع بعضها فوق بعضٍ، وكأنّ واحدًا في الشمال والآخر في الغرب، أمّا الثالث في الجنوب مرتّبٌ عليه مجموعة من الروايات لكتّاب كثر تضيع بين هذه الأسماء الكبيرة، الجحيم لدان براون، الماغوط، ألبير كامون، دانتي، وعند نِهاية كل رفٍّ هناك

مجموعة أسطوانات لباخ ونيكوس.لا تأتي غُرفتها إلا عندما تنتهي من قراءة كتاب لتضمّه لهذه الموسوعة العظيمة لذا زيارتها نادرة جدًّا متوقفة على عُمر الكتاب الذي يقضي وقته بين يديها.

في السنوَات الأخيرة أصيبَت بداء الذاكرة صعبِ الشفاء لم تعد همّتها كما كانت، لا يُساعدها البعض المتبقّي لها من الذاكرة.

تقول: (غيابهُ أغاني، أشبعني شهيّة الحياة).

ذهبَت بتثاقُلٍ للنافذة وكأنّها تناديها ليعبث الهواء بطرف خصلات شعرها. تردّد لها: حمامة أنتِ!

بوجودكَ دومًا أغدو طيرًا في سماءِ عينيك.

لي عامٌ ونصف لم أقربك صديقتي، هل اشتقتِ إليَّ؟ كما اشتاقت أظافري لنعومة خشبك فرائحتُه تعيدني للطبيعة، اشتقت أن أعود طفلةً بعمر العشرين، أعبث معك بضع ساعات، وأهرب، اشتقتُ إلى أن أعود لعادة الحفر التي كانت تكشف لي ما يَخفى، تخفيني.

شكرًا لأنه أحيانًا يسمح لي أن أتنفّس هنا، يمنحُني استراحة لا تتجاوز الثلاثة أيام، بها أستعيدُ جزءًا من بعضي وأُنسي.

في الحقيقة هي مارست عادة الحفر في الخامسة والعشرين من عمرها عندما كان يخيّل إليها أنه آتٍ ولا يأتي، هكذا كانت تهمس

ناديا من وراء الباب وهي تراقب تحرّكاهما خوفًا من أن تسقط في مهبّ الذاكرة.

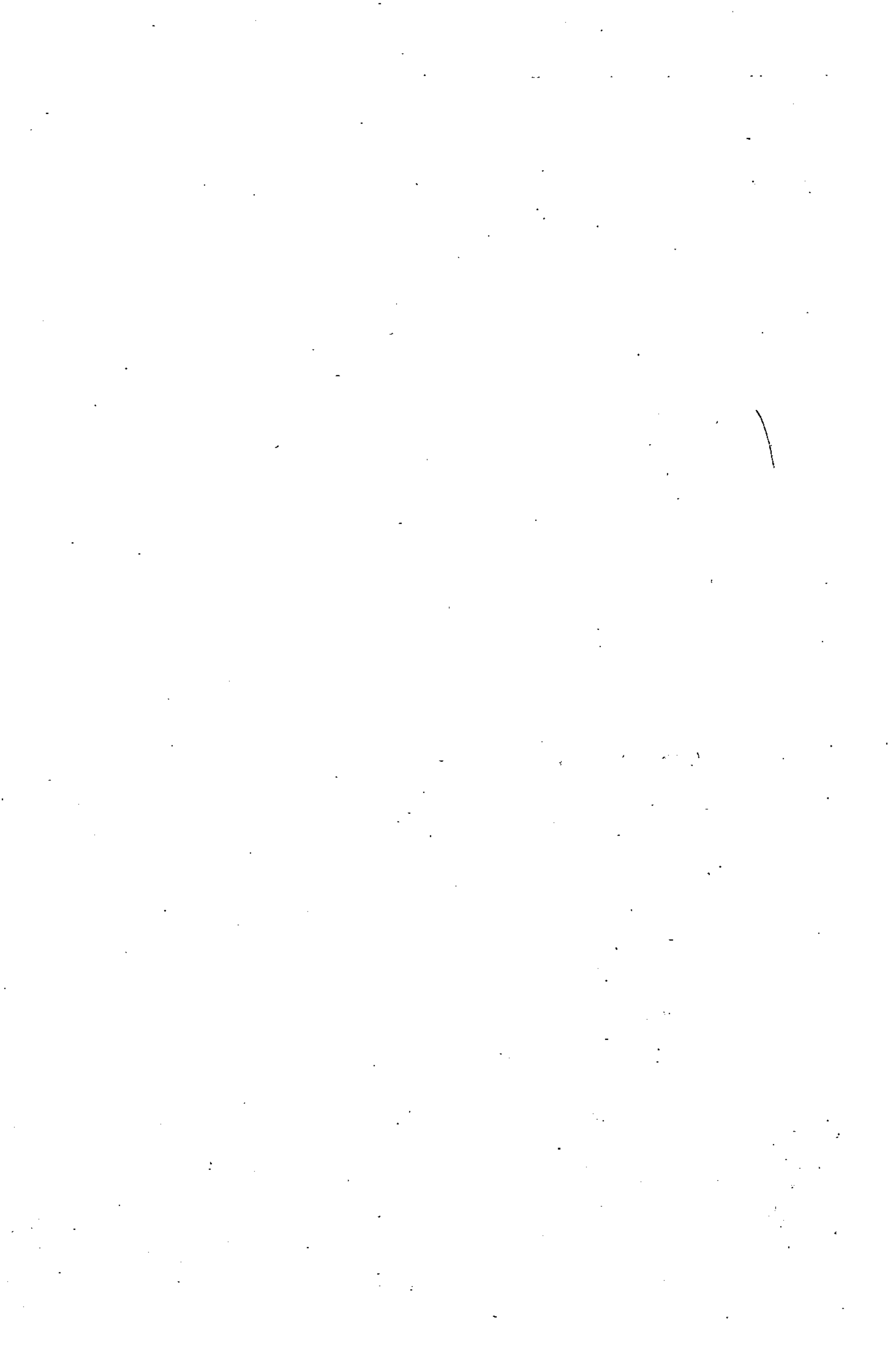
أصبحَ وضعُها أسوأ بكثير في السنوات الأخيرة، ترفض أن تقابل طبيبًا حتى أنّها لا ترأف بالوقت الذي ربما يدفنها وهي على قيد الحياة، كانت تريد المتابعة لولا الرجل الذي كان قربها، هزّها وهو يقول:

– ما بك ناديا جعلتيني أنتظر ستين دقيقة وأنت تراقبينها، أعرفها هذه المجنونة التي آراها في بيتك وهي تحمل كتابها الأحمر، تثير المَلَلَ، ما الجديد الذي كنتِ تُخبرينني عنه وأنا أنتظر مع هذه المعتوهة، أظنُّ أنه لا يوجد إلا البؤس، هذه هي المرة الأولى التي أراكِ بها وأنتِ على هذه الحال، عندها اعتذرتُ منه.

هذا صحيح فأنتَ .. عذرًا أنتم، لا تهتمّون بأشياء كهذه، خلقكم الله لأعمال أعظم من هذه، أمسكته من يده وأخذته لمنزلها عندما تأكّدت بأن ليا ستتابع يومها في زيارة عاديّة وسينتهي بها المطاف بالنوم.

5

(أُعانِقُ الحيَاةَ ملء الكونَ لكن دون صَوتٍ،
أُعانِقُه بصمتِ مَنْ يُعانِق صمتي، عانِقوا موتي)



لم يُؤمن بأنّ الكَبْتَ يُفسد الحريّة، ربما لم يكُن يدرك كغيره المعنى المتناهي بين الكبت والحريّة بمعناها الخالص دون شائبَة. لرُبما لو دعاها تخرج وتتنفّس المجتمع لكانَت عرفت قواعد الحُرّيّة بذاتها، ولربّما خَلقت قواعد تنظّمه في بعض الأحيان لا أن تقتل نفسها بيديها أن تحدّد نهايتها تحت مسمّى الخنق، فخنق المُجتمع أسوأ من خنق الجسَد، ولكن هذا ما نشؤوا عليه حسب قوانين مختار الحي.

يظُن في كلّ مرّة يضربها وكأنّما يُنقذ رجولته، لم يكن يعلم أنه يقتل أنوثتها، يقتُل طفولتها، يُجرّدها من أيّ شيءٍ ممكنٍ أن يضعها تحت مسمّى الكذب، يُباعدها لأن يجعلها حقودًا على نفسها حتّى أنّها في مرة جلست سبعةُ أيامٍ بلا طعامٍ، ولكن هو نداء المعدة أمام الطعام لا يحتمل، نائمٌ قبالتها مشت على رؤوس أصابع قدميها، ما إن وصلت لطبقِ الطعام حتّى تحرّك حركة إلى اليمين دارَ ليصبح قبالتَها بهيئته الممدّدة على الأرض ككلبٍ خاوٍ عادَت أدراجها خوفًا من أن

يفتح عينيه ويراها تحمل القدر بين يديها، فيُهاجمها ويُعيدُها للهجمة الأولى، ويعيد الجلدة، عادَت أدراجها لمكانها المنصوب لا يُسمح لها أن تتناول إلا من القدر الذي يأكل منه، ولا أن تجلس فيأكلوا معًا، إنّما بعد إفراغه تتناول ما تبقّى بعضًا من فُتات طعام يسدّ الرُّمق، لا يسُدُّ رمقَه إلا مشاهدتها عاريةً أمامه، فهو يستلذُّ بمشاهدة تفاصيل جسدها دون أن يقربها، إنما يشتمُّ كل تفصيلة على حدة، بدأ من شعرها الفضي انتهاءً برؤوس أصابع قدميها ككلب خاوٍ لا تملأ معدته إلا رائحتُها الممتلئة بزهر الزيزفون، كان يحتاج بعد هذا السِّحر الإلهي لسبع ساعات أخرى ليستعيد وعيه من الخدر الذي يصيبُه في كل مرة يشاهدُها فيها وهي قُبالته لا تعرف أين تذهب بوجهها بتكورات جسدها، بتصلُّب يديها حول ثدييها، تريد أن تنشقَّ الأرضُ فتبتلعها، أو تُنزل من السماء صاعقةً فتفتح لها نافذة تسرقها منها وتصعد بها لتضعها بجانب الحوريات، ولكن جميع أمنياتها كانت تذهب سُدًى ما من صوت يسمعها إلا هو وما مِن شاهدٍ يتتبع تفاصيلها الدقيقة كما هو بعينيه الذئبيتين وأنفه الفظ الذي اعتاد رائحتها، (ماتَت دون أن تصرخ أمام المَلَأ). دون أن تخبر الطيور المهاجرة بأنها طفلة هذا الحي المنسي، أو لربّما هم من جعلوها منسيَّة بأوامرهم فغدت منفيَّة عن السماء، وليس عن عين البشر فحسب. لم تكن رام الأولى ولن تكون الأخيرة، ولكنّها هي مقبرة الجحيم التي فتحت الباب على مصراعيه، ولن تكون الأخيرة.

على حَدِّ قولهم بأنَّ الصلاة لا تجوز عليها، إنّما ستُدفن دونها ومن دون دعاء يشفع لها أو حديث يبرّر موتها أو معجزة سماوية تُحدِّد فعلتها، حتى هو الآخر ترك رجالهم هم من يضعوها في قبرِها دون أن يقترب أو يهمس بكلمةٍ.

6

مَرَّ رجلٌ بخيالي سَرَقَني مِنّيَ وهَرَبَ

أنا لحبيبي وحبيبي إلي...



صوتُ فيروز مع فنجان من الشاي وبضعِ وريقات من النعناع تُعطِّرُ المكان أعود بها أدراجي، وكأنّي قِطعةٌ خريفيّة نُسيت بين عتمَة الشِّتاء لا يخطرُ في ذِهني سوى بعضِ ما أكتبُ..

الراديو هو الذي يُؤنسِني أشعُر وكأنّه يوم ثَانٍ خارج نطاق الروتين الحادِّ كالاستيقاظ مُبكّرًا أغسل وجهي بماء النعناع كما اعتادت جدّتي أن تفعل، لم يتميّز بشيء إلا بشعَارات تنُهِضُ الميت إلى النوم أو تُخمده لنومٍ أبديٍّ لا رجعة فيه، هو اليوم يسجّل استثناء في بعثرة ذاكرتي، بعض من أوراق قلبكَ لملمتُها حبّةً حبةً، هُراء ما أقول، مرآةٌ أغمغم عليها ظِلّي، تفاهةٌ ما أفعله لا شيء، وكأنّي حبّة هواءٍ تهوي للا شيء فمهما عبثت مع الصباح ودلّلته لن يتخلّى عن حلّته.

على غيرِ العادة أغنية جديدة على إحدى الإذاعات المحليّة هي ليست ببدعة تُخلق من قلب الروتين لطالما تعودتُ أن أسمع كلّ صباح ذات الأغنية إن ما كسرَ الهمجي الراديو لكن مذ وقتٍ ليس

ببعيد لم أسمع شيئًا لكنّها اليوم تغني: (لا تسألوني ما اسمه حبيبي فإني أخشى عليكم لوعة الطيوب). هذه الأُغنية كفيلة لأن تبكيها عشر دقائق، وبعدها وكأنّ شيئًا لم يكن، خمس عشرة دقيقة كفيلة بعودة الزمن إلى الوراء، أو لربّما خلقِ زمنٍ جديد يسجّل ضمن قائمة العابرين على سماع الراديو. مهزلةٌ نحنُ يا وطنَ يضحكني ما أسمع يكفي هذا القدر من المُزاح ما اعتدتُ يومًا سماع النكات الوطنية أو المزحات العربيّة الّتي تُمقتني، أعلم ما يتكلّمونَ عنهُ بضعُ كلماتٍ فارغة لا تُثقل بشيء، بضعُ صيحاتٍ عن الأحداث لا تفي بالغرض، تعي معدتِي لمثلِ هذه المُحادثات الّتي لن تُنجب لنا رجلًا من ذاك الزمن أو حتّى ذِكر ينتحب أمامنا، إنهم اغتالوا رجولتنا.

حفظتُ كل ما يقولونَه عنِ ظهرِ قلب تذكّرُني بدرسِ القوميّة الذي أخبرتني عنه يومًا: عندما كنتُ أهمس للكِتَاب أنها فارغة من كلّ ذرة من الوطنية لا تفهم إلا ما تأتِي به كلمة من الاتفاقيات الغربية والأخرى من النزاعات الطائفية أو بالأحرى الشرقية. لطالما تشرّقنا قبل أن نفهم مفهوم الشرق، كنتُ أخبرُه بأنّك شهيد بين هُدين لا يرحمان، عندها أسمعُ قهقهته عندما يرد بأنّها (إن أتت أقسم أنّي سأرحم).

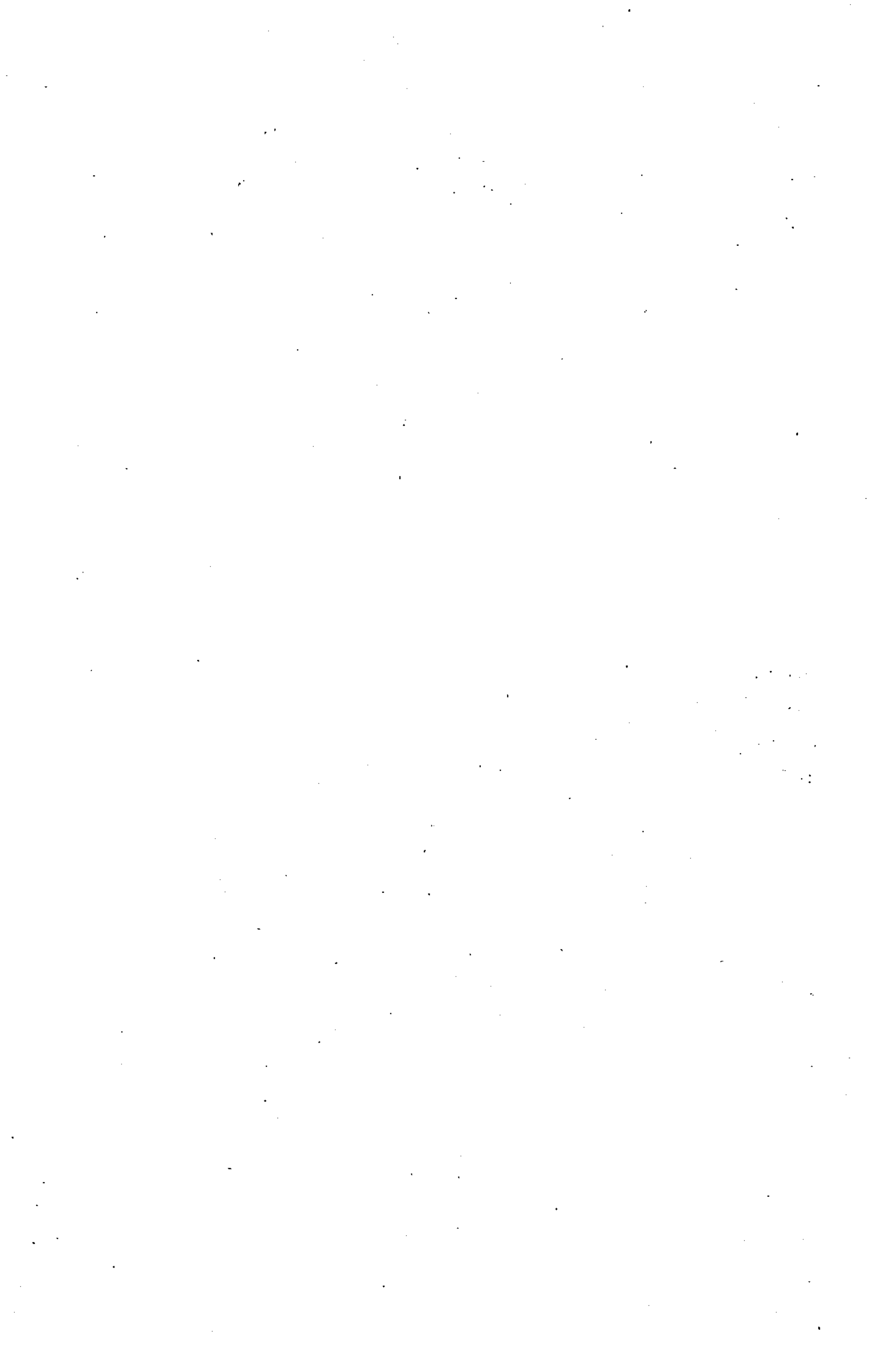
كلّ ما لديها عبثيٌّ، ولكنّها كفيلة بقلبِ هذا اليُتم الصباحي إلى مشهدٍ دراميّ بفتحِ نافذتها التي تتزيّن بوريقاتِ الغاردينيا البارِدة، فهذا

المشهد بالنسبة لها هو قِطعة من الجنّة منسيّ هو وطننا، جنّة عبثوا فيها.. صغار أولئك الذين لا يعرفون الوطن، يتيمون أولئك الذين يفتقدون وطن.. وطني شتيلةُ ياسمين أمطرها السماء على خبثِ أرضٍ لم ترَ الحنان.

7

(مُجرَّدُ احتوَاء حمامةٍ ممكنٌ أن يُثير بكَ نداء الحب)

يا عصفورة بيضا لا بقى تسالي...



ما يُزيّن حيّ ناديا هو قلوب العجزة العاتبة على الدّهر.

ابن الخالة أم محمد التي تعرّفت على اسمها حين زارت ناديا تسألها عن وريقات الغار كانت تحتاجها وتلك الأخرى أجابتها ..

(لست طبيبة أعشاب).

يغازل سيارتهُ وهو ينظفها بمنديله الأصفر، تقول والدتهُ:(سافر لعكا و لم يأتِ بشيء يذكر إلا هذا المنديل الذي صار له أكثر من خمسين عامًا ولا يحدث به أذى، على عكسَ التُّرهات التي أصابته والتهدّل الذي أنهى رجولتَه. وما أن تلفّظــــت بالكلمة الأخيرة حتّى تكاثفت ضحكات النسوة محدثاتٍ ثورة صخبٍ على الإنسانية في جلساتهنَّ الثلاثيّة المعتادة بأن تقام في منزل ناديا لتعلّمهن بعض الفنون التي يفتقدنها والتي ربما تفيدهنَّ في عملية الحب، ولكن دون جدوى، فعند انتهاء كل جلسة تنهيها تعلن ناديا شتائمها عليهن.

لا يطيب له تلميعها إلا على صوت القرآن. حاولتُ مرّات عدة أن أُصغي لتراتيل الكتاب العظيم، ولكنّي في كلّ مرة أسمع: (صدق الله العظيم). لم أرَ ابتسامة تُزيّن وجههُ طيلةَ الإحدى عشر عاما إن ما كانت زائدة بثلاثة أعوام مذ الوقت الذي صرت أزور به هذه الغرفة، يزدادُ نقمةً كلّما حاول تزيينها بعنايةٍ لكيلا يحدث صخبًا يُزعج هدوءها. مستمتعًا بما يقوم لأجلهَا ربّما في طلبِ الرزق يستلزم الجديّة. حفظتُ تفاصيل هذا اليوم في كل عطلة ربّانية أقوم بها لأتنفّس، بعد قليل سيدوي الحي أصوات أجراسِ العباءات الزرقاء سيأتون بالجملة، عرائس هذا الحي عوّدنه على صخبِ أصوات جرّات الغاز حتّى أنّهن لا يشعرن بصوتهن وكأنّها موسيقى هادئةٌ تهدهدهُم، تمنيتُ ولو طفلًا صغيرًا يولد صوتُه رجُل يهزّ انبعاث ثورتِهم، ولكن لا إجابة ربّما أصبح هذا الشيء من الحياة الروتينية الّتي يعشقون، يأتون بهم بسيّارتهم الديجاء. في ذات يوم كنتُ أتنفّس عندما همّت وأتت قلتُ في ذات سرّي ربما عددهم عشرون، ولكن دُهشت عندما وصلت للعدد 54 واحدة يزفّونهنّ بالجملة واحدةً تطير تلو الأخرى دون تنفّس بين واحدة وأختها، فأداء حاملها دقيقٌ جدًّا فنّان ماهر يزفّها بين يديه يمسكها ويلقي بها بكلّ ما أعطاه الربُّ من قوةٍ على الأرض. أشعر بالبناء يهتَزُّ، وكأنّ هذا التنافُر الذي أحدثهُ قد أزعج صباح غاردينيّتي الهادئة، وكل هزّة تضرب المكان رُبما تُداعب الجدران، لعلّ أحدًا من هؤلاء النائمين يُحدث صخبًا، ولكن

دونما أمل هو النوم نصف موت يسرُقنا من حياتنا. كلّ هذه القوة لا تعنيني، لا يعنيني هذا التنافُر الذي يُصدِرُه صوتُهم، ما يشدّ انتباهي أكثر هو ذاك الذي يحملهم بتجهّمٍ وكأنّه سَرَقَ مهنة كاتو (حارس الباب الفاصل بين الجحيم والموت لدانتي) حارس الموت مدة خمس عشرة دقيقة يقضي مهمّته ومن ثم يعود لمهنتهِ الأساسية وهي الجلد في وجوه البشر، وكأن الله لم يخلُق له مثيلًا على هذه الأرض، فترى العبوس الذي يمقت حول وجهه المائل للاصفرار، كأنه استيقظ دون أن يمرّر الماء عليه ولا بعض قليل يغسل به هذا التجهّم الّذي يقلق، حتّى نظّارته مكسوّة بالغبار ليس كثيفًا إلى الحدّ الذي يُعمي، الواضح أنّهُ لم يمسحها مذ بضعة أعوام، ربّما يخاف أن تهترئ، يُسعدني صوت هذا الأخير ذو الوجه الضحوك، على الرغم من فقرِه، ولكن هذا لم يجعل منه عسيسًا أو شحيحًا على البشر، بل لربما الفقر أعطاه فُسحةً أكبر لنيل السعادة، وذاك الأخير مشغولٌ بعدّ النقود، ربّما يشعُر بأنه يقوم بعمليّة تفيد البشرية حينما يدرّب جسدهُ وهو يهوي بواحدةٍ داخل المحل لتستلقي بلُطفٍ على الأرض، من المُلاحظ أن أحدًا في الداخل يستقبلها منه بعنايةٍ أقل من التي تتلقّاها من الأول، ليضعها في مكانها الأنيق، أرض صلبة مغطّاة بالرمل. لا شيء مثيرٌ للاهتمام إلا وجودها الذي يجذب الانتباه على أنها هنا، وهذا كفيل بحدوث مظاهرة تعمّ أرجاء المدينة.

ومن يلاحظُ وجههُ الأبيض المائل للاصفرار وعينيه الصغيرتين من تحت النظّارة يظن أن له ثأرًا أو لربما ناقم على جرّة ليس من الممكن أن تقدّم له شيئًا إلّا أنّها منتصبة القامة لا تنحني لرجل تمدّ ظهورهم تكسر قاماتِهم، أو لربّما لأنّها غير مناسبة للمضاجعة، هذا الشيء الّذي يحبس أنفاسهُ وكأنّه في كلّ مرّة يرمي بها يدوي بامرأة داخل قوقعتِه لا حراك لها، صامتةٌ تفقع عينيه دون أن يهتزّ لها جفن.

بعد قليل سترى شابًا آخر، فكلّ العائلة تجتمع في الحيّ بنفس المكان الّذي تنتصب فيه محدثين فوضى بآذان المارّة على أن عرائسهم ولو اجتمع الشرق كلّه لن يأتي بمثل ما يخبّؤون نادرات الوجود نصفها غاز والنصف الآخر هواء حقد يأكل من لحوم البشر لُقمة رزقهم.

لا يسمح لأحد من خارج العائلة بأنّ يدخل بقوقعتِهم رغم الأصوات الّتي تنبعث فيما بينهم، في مرّة قام الأخ الأكبر بإخراج جرّة وكان يريد إشعالها وسط الحي دون أن يدري أحدٌ ما السبب الّذي جعله يقوم بذلك، حينها ردّ الأخ الأصغر على تساؤلات جيران الحي بأنّ أخاه جُنَّ إثر الصدمة الّتي تلقّاها بعد وفاة والده، حَزنَ حُزنًا شديدًا لأنّه لم يكن بارًّا به، ونَدِمَ بعد وفاته، فكانت تصيبه حالاتُ هذيانٍ تذكرّه به. وفي مرّة أخرى جلسَ يومين في مخزن الجرّات يدندن أغاني لم يفهم أحدٌ منها شيئًا، لربّما كان يغنّي لعروسه

علّها تنام، استيقظ الجيران على نُباحه عندما همّ الأخ الأصغر يخبرهم بأنّه مصابٌ بحالات فُجائيّةٍ تأتيه على شكل هلوسات مصحوبة بجنون حادّ صعب الشفاء.

استمرّ على هذه الحال ما يُقارب العامين ونصف العام، وبعدها هدأ كطفلٍ لا يُمارِس إلا عدّ النقود، يفرح بكلّ سيجارة يأخذها من المارّة بحجّة أنّه نَسِيَ علبة سجائره في المنزل وعلى أنّه مجنون حديث الصنعة، فقير لا يعتب عليه وهو يملك من النقود ما يغطّي نصف المدينة إن لم يكن أكثر، وما إن يُدير الرجل الآخر وجهه حتّى يضعها في جيب قميصه الأيمن ويمضي. المميّز في هذه العائلة علامة البؤس التي لا تفارقهم رجال مع نساء وكأنّهم عاقدون قرارهم مع البؤس ليوم القيامة .

بعدَ قليل ستحين مظاهرات الفرَح وتتعالى أصواتُ الباعة بين مُطالبٍ وراجٍ حوالي الستين دقيقة ونصف يدخل الحيّ في هذه البهجة الصباحيّة حيث يتأكّد الباعة بأنّ الجميع قد استيقظ من غفلة النوم.

أجمل ما يُزيّن هذا الصباح هما هاتين الحمامَتين قبالة نافذتيّ تقفان على شريطين كهربائيّين غير مباليتين بالشتاء ، يعلوان عن الأرض ما يقارب الثلاث أمتارٍ يصلان عامود كهرباء من بدايةِ الحيّ لنهايته.

يخطرُ لي أن أحدّثها، أن أسألها كيف لها أن تقبّل حبيبها؟ لا تنفكّ تتركهُ مدّة دقيقتين وبعدها تداعبهُ بأطراف أجنحتها وهو في هدوءٍ تام

يعجبه ما تقوم به لأجله يستنظر المزيد، كأنّها تعلمت آلة الجذب من البشر لا تشابههُم غير مبالية بعقائدهم سعيدةٌ بما تقوم به تعيش في حريّة تربطها مع الأرض والسماء ولا ثالث لهُما، أيعقَل أنّها لم تراني؟ إنّها تثير كل الحب. لم يقطعهم إلا هديل حمامةٌ أتت همس لها بأشياء مبهمة، لم أفهم منها شيئًا، والأخرى تهزّ لها رأسَها بالإيجاب، أشعر أنّ لغتهُم المبهمة أفضل من الخوض بمعارك المحادثات الصباحيّة تلك التي لا جدوى منها بين أجناسِ البشر.

تزيّن صباحهَا بالصمت عندما لامست أصابِعها شقّ نافذتها، كان هذا الشق كفيلٌ بأن يُسكتها مدة عشرين دقيقة أن يوقف ذاكرتها عن الكتابة، أن يُداعِبَ حُضورُها، وإن تعدّى مدّة أحد عشر عامًا أخرسها دونما حراكٍ، لا تنطق إلا بدموع لا تعيد الميّت من قبرهِ لا تحيي الشهيد برصاصة أصيبَ بها بالخطأ، لا تُعيدُ المنفيّ لوطنه، لا تزوّج المترمّلات، على حوضِ الموت يصنعن من خدودهنّ ريحان يأتون بهِ إلى المقابر، لا تعيدُ للعانس حياتها التي ألقتها بين ألسنةِ القيل والقال تحتَ مسمّى عانس و هي بتولٌ لم تُرحم من خواءِ ألسنتهم.

همُس: (لقد تأخر على غير العادة).

مصحوبة بانقطاع أمل، ترى ابتسامة شبه جافة تودّع بها هذا الشق الذي لا يتعدّى ثلاث أصابع، رغم هذه الدموع التي تزفّها إلا أنّ قلبها يمتلئ ضحكًا وفرحًا وأحيانًا شيئًا من الثورة بداخلها يستيقظ، أُنثى الثورة هيَ.

هذه الوجبة كفيلةٌ بأن تسُدَّ رمقَها بأن تشبعها مدة ثلاثين يومًا و720 ساعة كفيلة بأن تسكتها عمرًا، كلّما علقت داخل متاهات الذاكرة تعانق هذا الشقَّ لتَغدو يتيمة ترتجي الحياة، تعود إليهِ لتفرغَ هذا الجوع الذي ينهشها، حوّلها لعجوزٍ على قائمة الموت تنتظر أجلَها.



8

(مُمارَسةُ الجُنون مع حبس الجَسدِ

هو جُنون الرُّوح في غيابِ الجسد)

أنا لحبيبي وحبيبي إلي..



أتنفّسكَ من بين خصلات شعري، تعالَ، اقترِب.. اقترِب أكثر،
أُريد أن أهمس بشيءٍ ولا يطيب لي الهمسُ إلا بطرف أذنكَ جميلي.

هأنا هنا..!

ما رأيكَ أن نسبح بين حبّات الفِشار بدلًا من أكلها؟

وأنا للجنونِ حاضر عصفوريّ، بين يديك يُقلب الماء نبيذٌ شرقي
ابديٌّ، أنتِ سرٌّ سعادتي السّرمديّة، لم يستجب جسداهما لقيلولة
الطيور، فالتعب خارج نطاقهما والعقل دومًا في دوامة الجنون حاضرٌ
ينادي: أنا الماجون الأكبر. وكأن الزّمن انقلب وباغتهُم حوّل هذه
الغُرفة إلى ساحة لحبّات الفِشار، الرقص في غيابِ النبيذ هو نوعٌ من
النشوة له حضورهُ الخاص..

هو سكرُ الجسد وغياب العقل.

. مع كلّ حركة كان يلامسُ طرف شعرِها بجسده ينتفِضّ ويصرخ، قاتلتي.. أنا بين يديكِ فاقدٌ لكلّ شيء. هلّ أتيتِ وهدّأتني؟ أُقسم أنّ اليونان، الأموي، القدس وآية صوفيا جميعَهم خلقوا لتقدير فتنتكِ لينحتوكِ على أرضٍ ترتجي الراحة.

تعالي وارتاحي طفلَتي هنا في صدري، سأمنعُ التقاليد بأن تعبَث بدموعِ عينيكِ، آلهتي الجميلة، مختصرة الزمن، تمايلي واقتُليني، خُلقت اليونَان لأطرافِ قدميكِ. أنا زيوس تحتَ قدمين شرقيّتين، خُلق الكون لجسدكِ المنحوت بعناية تفوق عناية الآلهة، كلّ زاوية منه أظنّها مدرسة رقصٍ لوحدها!

أحمد.. أتعلم ماذا؟

ماذا؟

أحلمُ باليومِ الذي سأرقص فيه على ظهرك دون أن أقع.

ستقعين!

رُبما وقعت في قلبك، ولكن إلى حينها لن أتعثّر وأقعُ من ميناءٍ أرتجي عليهِ الرّاحة وإن تعثّرت أعلم أنكَ ستنتشلني.

أنا يا طفلتي أرض مليئةٌ بالمطبّات، رجلٌ عبثَ به الزمن.

تنبت الأرض أشجارًا تحميني من هذه المطبّات.

وإن تعثّرتِ سأصنعُ لكِ من جسدي ميناءً يُلامس قدميكِ، مرفأ وشجرٍ تستظلينَ تحته، وإن يبست أوراق الشجر سأتحوّل مطرًا أسقيك من نبيذ يدي، سأتحوّل طيرًا يحملك بعيدًا عن الألم.

أنتَ سمائي.

وأنتِ كلّ الجنون الذي أعاني.

تعالي واجعلي مني إلهًا بين يديكِ.

تضحكُ ملء الفرح الذي يُعانق جُنونهم، تضحكُ ملء البكاء الذي يعتصرها.

في مرّة كنت في منزل جارتنا أم يوسف، المرأة التي يخافها رجالُ الحي، قرأت في الإنجيل أن الله يحبّ المتضرّعين..

ولم تقرئي في القرآن..

بل رتّلتُ فيه ألا أخونَ الله.

إن اقتربتِ وجعلتِ مِنّي إلهًا بين يديكِ ستعزفين وتخونين الله.

في قرارة نفسي إن بدّلت آلتي سأخونهُ.

ليا أترين الإنجيل الذي تتصفّحين والقرآن الذي ترتلّين جميعهما تحت مسمّى الدين لا يعنياني، ما دام ليس هناك أيُّ شيءٍ ينصف توحّدي بكِ. تضرِب بطرفِ رجلها أرضًا وبقوة ترفع يدها اليُمنى

والأخرى على مينائها بحركةٍ واحدة أوقعته أرضًا مهزومًا دون حراك يلتمس الرحمة، الموسيقى وحدها هي الّتي تُزيّن الموقف تدوي بأعلى صوتها بوجودك أحمد يتيمة لا موسيقى لديّ، أنت موسيقى الكون.

وأنتِ فاكهتي الشهيّة..

تضحكُ ملء ضحكتها، يبتسم الكون..

في رنّة ضحكتِها تشهقُ أصوات الكنائس بشهقةٍ ونصف تبدأ بتصاعد إلهي إلى أن تصل لذُروتها كطفلة همجيّة مُخالفةً لقوانين الطبيعة!

9

قِطَطُ حارتنا أقوى مِنْ رِجالِ البَلَدِ



فالقانون الّذي يُصدر من مختار الحيّ سيُطبّق على الجميع هذا مذ بدء الخليقة داخل قوقعتهم المنفية النائية عن شبيهاتهم داخل الأكوان الأخرى، فكان قبله والده وجده ومن ثم هو توارث المخترة أبًا عن جدٍّ وكانت الأوامر تنفذ دون اعتراضٍ، ويتم تقسيم الأعمال بأن تكون نساؤهم داخل الجدران يحرسن القطيع الذي يأتون به ممنوع خروجهم إلا بأرواب تغطي ما يَخفى وللحاجة القصوى، والأطفال ممنوع تجوالهم داخل الحي إلا بأمر من المختار وبقية الأعمال كالزراعة والحراثة وجلب الحليب وتنظيم الأعمال داخل الحي وتقسيمها فهي من نصيب أصحاب السراويل الطويلة الذين يعملون وفقًا لأوامر كبيرهم بصحبة أم يوسف التي تتولى مسؤولية تربية الطيور وعملية تفقيسهم، وهي المسؤولة عن الإنجاب، فهي قابلة الحي لجميع النساء، وهي المسؤولة عن مُداواتِهم بأعشابها السِّحرية وإذا استعصى عليها

أمرٌ يستعين المختار بطبيبٍ من خارج الحي يأتي به من الأحياء المجاورة، وأقرب حيٍّ إليهم من الممكن ألا يتجاوز مسافة سبعمئة متر، والذي يظهر بمظهر الأوروبي القادم لبلاد الشرق، وكأن السماء أمطرته يشبههم، ولكنه مختلف عنهم، أما عن تيسير أمور الحي كافة بما فيها القراءة لكيلا يكون جيلٌ يجهل معنى فكّ اسمه فكان يسمح لفتاة من بين عشر أن تمسك القلم وتتعلم مبادئ القراءة على يد أم يوسف داخل بيت الله، وأحيانًا كثيرة يستعين المختار بالأب (أبو بولوس) الذي يعدُّ اليد الحنون لأعماله توارث وجوده بصحبته مذ ولادته باعتبار المختار أتى به من حيث لا أحد يعلم، وكأن الأرض انشقتْ وخرج منها بحجة أنه صديقه الذي افتقده طيلة حياته وهو يبحث عنه بعد وفاة والديه، وهو ذاته لا يعرف من هم أبواه، وتبجيلًا لروح الصداقة التي تربطهم بنى له كنيسة تمشي حسب تعاليمهم أو بالأحرى تعاليم المختار ذاته دون الرجوع لأسقف معين أو من هو أعلى منه أو أفهم بتعاليم وجودهم، وتزوَّج بامرأة أتى بها المختار لأجله، وأنجبا على شرف اتحادهما ولدًا وطفلةً كانا بذرة لقائهما وعمَّدهما بطريقته التي لا يُمكن أن تخطر على بال أحد بمساعدة أم يوسف التي أتت لهما بدم كلبٍ مقتولٍ وكان على كل طفل من أطفاله بعد إنجابه أن يُحمَّم بدم كلبٍ مُتشرِّد لا يعرف تهجينه ربما أو من أين أصله تمجيدًا لروح الصداقة التي ربطته بالمختار، ومن ثم يُغسَّل الطفل ويمسح بخلطة أعشاب ابتدعتها أم يوسف لثلاثة أيام

ويبقى بمُلاءة بيضاء معقوص داخلها مدة أربعين يومًا وهذا ما مَرَّ به جميع أطفال الحي لكي يتجنبوا أهوال البرد، وتكون لديهم أجساد ببنيةٍ مُتكاملةٍ وسليمةٍ.

سرت قوانين الحي على الجميع نساءً ورجالًا، لا يسمح للنساء بالخروج وهنّ كاشفات رؤوسهنَّ، على حدّ قولهم العُري يبدأ من مقدّمة الرأس لنهاية القدمين، وكل من يتجاوز هذا الحدّ يُنبذ، يعتبرونَ شذوذه جنونًا. جميع نساء حيّهم المنفيّات عن طقوسِ المدينة والأحياء الأُخرى مغطّيات الرأس، فدخول الفتاة مرحلةَ البلوغ العُذري يغطيها تأشيرة الخضوع إن لم يلزم الأمر لفّها بحرام مذّ ولادتها من المهد، لا يراها إلا خالقَها إن سُمح له وفي أحيانًا أخرى حتّى الخالق يشتهي أن يتمتّع بجمالِ ما خلق، لو أنّ يمانيّة مرّت من أمامهن لنُكر جمالها لنصف ما يملكون بعيدات كلّ البُعد عن الصنعة التي أُغري بها جميع مَنْ ليس مِن الحيّ.

اختلفَت الألسنة، وكان ذلك من اللواتي يأتيِ بهن المختار بحجة جلبهن الحليب لسكان الحي، ويذكر بأن واحدة منهن كانت تأتيه متى أراد بحجة الحليب بعشر فتيات من الجميلات اللواتي بعضهن يعرفهن والبعض الآخر لم يعرفهن، وهذا إن ما نسيَ أشكالهن جميعًا لأنه كان يقضي مع الواحدة ليلةً دون تثنيتها مع دفع أجرٍ لها يكفيها عشرة أشهر إن حملت، وهذا نادرًا ما كان يحدث لأن كبيرهم كانت

تتخذ التدابير جميعَها لكيلا تُوقِعَه بمسألة الأبوة لأنه حينها لن يعترف بأي طفلٍ عكس المرأة الكبيرة منهم التي تُعدُّ الحبيبة له والتي كان يفجر فحولته فيها، وكانت هي تدغدغ من تحته كأنها في كل مرة المرة الأولى التي يضاجعها إن لم تكن الألف، وهذا يحدث داخل غرفته التي تقع على يمين باب الحي قبالة الكنيسة فعند دخولهن غرفته الكئيبة الممتلئة بأعمال الحي، يتم إغلاق الباب من خلفهنَّ وأم يوسف تفهم الباقي بأن لا أحد يُسمح له الدخول من بعدهن لبعد سبع ساعات وأحيانًا يقضي اليوم بأكمله لليوم الذي يليه بصحبتهن بحجة تصفية حساب الحليب الذي يأتون به داخل الغرفة التي تبدو لكل من يدخل بأنها غرفة اجتماع مربعة الشكل منتصب فيها طاولة لأعماله يحوطها من جميع الجهات كراس من خشب البردي ولكن ما لم يعرفه أحد أن داخل هذه الغرفة غرفة أخرى جهزتها له أم يوسف لملذاته الشخصية بحيث لا يحتاج إلا وضع يدِه من خلف كرسيه على الجدار المُقابل لباب الدخول حتى تنتقل مباشرةً للغرفة التالية الممتلئة بستائر أرجوانية وسرير مليء بريش الطاووس وكؤوس مزخرفة تعود للعهد القديم يدخل واحدة تلوى الأخرى، لا يمضي مع الواحدة منهن تسع دقائق حتى ينتهي ويستحم وراء كل واحدة تخرج دون أن تستحم الأخرى حتى يأتي دور الأخيرة منهنَّ وهي كبيرتهن التي تطيل دخولها تمهيدًا لتهيجه بشكل حيوانيٍّ يُفقده ذاته، وتلك الأخيرة عند الانتهاء من واجبها تستحم بصحبته داخل الغرفة التي تهتمُّ بها من بعدهم أم

يوسف، وهذا ما تَمَّ نقلُه على ألسنتهن على وجود حي نصف ساكنيه من الإناث، إن لم يكن الثلث حتّى الجانّ والشياطين تخاف المساس بجدرانه، إن أرادت النظر خلسة لا يُسمح لها، وعليها طلب الإذن من المختار، وتقديم بيان يوضّح علاقتها بالحي وارتباطها بالنظر في حاله، وغير ذلك تمنع منعًا مقصودًا دخولهُ. يمكثون في مكان منفي عن عين ناظر. منفي عمَّا يشغل بال النساء تُولَدُ الأُنثى في هذا الحي عذراء لا يلوّثها هواء الرئتين لنقاء السريرة الذي يحملون، وتموتُ كما أجهضتها الحياة بين جدران لا يُسمح لها التكلّم إلا معهم... أربعُ جدران كافية بالإصغاء إلى أُنثى لا يُصيبُها الملال بصحبتهنّ والجدارُ الخامس الذي يُصغي له جميع تلك الجدران هي ذاتها. حتّى اختلاط بعض النساء ببعضٍ يُعدّ من النادر كمَا تردّد أم يوسف في إحدى جلساتها التي تُعدّ الأولى والأخيرة اختتمتها، (اختلاطُ بعض النساء مع بعضٍ هو أسوأ من اختلاطهم بالرجال).

وكان سبب ذلك بأنّها كانت جالسةً مع إحدى جاراتها يرتّبون المنزل لزفافِ ابنها في الحيّ تنفّست تلك الأخرى بأنّ الرجال يضيّقون عليهم الحال حتّى أنهنّ يختنقن تنفّسًا، وما أن نطقت الكلمة الأخيرة حتّى ودّعت الحياة دون أن يطلع عليها فجرٌ آخر وإلى هذا الوقت لا أحد يعلم كيف وافتها المنيّة وهي تشتهي أن تزفّ ولدها على مرأى عينيها لربّما أمنيتها تحقّقت دونما حلول حلمها بأن تراهُ.

مِن الواضِح أنّ الخروج عن القوقعة التي يحمونَ بها نساءهم نهايتها الموت، لعلّ بدايتها موت مع وقفِ التنفيذ. لم يُسمع بأيّ بيان أصدر إلا عن طريق المختار صاحب الكلمة الأولى والختام.

في رواية أُخرى لأمٍّ يوسف أنّها تحمُد الله دومًا لأنّ رجال حيّهم خلقوا صامتين لا يتكلّمون إن لم يأذن لهُم المختار هذا إن كانوا باجتماع رجال الحيّ الذي اعتادوه كلّ ثلاثاء لحلّ قضايا عظيمة تتعلق بالحيّ، كالمشورة والسماح بزواج أُنثى أو موتِ قطٍّ ثالث وقطٌ المختار قربه لا تقربه عين حَقود، لربّما هو الذي يقربهم. في مرةٍ كان المختار جالسًا حينما ربتَ على رأس قطه يردّد: قطط حارتنا أقوى من رجال البلد، عندما ضحك الجميعُ بصمت في قرارة أنفسهم، رافقتها أصوات هذا مؤكد. هو المختارُ دومًا يتوافَقُ مع الدرَك، لكن دونما علم أحد إلا عفريتةُ الحيّ التي لا يخفَى عنها خافية، ولو كانت تغطّ في نومٍ عميق. في مرةٍ رأتهُ قد خرج من الحيّ ونادرًا ما يخرج لم يغيب إلا ثلاث دقائق وبعدهَا أتى بظرفٍ بُنّيًّا متوسّط الحجم تملؤهُ الأوراق عندَها عِلمت ما يخفي داخِل هذا الشيء الذي يحمُل، كانت تعلَم عن القرارات التي تُؤخذ مسبقًا بالاتّفاق مع الدرك نيابةً عن رجالِ الحيّ وهو بالتالي يحصل على موافقتهم دونَما إزعاج أو حتى مشاغبَات تمنع أن يسري كلّ شيء على ما يُرام بهدوءٍ تامٍّ، في قرارة أنفسهِم أنهُم يعيشون منفيّين لا تقربَهم عينُ نسرٍ.

10

اجتماعُ يومِ الثلاثاء



في اجتماعِ يومِ الثُلاثاء الذي اعتادَه رجالُ الحي يردّدون: هيَ من فتنةِ والدهما اليونانيّة الّتي سبّبت البلاَء الذي حَال دون إدراك واحدةٍ من فتيات حيّهم لما يقولون ورفضِهن انصياعهُم لقوانينِهم الّتي يهتفون، سبَب هذا البلاء هي أُمّها التي كانت تُنفّذُ أوامرهم على نسائهم دون اعتراض واحدةٍ لما يقولون، أتت مع زوجها بحجّة أنّ والدته كانت تحتاجَه قبل تنفّسها الأخير، وما إن وطئت قدمهُ الحيّ حتى وافتها المنية.

لم يخطُر في بال اليونانيّة أنها ستقضي باقي اللّا عُمر متواطئة مع جُدران حيٍّ تجهلُ قوانينهم وهي بالأصل منهم، ولكنه هو السفر ينسينا موطننا الأصلي، فنغدو غرباء في حرم الوطن الذي ننتمي، ونرتدي عاداتنا كأنّنا غرباء.

رداءٌ هو بضعة قوانينٍ لا تُمثّل الإنسانية. لم يعُد هناك من يصدر قوانين بحقّها بعد كشفها خيانةَ زوجها أمام مرأى عينيها يُهدهد

لجارتهم أُمّ رام في سريرها، عندما رأته مصادفةً وهي تلحقه تريد أن تعرف ما يشغله، وإذ به يدخل لمترل أم رام.

لم ترَ المرأة المُقابلة له، ولكن مخيّلتها استدعت المشهد كما هو، لم يخطر لها أن تتخيّله على هذه الحال متلاحم جسده بجسدها، ويقبّل كل تفصيلةٍ منه، كما كانت هي تقبّل جسد المختار استدعت المشهدين أمامها ظنّت للوهلة الأولى بأنه قد رآها وأنه ينتقم أو لربّما يبادلها الخيانة، فاستبقت الأحداث، ولكن مع مرور الوقت اكتشفت بأنه لم يكن يدري بفعلتها وأنه خانها مع أرزل امرأة لديهم.

كلما أتتها كلمة خيانة تجنّ إثر صداها، لم تشعر بدموعها إلا عندما رطبت وجنتيها، رفعت رأسها وكأنّها زنوبيا الشرق حملت وشاحها وركضت وسط الحيّ في غضون دقيقتين كان الجميع متسمرًا على صدى صوتِها، وكأنّها تلقي خطابًا بصوتِها الأجش فيه بحّة الصرامة مع قامتها المستقيمة.

زوجي أب طفلتي يخونني في سرير جارتي أم رام، أريد أن تأخذوا لي حقّي، وكأنّها كانت تنتظر هذه اللّحظة وهي تشرح لهم تفاصيل ركضها خلفه وهو يدخل مترل جارتِهم أم رام.

رأى المختار عينيها فانتفض لهول ما يسمع، وزوج الأخرى لم ينتظر إلى أن ينهي عمله، صدى الألسنة لاحقَه، كما رنّت كلمة خيانة داخل أذنيه إلى أن همّ وأتى بها دون ردائها بجلدها العاري

شدّها من عتبة منزله لوسط حيّهم، والجميع يسمع صدى صُراخها، ولكنهم لم يأتوا بحركة، لم ينتظر أن يرجموها كأيّام الجاهليّة الأولى، وإنّما انتهى به الأمر إلى الحلّ الأقصر وهو نحرها أمام الجميع، ودم العُهر يجري في الحيّ كما تمشي الرذيلة في شوارع المدينة، وقتلَها أمام الملإ ــ أمّا زوج الآخرى فطُرد ومُنع من دخول الحيّ.

استنكرَ الجميعُ قرار المختار، وتساءلوا: لِمَ لَمْ يعلن قتله؟ فكان استنكارًا محرومًا طعم الثورة، له طعم الصمت، له طعم الخزي والعار.

في هذه الأثناء كانت أم ليا تحملهَا بين أحشائها عندَما سمحوا لَها البقاء مع اعترَافِهم بندَالة الرجُل الذي خَانها، لم يحتمِل الُمختار المشهَد الُمثار فصرخَ بأعلى صوتهِ هو وعفريتتهُ يده اليمنى أنّهم سيقدّمون كل ما تحتاج هذه الغريبة التي احترَمت ما يدّعون وامتثَلت الاحترام لكلّ ما يصِفون، عندها أمسكت بالتميمة التي تزين ما تحت ردائها، تمتمت بكلمات مُبهمة لم يفهم أحدٌ منها شيئًا، هي الّتي سمحَت لطفلتَها بأن تستَمرّ تَحت وطأة هذا التنَافُر الّذي تتلقّاه باعتقادهم أنها أكبرُ خطيئَة هي تركَها بينهُم تعيثُ فسَادًا في عقلِ طفلَتها.

أم يوسف المرأة الثانية بعد أم ليا الّتي لا يقوَى المختار أن يرفضَ لها طلب لحنكتِها التي اشتهرَت بها واعتبارها أكبر نساءُ الحي وأرشدهُم تُعتبر من الندرة القليلة باعتقادهم أن دعواها الجنيّة هي الّتي تُنجي الحيّ في بعضِ الأزمَات التي نادرًا ما يتعرّضون لها.

في نظرِ المختار كانت أوّل خطيئَة هي السمَاح لَهَا بأن تلعبَ في الحيّ، وأنِ يرَى الرجال طفلَة تركُض في أرجائه، كأنّهُ لا يسعَها تحتاجُ لكونٍ أكبَر لأن ترقُصَ فيه، أن تلعبَ بالحجَارة، أن تبتَلِع رِمَاله، أن تمشي تحتَ مطرِه حافية كمُشرّدةٍ ولِدَت دونَ أن تعرِف شيئًا عن الرجُل الذي طُرِد، والذي انتسبَت لاسمِه دون انتسابٍ، دونَ أن تعرِف عن تدخّلاَت الرجُل الآخر الذي يطاردُها الذي شارك سهوًا في رحم والدها تمهيدا لإنجابها، وكأنّهُ يخافُ عليها من نسمةِ هواء.

حَدَثَ ذلك في ليلة شتاء عاصفة وزوجها المواظب على عمليّة الحب مع أم رام، كانت قد ادّعت اليونانيّة بأنها في زيارة لأم يوسف وفي بيت الأخرى تجري عمليّة الحب، بيت على هيئة كهف مهجور مصاحب بأنوار خافتة قد أخلت أم يوسف لهما المكان، فهو ليس بطويل تدخل للمترل أرضيّة رخاميّة لا بأس بها مع جدران ليست بمطليّة مصابة بالملال يغلب عليها حجارة رمادية المميز فيه بأن لكل غرفة بابًا واحدًا داخليًّا بنّي اللّون مصنوعًا من خشب البردي يسبق الباب الخارجي الذي يضاعف حجم سابقه والذي يفصل غرفة المنامة عن غرفة الشعوذة التي تمارس فيها الشذوذ. غرفة المنامة التي لا تسمح لكائن من كان دخولها احترامًا لزوجها المُتوفّى لربّما احترامًا لقتلها طفلتها ودفنها فيها دون علم أحد خوفًا من أن يكشف أمرها والغرفة المُوازية للأخرى شبْهُ مربّعة الشكل نتوء حجارها ظاهر للعيان، فيمكنك من تعرّجات نتوئها تلمّسها وفي منتصفها منقل يتعالى منه دخانٌ كثيفٌ، وعلى كل جهة من الغرفة بضع وسادات بُنية

اللون، وفي الاتجاه المقابل للباب قُبالة المنقل كرسي مصنوع من خشب الماهوجني ليس لديه ما يعلوه عن الأرض وكأنه قطعة خشبية انتصبت أمام المنقل المتموضع باتجاه الباب بضع أوراق نباتية متنوعة بين ورق النعناع والكافور وتحتوي بينها الكثير من عيدان البخور التي تملأ الغرفة برائحتها الذكية وملتقة متوسطة الحجم، قطع حديدية بشكلها البيضوي اللامع يؤثر النظر وثلاث تميمات زرقاء مصاحبة بثلاث شعيرات للماعز وكأسين فارغتين قربهما قنينة ماء وشال حريري أسود اللون وأشياء أخرى مصاحبة بأوراق عليها أرقام متعددة وكلمات مكتوبة بشكل معاكس لشكلها المألوف لا يمكن فهمها بخطّ أسود وواضح.

اتّكأت أم ليا في الجهة اليمنى من الباب المقابلة للمنقل عندما لحق وراءها المختار بهيئته الثورية وشعره الكث، عندما أتاها رآها بهيأتها اليونانية، ذات عينين زرقاوين كالسماء، ووجه ورديّ، وشعر تخاله للوهلة الأولى سبيكة ذهب بقميص حريري مصبوغ بلونه الأبيض ليتماهى مع وهج جسدها، أهدتها إيّاه أم يوسف فارغًا من كل الجوانب عند الصدر والبطن، وما تحته بقليل، وعند الظهر، ومن عند الركبتين، لا قماش يغطيه، بضعة أجزاء تصل كل جزء بالآخر، لم يحتمل المختار المشهد الذي رآه عندما همّ هو الآخر وقف قُبالتها وبدأ بالتعري من ثيابه قطعةً تلو الأخرى، وكأنّه يقوم بعرض مسرحيّ بانحناءاته للأمام وللوراء، تلك الأخرى كعيني ذئب لم تزحزح نظرها

ويداها ممسكتان بفرجها، وكما تستعجل ما تنتظر، ما إن انتهى حتى انتصبت منهالةً بتقبيله بدءًا من طرف أذنه اليُسرى والعودة لخدّه ومن ثم شفته السفلى، لم تكتفِ وهي تشهق وتهمس تارةً ومن ثم أخبرته بأنّها ستلامس أعضاءه، لم يكن يزعجها الأمر حين أخبرها : منذ وقت و أنا أبحثُ عن امرأة تعلّمني فنون الحب.

جَرَّدها من كل ما ترتدي، ووضعها تحته بحركة سركيةٍ كانت قد تموضعت أرضًا بفتح ساقيها، يهمس بأذنيها ليسمع صدى أنينها بَقِيَا على هذه الحالة ما يُقارِبُ الستّين دقيقة، خلالها قام بإيلاجها أكثر من ثلاث عشرة مرّة، ويده اليمنى تداعبُ عانتها لتهيج أكثر مع صوت أنينها الذي كان يثير أم يوسف من غرفتها الأخرى التي كانت تئنُّ بصمتٍ وهي ممسكة فرجها بين يديها، تشعر وكأنّ شيئًا لَزِجًا يتحرك داخلها ولكن دون أن تَراهُ ،كلّما تعالى صوت الأخرى كانت الأخيرة تضغط بين ساقيها لتسكت وجعها المعطوب.

استمرّا تسعين دقيقة، وفي الدقيقة الواحدة والتسعين انهال عليها كثور جائع. تكرّرت هذه الحالة مرّات متتالية ولكنّها في المرة التي سبقت مولد لميا كانت مهيّأة بشكل ثور جائع عندما أتاها ليراها بثوبها الأرجواني وكأنّها كانت تنتظر هذه اللّحظة لتخلق له عمرًا يُضاف لأيّامه الأخيرة عندما كان يعاني اضطرابًا يخاف أن يؤدّي به للقبر عندما همّت لتساعده بإزالة كل ما يعيق طريقها جرّدته من كل ما

يرتدي حتى بدا أمامها منتصبًا مذهولًا مما قا. تفعل هذه اليونانيّة. هم صغار الحب مهما يتفنّنوا فيه فهم يشاكسونه، يتلاعبون على تموّجات الجسد بدلًا من دغدغة تموهاته ولمس الروح. وتلك الأخرى أمامه مجرّدة من كل ما يشوّه جسدها المنحوت بعناية ربّانية، طلبت أن يحافظ على هدوئه ليعيش لحظةً في الخيال: كانت تطيل الانتظار لتثير لديه نداء الحب، تقدّمت نحوه ببطءٍ شديد واستلقت قربه قبالة المنقل لا أحد إلّا هو وهي ووهج النار الذي يُثير الرّغبة للبدء.

تقدّمت نحو قضيبه لتبعد قدميه إحداهما عن الأخرى تريد أن تستكشفه، وكأنّها المرة الأولى التي تلامس فيها جسدَه.

كانت تتوقّع أن تشعر بملمسه منتصبًا، ولكن كان عكس ذلك بدأت تحرّكه حركة للأمام، للوراء في جميع الاتّجاهات انهالتِ وقبّلته، هو الآخر لم يدعها تكمل ما جاءت لأجله عندما انهال عليها وبدأ بإيلاجها، ولجها على حدّ كلام أم يوسف ما يقارب السبعين مرة إلى أن انتهكت قواه ولا تدري ما حلّ بعدها سوى النوم كانت تخبرها وكأنّه يريد أن ينجب منها قبيلة أو لعلّه أنجب مئة طفل أثناء ولوجها الأخير الذي لحقه حملها بطفلتها الكئيبة ذات الطقوس الشتويّة الشاهد الوحيد على هذه الشعوذات الليليّة كانت أم يوسف الجنيّة المتخفيّة في غرفتها تترقّب وتتحسّس الأصوات والأفعال.

وكأنّها تنتظر قدوم ليا أو أنه في ترقّب لتفجعه فينتقل لموته.

في مرةٍ تقول أمّ يوسف: كانَ المختار عائدًا لمنزلهِ عندما رآها جالسةً تحتَ المطر، اقتربَ منها يُخبرُها: ستبرَدين طفلتي.

عندَما فاجأتهُ وهي طفلةُ الخمسِ سنوات بردّها: سيُدفئني المَطر، عندَها أجفلَتهُ وذهبَ مذعورًا لمنزلهِ بأنّها طفلةٌ لا تُشابهُ بقايا فتيات حيّهم المُتعَاقدَاتِ مع المَوت.

وفي روايةٍ أخرى أنّهُ رآها تلعبُ بالحجارة عندما قالَ لها ستُؤذين نفسكِ، عندما ردّت تقول: سيَحمونني، أعشقُ هذه الحجَارة. أثارَت انتبَاه ليسَ فقَط رجالُ الحيّ إنّما قطّ المختار الذي كلّما رآها يتصاعد مواءهُ، يتَحوّل لكائنٍ لطيف يحتاجُ أن تُداعبهُ بأطراف يديهَا لينام في حضنها.

لم تكُن تطيقُ المكوثَ في المَنزل كلّما منعوهَا من الخُروج خوفًا على همجيَّتها كان صُراخها يتعالى إلى أن يبعثَ المختار بأحدٍ من رجالِ الحيّ يأتونَ بها إلى منصّته عندما كان يُخبرها ويروي لها عن أناسٍ تركوا منازلهم فهاجمهُم وحش ضخم يبتَلعُهُم دونَ رَحمة.

كانت تقول: وإن ظهرَ لي سأبتلعهُ.

كانَ يضحكُ المختار لنقاءِ سريرتها وكلمَات أم يوسف المحبّبة ساعدَت بأن يتغاضَى عن شُذوذِ أنثى تنتَمي لهُم دونَ انتماء، تنتَمي للأرضِ، للمطر،للحجرِ والرّمل.

بعدَ بلوغها الثالثة عشرة تلقّت الطعنَة الّتي حالَت دونَ انتمائها هيَ ووالدَتها إلا بالوجود، عزلُهم عن اختلاطِهم بأيّ إنس وأنّ أي احتكاكٍ بأحد سيُهدّد وجودَهنّ ويُطردن إلى حيثُ لاَ شيء بسبب رفض اليونانية الخوض في معارك النوم معه التي كانت بذرتها لميا الممزَقة بين والدين، عالمين، خيالين، بين مَنْ تكون وأين تكون كل ذلك ولّدَ لديها شعورًا بعدم الانتماء ولكن دون علمها ممّن، من الأرض التي خلقت عليها، أم من الرحم الذي أنجبها، أم من الأب الذي مات دون أن تعرفه، أم من الأم التي ما زالت عندها مريم اليونانيّة التي صوّرت بصورة العذراء المضحيّة؟

عندها قَبلَت راهشَان اليونانيّة بقرارِهم دون أن تنتمي الطفلة لردائهم إلا بشالٍ يُغطّي الرأسِ دونَ العباءة الّتي تميّزت بها فتيَات الحيّ مع النسَاء، اعتكَفت وجودَها دونَ أن ترتديَها على حدّ قولِهَا: رداء لن يحدد ماهيتها ولو أباحُوا قتلَها تحتَ مسمّى الرِداء لن ترتديه. سمّيَت راهشان بالزّنديقة لوقَاحةِ ما أنجبَت ارتَضت بحياة لا تعنيهَا. بالنسبةِ لهُم هي حِشرَة نتنَة أفشَت الخرَاب مُقابل أنّهُم تجاهَلوها منذّ البداية لولا أم يوسف لقُضي عليهَا دونَ صَوت. لولا الحُب الّذي سيطرَ على قرَارات المختار الّتي حالَت دونَ أن ينطقَ بأي شيء وحُجّة أم يُوسف التي أخبرَته أنّها سبب الرزق الذي حلّ بالحي، وأنّها سببُ المطر الّذي أغدق عليهم بعد سبعِ سنوات من الجفَاف الّذي عاناهُ الحي في كلّ مرةٍ كان يصرُخ أنّها يجب أنْ تُنفى خارِج الحيّ، كانت تذكّره بالمطر الّذي هطل أربعين ليلةً مُتتاليةً دون توقّف

احتفالًا بقدومها إثر ولادتها، وأنّها أنجبَت معها وباء الخير، المطر، الرزق، و أنّ شجَرة الزيتون التي صارَ لها ما يُقارِب الثلاثينَ عامًا دونما إنبات أثمَرَت وفوقَ هذا كُلّه أدخَلت الحُبَّ لقلبه المفصوم عنه، العقيم عن الرأفة، وأنهُ بعد ولادتها كأنّها كانت الخاتمة لم يلقَ الحيّ إناثًا بعدَها، أُصيبت نساءُ الحيّ بعُقمِ الإناث وجميع الولادَات بعدَها كانت ذكورًا، الحقيقة أنّه لم يولد بعدها ذكرٌ عدا ذكر ابن المختار، هذا الذكر العقيم على يدين والدته التي اختفت دون رجعة.

11

الموسيقى سَماءُ الرُّوح



يُنادون... مجنونةٌ تعيشُ بيننا تُمارس الحرَام

كحملهَا الشّيء الغريب الّذي تدور بهِ أرجاء الحيّ دون أن تعرف عن استعمالاته، حاولت مرارًا أن تصدر صوتًا، أن تسمع تحركات تموجاته دون أن يطرق حبلٌ بالآخر وكأنّها تنتظرُ قدومَها ثانيَةً، لم يشفع لقلبها أنها تربّت على يَدِ الطبيعة من كل مفاتن الحياة، ولم يشفع لها أن تكون ابنة الطبيعة تُمارِسُ معها بوح رُوحَها. فالشيء الذي تملك أكبرُ من رذيلة المُختار وهو الذي أهدها ايّاهُ امرأة غجريّة تائهة عن طريقها تركض خلف قلبها شعرها مموجٌ بين الأحمر والأسود مبعثر فوضوي، لا يستقرّ على ميناء لتُحدّد نهايَته، عيناها المكوّرتان اللتان يغطيهُما الكُحل من كلّ زاوية يظهرُ منهُما بريق عينيها الخضراوتان. مرّت قُرب حيّهم في ليلةِ ظلمَاء دون أن يلمحَها أحدٌ إلاّ هي كانت تجوبُ الحيّ بحثًا عن مخرجٍ يُبعدها عن أعين المتتبّعين

الذين وضعهُم لها المختار كُل هذا يحول دونَ منعها من أن تستخبر الحيَاة الّتي ربّما تراهَا خارج هذا المكان المقيت. كانت تلكَ الأُخرى تائهةً عَن طريقها تبكي وكأنّها فقدَت حبيبها، جابت الأرض إلى أن وصلَت لهذه القطعة المنفيَّة المنسيّة بين عتمَات المُدن والأحيَاء الأُخرى عندما رأتهَا متكورة أمام صخرة، تحاكي ذاتها:

متى سيفتحون قبري؟ متى سيخرجونني مِن هذه العتمة؟ بدأت تُتابِعُ تَعدُّد القبور من طرفها الأيمن. الحي بأكمله خلف ظَهرِها وهذه البقعة من السماء لا تفضي إلا إلى اللا نهاية، لربما من سيقربها ستنزله لها السماء كهدية لخيالات رُوحها الهمجية، همّت تقبّلُها وتُخبرها بأنها هدية السماء عندما منحتها بصَمت هذه الآلة الغريبة المكونة من لوحٍ خشبي يأخذ شكله الكروي الذي يمتدُّ برقبة طويلة مفرغ من ناحيته البطنية الخارجية بفتحة شبْه دائرية وكأنها عانَت الأمرين إلى أن تَمَّ فتحها لتأخذ شكلها الكروي ومن خلفها أسطوانة تحميه من تيّارات الهواء موصول بالجُزء العلوي بستٍّ شعراتٍ تصل البطن برقبته وكأنّها من ذنب الحصان، لم يتمكّن كائنٌ من كائنات الحي أن يتعرّف إلى هذا الشيء الّذي تَحمل ما عدا راهشان الّتي بدأت تخبرُها عن تطوراتها وأنّ هذا الشكل هو بدائي، وأنها بمرورِ الزمن تطوّرت بشكلٍ متسارع أعطَاها أشكالًا متعدّدة يسهل عليكِ اختيار القطعة الّتي تريدين. تمتاز بلونها الخشبي وعمرها يستقرُّ على نوعية الخشب المصنوعة منه. ولكن هذا لن يكون هُنا لا أعلمُ كيف ستحصلين على واحدةٍ مشابهة.

منذ أن ولدتما وهم يُنادونَ: خبيثةٌ تعيشُ بيننا أصلُها عربيٌّ تحملُ عرقًا غَربيًّا، صرخَت أم يوسف بوجهِهم أنّها سببُ النعيم الّذي نعيش.

ملأ الحيّ صَخب المختار وصُراخه أن ما يرَاه أمامَه هو خُروج عن عادَاهم، وعن قوانينه التي تمنع أن يدخل للحي شيء إلا بإذنه و بأنّ الأمر وصلَ للحدّ غير المرغوب فيه، وما من أحد تجرّأ أن يتكلم بعدهُ أو أن يأتِي بشيء إنما هذه اللعينَة تصرُخ في وجهِهم عندما أخبرَته انّها تُريد قطعةً مشابهةً للشيء الذي تحمُل. لا تُبالي بما يُنادي المختار بأنّها تجهلُ كلّ شيء عندما أخبرَها: لا فتاة لدينا تذهب خارج الحي وأنتِ خرجتِ، تعلّمت الكثير من الكتب التي تحميلينها، وبدأتِ تنقُلين لفتياتنا ما يُفسد عقولهن، ظنًّا منه أن ما تتعلمه قد يخرج الميت من قبره لم يكن يدري أن ما تتلقنه ليس أقل مما تجهله، فأمُّ يوسف لم تعلمها إلا الشيء القليل من مبادئ القراءة ولكن نقاء سريرتها ورؤيتها لشعوذات أم يوسف ساهما بتثقيفها، فهي لن تنسى أبدًا السحر الأسود الذي مارسته أمامها بإحضارها قطعة قماش حولتها لشكل يُشبهُ راهشان اليونانية بتفاصيلها كافةً، وعند دائرة قلبها حبستها بدائرة سوداء وخزتها بالإبر من كل جهاتها مع وضعها نجس قطتها ووضعته داخل قلبها وأخذتها حيث لم تعلم لميا التي بقيت حينها يومان مندَهِشةً من رؤية ما فعلت أم يوسف، وعندما سألتها وهي ابنة السبع سنوات: أين تلك الساحرة التي تُشبه والدتيّ؟

أخبرها: خبأها داخل أحد الأماكن البعيدة، وسترينها عندما تبحثين عليها.

مذ ذلك الوقت وهي تبحث عن الساحرة مع تكرار المشهد أمامها أصبح لديها عددٌ لا يُحصى من الساحرات والمشعوذين الذين كانت تحيكهم أمامها، وفي بعض الأحيان كانت تساعدها بجلب روث لأحد الحيوانات، وبقطاف إحدى النباتات، وفي كل مرة تسألها يتكرر جوابها: أن عليها البحث بشكل أكبر لدرجة وصلت فيها أنها ابتدعتْ أشكالًا جديدة للساحرة حيث تُوخذُ الإبرة ليس داخل القلب فحسب إنما في جميع الأجزاء كما فعلت بواحدة حاكتها لشكل يُشْبِهُ إلى حَدٍّ دقيق أم يوسف ودفنتها عند باب منزلها دون أن يلاحظها أحدٌ؛ لذا أم يوسف لم تُساهِم في تعليمها أيًّا من العلوم ولكن قدرتها العجيبة التي دهشتها هي ذاتها بأنها تعلّمت منها دون أن تدري هي ما كانت تفعل إلى أن بلغت الثالثة عشرة حين تثقفت من خزانتها الممتلئة ليس بأعمال السحر فحسب إنما بكتب تخفيها عن أعين المختار حتى هو ذاته لا يعرف من أين تأتي بهم، ولم يكن يعلم أن اللواتي يجلبن الحليب كن يخفين أشياء تخص أمَّ يوسف بها ذاتها لتتثقف منهم فهم متوارثون بالفطرة عقليتهن الزنزانية في كل مرّة تأتينَ بمئاتِ الأوراق الّتي أجهلُ محتواها هذا يكفيكِ، هذا ما ناداها به المختار حينها أجابته:

إنما هي مَنْ منحتَها ما تحمل فلم يأتِ بكلمة بعدها لأنه يعرف حق المعرفة أنها ليس لها من الثقافة ما يفتح آفاق مخيلتها لتنقل ولو ربع ما تملك إلى الأخرى، ولم يكن يعلم أن ما يتناقلونه خفية أكبر من حجم فحولته. بالنسبةِ لهُم لا مكان للعلم خارج بيت الله الجامع أو مكمنِ العبادة الكنيسة والثالث لهما هو شذوذٌ تامٌّ عنهُم وأنّها شذّت بما يكفي، وإن سمحوا لها بالتمادي ستمادى على رجالهم ونسائهم، ولربّما فتيات الحي يتأثرن بما يرين وينادين جميعهُنَّ أنّهنَّ يُردنّ أن يتلقين ما تتلقاه تلك الأُخرى. في قرارةِ نفسهِ أنّ سبب هذا الوباء هو الغريبُ الذي أتى لزيارةِ والدتها بحجّة أنّهُ يريد أن يرى أختهُ التي انقطعَت أخبارُها بعد مغادرةِ اليونان، وأنّهُ تلقّى العذاب المرير للوصولِ إليها عندها سمحَ لهُ المختار بأن يراها بعد محاولات عدة، وأوراق تثبّت أنه أخوها، وقبل مغادرته أخبَرها: طفلتكِ هذه ستقلب نظامَ الحي، والحياة التي تعيشُ فيهَا هي مدفنٌ للحياة بحدّ ذاتها، عندما صرخَت في وجههِ قائلة: هنا أشعُر بالأمان أن الله بقُربنا ولن يمسسنا الضرّ عندها رد عليها قبل خروجه الأول و الأخير: إن كان وجود الله مرهونًا بذكركم له، أوليس الله في قلب كل بشر أم أن على أرضكم الله فقط؟ وأن الآخرين في البِقاع الأخرى ملعونون، إن الله في روح كل إنسان لا تفصّلونه حسب مقاسكم وديانتكم.

عندها لم ترد عليه بشيءٍ حَمَلَ ما بقي لديه من كلماتٍ وغادر دون رجعة. أظهرَ لها المختار احترامًا يقدِّر بعد أن رآها تصرُخ في وجهِ أخيها احترامًا للعيش الذي تتلقاهُ، وما هي إلا بضعةُ أيامٍ حتى لعنَ وجودهما.

12

الموسيقى هي الحَلُّ



الموسيقَى هي الحلُّ في فوضَى هذا العالم. كان خروجها عن المألوف ليسَ تعديًّا علَى العادات أو شذُوذها عنهُم، ولكنّها لم تحتمل أن تكون ضمن المنسيين اللوَاتي يُولدن مع الموت ويُدفنّ في صخبِ الحياة. بِحاجة لمتنفسٍ لرؤيةِ ما هو غير مألوف عن عالمٍ يُؤمن بماهيةِ وجودها، هذا ما أوحى به خيالها وحرمها منه واقعها. في الحياة كلّ شيءٍ مرتبٌ حسب تسلسلٍ إلهي، كلّ شيءٍ مُرتّبٌ حسب هندسة نظامية ولا شيء يحدُث بمحضّ المصادفة، إنما بمحضّ الإدراك الواعي القابل للحُدوث، ولكن بالطبيعة البشرية من الصعب إدراك القدرة مع تلاقي المصادفات.

بعدَ جدَالاتٍ عدّة استمرّت خمسمئةِ يوم لم تُلقِ لها بالًا علَى الرّغم منَ الرّجال الذين يلاحقونَها خوفًا عليها من أن الهواء سيعبثُ بأُنثاهم فيسرِقها وهُم عين صقرٍ صاحية على نسائهُم اللواتي يمتنّ برفقة الحياة، انتهَى بها الحالُ بالانتماء لآلتها بعد توصِيات قامت بها أمُّ يوسف أن ما

تحمل لا يساوي أكثر من قطعة خشب لا تفي بالغرض. جهود أمِّ يوسف التي لم تذهب في مهب الريح اختتمتها بزيارة راهشان اليونانية التي كان وقوفها لا يحتاج التكلم لأن يوافق على طلبها، صُعقَت نساء الحي لهَوْلِ ما يحدث، لم يصدقنَ أن المختار البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا بقامته الطويلة والصارمة بزيّه المقيت وعباءته البنية مع لفة الرأس التي يضعها والتي لا يظهر منها إلا بعضٌ قليل من شعر رأسه بالإضافة للزنّار المتموضع عند حوض الخصر، كان هذا الزي يثير استغراب ليس فقط لميا التي كلما كانت بصحبة القط تسأله من ابتدع له هذا الشيء الذي يحول سؤالها دونما جواب كمثيلاتها من فتيات حَيِّهم اللواتي يسألن من المسؤول عن دائرة موهم؟ عن دائرة دفنهم واستجابتهن دون اعتراض حالت دون ابتعادهن عن جدران حَيِّهم.

كل هذا الانعتاق البشري يحول لا شيء أمام خروجها عن دائرة التقوقُع ولو بعضًا قليل لتتنفُّس.

لم تعتَد التعثّر بالحُب أو حتّى مغازلتَه تحت طائلةِ الحَبس الذي تُعانيهُ والتي تحرمُهَا نعمَة النظَر بخلقِ الله، التمتّع بما منحنَا، تَمشي وكأنّها خيَال يُعانقُ الأرض، لا تُبالي بما يجري من وراءِ ظهرِها، ولو أنّها تكلّفت عناء النظر لقُتلت دون رحمة.

فالقاعدة الأساسية من بين قواعد الحياة الّتي أنشأها أمُّ يوسف بموافقة المختار من خلال خبرها التي توارثتها تقتضي: لا تمنحي تأشيرة

الموافقة، فعيناك ذنب أجرَم به الرب، إياك والعبث فيهما أن تمضي دون ترنّح أن تكون فتاة الصمت بكل بلاغة.

إياكِ والتكلّم مع الغرباء، فهؤلاء لا يؤتمنون، وتلك الأخرى تسأل ذاتها من أرى داخل هذا العُقم على ماذا تأتّمني هذه المجنونة ولو أنها اكتفت بعناء فتح رسائلي لقتلت أمام الملء، وهل فيهما أيّ جرم!؟

بدأت ذاتها الداخلية تتحدث: فأنا غيرهما لم يصدف وأن رأيت أو قابلت أو حتى جربت أن أشاكس إلا داخل هذه القوقعة، كل ما يشغلها هو أن تُباغت الموسيقى، أن تشاكس الطبيعة. ولكنّها منحت تأشيرَة الدخول دون موافقة، كانوا ينتظرون عودتها في الوقت الذي اعتادت أن تتنفّس داخل الطبيعة، يَبعُدُ هذا المكان عن حيّهم بضعة أمتار لا تستوجب التزامهم بحمايتها، ولكن إصرار المختار وفرضه الأوامر قد كثّف الحماية خوفًا من ظهور جنيّة أخرى أو لربما مشعوذة تمنحها بعضًا مما تفقد ولكنّها باغتَتهم بلهفة طِفلة للحياة، تسرق ساعَات جلوسها، تتأمّل الأرض الممددة أمامها، لا عُشب يزيّنُها، إنما أوراق بهتت إثر عملية إجهاض الحياة دون علمهم أو تمييزهم بالمداخل السرية لغابة الخلود لديها، وكيفيّة الدخول والخروج وتأشيرة الحضور أعطتهُم تأشيرَة الانتظَار، فمنحوهَا تأشيرَة الحُب. تحمُل آلتها وكأنّها تحمل طفلًا مُشرّدًا تخافُ فِقدانهُ، طِفلًا بين يدين شرقيّتين ينام تائهًا بين العوالم يجهلُ مصيرهُ.

أسدَلت وشَاحها بيدِها اليُسرى لجهةِ اليمين ليظهر متدلّيًا. همّت للخروج من خلف حيّهم، وللبدء بما عزمت على فعله مذ شهور عاشتها وهي تتخبّط مع ذاتها الداخلية وهي تخطط ساعاتٍ، وترسم إشارات داخل دماغها للحي وللباب والفتحة وإلى ما يمكن أن تودي بها. فكرت قبل البدء كيف من الممكن أن أتجاوز هذا السور الذي يتراوح طوله مع عرضه 20 مترًا صُنِعَ لحماية مداخل الحي؟ استغرقوا في بنائه تسعين يومًا خوفًا من أن يتسلّل الغرباء إليهم. في المرة التي سبقت الأخيرة اكتشفت حفرة تفضي للّا شيء كانت بين خيارين أن تمضي فيها أو أن تعود لغرفتها، كان خيارها الأخير أن تدخل في ماهية واقع تجهل إلى أين سُيفضي بها والذي مهّد لها هذا المجهول فتح أبواب الحب لتستقبله بشغفٍ.

انتهت هذه الحفرة لفتحة ضوء منحتها تأشيرة الحياة، فكان دُخولها إلى عينيهِ هي الموسيقى الراقيّة الّتي سرقتها دونَما وعيٍ منها.

في بداية الأمر ظنّت أنها رأت رَجلًا من كوكبٍ آخر سمح لنفسه بأن يهبِط على أرضِ الجمَال في قرارة نفسِها هو آية الجمَال. متأنّقٌ بشكلٍ يثير النظر، لم يكن يعرف داخل مداراته ما الذي أتى به إلى هذه البقعة من الكون، وكأنما كان يحتاج أن يبحث عن العتيق المدفون داخل حيّهم المفضي إلى الأحياء الأخرى. فهي لم تتعثر صدفة إنما وقعت بسبب الحجارة التي كانت أمامهُ هكذا هُيّئ لها لكن لا أثر لَها

إلاّ أنَها وقعَت إثر قوةِ الجذب الّتي سرَقتها بهدوءِ تامٍّ داخل مخيلَتها، وما ظهَر لهُ هو اتّزانُها الصامت، الساكِن. لم يكن على علم مُسبَقٍ بوجودها على أرض الياسمين و أن الياسمين بكل ما فيه من إتقان إلهي موجود فيها.

لربما الذي جهّز طاولة الحب كان على علم مسِبق بأنها لا تعرف عن قواعده شيء سمحت للرجل الأول أن يكون الأخير المتقوقع داخل ذاكرتها.

كانت هذه الحفرة المناجاة الوحيدة لها كلما أرادت التنفّس هربت لستّين دقيقة، وعادت بعدها دون أن يدري أحد بخروجها ودونما شعور رجال المختار بهواها.

أول جملة تلفّظ بها في لقائهما الثاني...

أتسمحين لي؟

كانت الأجوبة تتطاير داخل رأسها، أأسمح بماذا ولِمَ السؤال أهو بكامل إتيكيته يطلب إذنًا.

قبل أن يسمع الجواب أخذها من يدها، ولكن إثر كلماتها أوقفته...

نعم أسمري.

ترتَدي وشاحًا أسوَد يُغطي كل ما يظهَر من مفاتِن تحتهُ لا يظهرُ منه إلا بِضع خصلاتِ شعرٍ غجري يخجل الهواء من عناقِهم، يخافُ أن يُزعج أنوثتَها الطاغيّة، وبضع خصلات أُخرى تستحي الخروج لكيلا تتمرّد على الإنسانية، أن تُحدث جلبَة تُعيد ملاحم اليونان كالقتال على خصلةِ شعر فينوس الشرقيّة. مشت أمامه مرتبكة لم تعِ ماذا تفعَل أهي مخدّرة أم أن ما مرّ شيءٌ عابر لَن يَتكرّر وأنها تُبالِغُ؟ هو الآخر يتتبّعها بقامته البارزة، عيناه البنيّتان المثيرتان للقلق باتّساع حدقتهما.

فَمُه الفُستقي ورمش عينيه غيمتان إن ما كان سماء يغطي مفاتن عينيه، شعره الكث عنقه الميناء الذي يرسى عليه كل ما يقلق، يداه النحيلتان يعانيان من نعومتهما، مشيته المتّزنة تخاله للوهلة الأولى أحد السيّاسيين الكبار الذين خرجوا لتوّهم مرهقين دون جدوى من كل اجتماع يتباحثون فيه عن القضايا الكبرى كمشكلة الحيوانات المُلقاة بالشوارع دونما انتباه كل واحدٍ، لربما إن لم يكن يملك قطًّا فهو يملك حظيرة دون أن يتنبّه لعدد اللّاجئين الذي يلتجئون إلى الله فاتحين أيديهم للعالم، يستقبلهم البحر بكل حفاوة وترحيب مقيم سهرته الخاصة على لحم أجسادهم ومسك روحهم الطيّبة.

بَقِيَ على هذه الحال مدهوشًا سبعين دقيقة يُطالع من أي صنفٍ هي.

لم أرَ هذهِ الترتيلة طيلَة حياتي حتّى أنّه يصعب أن أُحدّد لأيّ مقطوعةٍ تنتمي، أيُعقل أنّها من الصول الدييز، نادرًا ما أرى أُنثى تحمل مفاتيح الموسيقى وأنّها تملك معزوفة الكَون أظنّها الشرقيّة التي تحملها بل مُتأكد هي. بدأ يطالع هيأتها الصارمة بشعرها الذي يغطّي ظهرها بالكامل حدّده من خلال خصلتين تمرّان من تحت وشاحِها، اصطحبها على حدّ قوله لمكان لن يقربه أحدٌ وبأنها أول ما تراه ستطير روحُها منها مُعانقةً كل حجر منه لم تتعرّف للطريق أو للمكان الذي وصلت إليه إلا أنه مبني من الحجارة، رائحته كرائحة العتيق، حجر خالص يعطي الانطباع الأول بتربّع هيئته وما أن تدخله حتى تلحظ الجلبة، وكأنك دخلت لكون لن تقربه عفاريت الأرض.

ذُهِلَ كل من رآها بردائها ووشاحها المتدلّي منه خُصلات من شعرها اللَيلي، ظنّوا أنها بدوية أو تائهة قد أضاعت طريقها إلى أن تلفّظ أحدُهم بأننا هنا لا نعطي الشحّاذات مالًا في هذه الأثناء تكلّم الرجل الذي أتى بها بأنها ليست شحّاذة، إلا أن صوتها أخرسه عندما تطايرت كلماتُها: أنا شحاذة وأتيت إليكم أشحذ روحي، فهل أعدتموها إليّ.

تائهة لا أعرف من أنا أو من أين أتيت أبحث عن روح لي، هل هناك من يمنح شحّاذة مثلي عمّا تبحث؟

ذُهِلَ الموجودون من نبرة صوتها الحادة التي تُشبهُ إلى حدّ كبير صوت والدها إلا أنه أمسكها من يدِها كانت على يقينٍ أن ما سألت عنه موجود بين يديه .

ولكنها تريد أن تنبّه العالمين ليس كل شحّاذ يريد مالًا فقد أعطوهم فرصة البوح لتسمعوا ما تخفي كلماتهم. توقفت أيديهم عن العزف بآلاتهم المختلفة الهارمونيكا، الكلارينيت، التشيللو، الكمان، الجيتار بنوعِه الكلاسيكي وانتهاء بالبيان. تقدّمت خطوة للأمام على يسار البابِ الرمادي كان جلوسها المتّزن مترافقًا مع حركات يديها المكتنزّتين مع تموّجات يظهر منها أوتار عُروقها التي لم يستطع أن يحدّد لونها.

في بداية الأمر حيّاهُ أستاذ الموسيقى على حُضورِه، بحرَكة من رأسه بادلَه التحيّة بالإيجاب. لم تفهَم لِمَ قدّم لهُ التحيّة إلا أن الآخر لم يومئ لها بحركة وكأن غريبة أحدثت جلبة في صف صمتهم الإلهي لم يكن لديها الوقت لتتبع نظراتهم أو لربما خافت أن يضيع الوقت من ذاكرتها لتكرار مشهد لقائهما حيث وُلِدَت لا تحرّك نظرها عنه طيلة جلوسه على البيان وهي تتّبع حركات يديه مسرعةً لليمين واليسار، وتارةً مرتفعةً للأعلى مع تحرّكات رأسه وإغماض عينيه والضربات المتتالية وإنصات الجميع لجلال ما يعزف، فكانت هي تناسِبُ الموسيقى مع الموقف لأنها كانت على إيمان ما كان ينقص لقاء عينيها بعينيه مقطوعة لباخ.

متى أتيت؟

أنا اليومَ ولدت.

لم يسبَق أن رأيتُ وجهك..

أوّلَ مرةٍ أُقابِلُ عينين لوزيتين كعينيكِ، يقولُ درويش: من أنا بعد عينين لوزيتين.

لم تعُد قادرة على جمعِ الكلمات.

سؤالٌ آخر سيدتي؟

أظُن أن في حضوركَ تتلاشى الأسئلة.

يضحَك: أقارئةٌ أنتِ؟

ما قرأتُ إلا عينيكَ.

يضحك.

تقترِب من أُذنهِ اليُمنى، همس: أَيحدث أن أقول أنّي أُحبّك من الوهلةِ الأولى؟

كاد يُغمى عليه وهذا نادرًا ما حدث معه أُنثى شرقية تبادرهُ الحُب.

أنا سيد الحب بين عينين لوزيتين، أنا آلهة الحب في حضرة شرقيّة لا تشابه أحد، يغريني أن أكون أول من ولد الحبّ لأجله.. أنثى أنت

قادرة على قلب المواجع، يحدث أن تبعثريني ببضع ما قلتِ؟ أعيدي ما قلت!

الكلمة إن تنهدت مرتين تموت، وأنا لا أطيق لها الموت.

وأنا كذلك..

إن لم تستوعبها من الهمسة الأولى وإن قلتها آلاف المرات ورتّبتها وقدّمتها على طبقٍ من فِضةٍ ستموت لن تستوعبها.

أنا رجل يستوعب النظرات، تهزي بي الكلمات، تبعثرني أنثى تملك صفات الكمال قريبة إلى الملائكية أكثر مما هي إلى البشرية.

قولي لي: مذّ متى لم تتكلمي؟

مُذ قرنٍ وعام..

وبعدها..؟

أنتظرك

أنتِ خائفة من الحب؟

لا أعرفه لأخافه

وتظنين أني برٌّ مسالّم، ستجدين الراحة عليه؟

لا أظن، بل متأكدة

نرجسيّة

بحضورك

لستِ بارعة في الحب

ربما بين يديك أصبح بارعة

وإن غرقتِ؟

يطيب لي الموت بين يديك

مجنونة

مذ التقيتك

يضحك.. فاتنة الكلمات

أنتَ من يركّبها

أظنّ أنّي الرّجل الأول في حياتِك

كان هناك ذكر يتّمني قبل أن أرى رجولته

وأنا؟

أظن بأنك ستعوّضني عن شعور اليتم الذي أعانيه

ستتعبين

أشعر بالراحة، لا تعب، زيوس هنا

لا تكابري، أنا رجل تائه، لا مصير لديَّ، هدمت واقعي بيدي والآن التقيتُ بأنثى لا تأبه لشيء رغم القيود التي آراها في لباسك..!

لباسي لا قيود له، أنا ما صنعته، والقيود التي تقيّدني أظنّ أنك ستُحرّرها

لا أفكر بالزواج

ولا أنا لم أضعه ضمن أولوّياتي

إذًا...!!

لا شيء، كنت أشتهي أن ألتقي برجل تتبعثر أمامه كلمات الحب وأقول له ما أشعر، هذا كل ما في الأمر، وبعدها أُغادرُ دون رجعة لا يعنيني بعدها إلا أني تمرّدت على الشرقيات الّلواتي يفكرن بالكلمة قبل أن يَقُلْنَها، تموت الكلمة، وأحيانًا يمتن هنّ وتبقى تلك حسرة في القلب لن يَنْسَينها، أريدُ أن أعود لقبري، اعذرني.

غادرَت وهي تضعُ يدَها على كتفِها ممسكة بوشاحها الفيروزيّ لم تشحذ منه ما بخل به لكثرة عدد الإناث اللواتي رآهنّ يخاف أن يُغدر، يُخان، يُقتل وهو بقرارة نفسهِ يعلم أنها أنثى نادرة رجل مثله خبير بالإناث ليس بحاجة لمئة عام أو عِمر جديد يضيفه لمحصّلة بطولاته يكفيهِ نظرة ليستخبر المرأة التي يحدّث، يعلم أنها طفلة لم تخطُ الخطوة الأولى.

تتهادى في خطواتِها كيمانيّة لا تُبالي بالشرقيّة الذي يعيش ولا بشرقتيها الّتي تقيّدها يعنيها رجل من النظرة الأولى، يستكشفها رجلٌ لا يحتاج عمرًا جديدًا ليستوعب الأنثى.

المشكلة ليست فيها إنّما في تركيبته الفيزولوجيّة مضافًا إليها طبيعته الشيزوفرينيّة وحالاته البارافرينية مع المكنونات الوراثيّة التي جعلت منه رجل اكتشاف النساء بدلًا من رجل المرأة الأخيرة، ففي كل مرّة يريد أن ينتصب الأوّل ويمضي، يريدها أن تهزي بحبّه.

يقول في ذاتِ سرّه: مذ قليل قالت أحبّكَ، والآن تمضي لا مبالية بما قالت.. غير مهتمة بما أقول، لا يهزّها شيء تقول الكلمة وكأنّها تشربها بكأس خمر مُسكِرة به سمعت صدى كلماته تتردّد في أذنيها... إني أنتظر حضوركِ شركسيتي...!

انتظرَ ضوء اليوم الثاني دون أن يغمض له جفن يعدّ عدد السجائر التي لم تفارقه.. أمام عينيهِ سحبٌ من دخان، وفي مخيّلتهِ مدينة عنوانها أنثى الوطن أمام عينيها سَجَدَ هذا الكون، وانحنى وكأنّ هذه السويعات التي مرّت عمرها مئة عام.

كلّ هذا كان كفيلًا بأن يلغي جميع التعاسات التي تُلاحِقُه ويجمع له رصيدًا من الفرح ينتظره في كل ثانية كان يهذي بكلمة ستأتي..

أظنّها لن تأتي..

ولكن أنثى هي.. طفلة لا تعرف الخبث أظنّها ستأتي..

ولم تأتِ.

حمل بعضه وغادر للمكان الذي قابَلَها فيه.

نَظَرَ حوله من أين أتت؟ لا مترل هنا أمامه خلفه فوقه وتحته لا شيء يفضي لها، وكأن السماء ابتلعتها.

مِنْ أين خرجت؟ أيعقل أنّ مترلها شجرة (هذا المكان يمتاز بتكاثف أشجاره الصنوبرية من كلا الاتّجاهين يحوطها سور من عدّة طبقات).

بدأ يحدّث ذاته...

لم أقدّم نفسي إلا بأنانية مُطلقة لو أنّي أخبرها أحبّكِ ليس من النظرة الأولى، ولكن قبل أن تلدي أحببتكِ من اللّهفة الأولى.. أحتاجكِ حدّ التّعب وأكثر، تعالي وعانقيني.. لا تُبالي سأخطفك إن لزم الأمر، أرجوكِ تعالي ...

قلبي صلد لا يحتمل الخيبات، وأظنُّ أنّي في حضنكِ سأدفن خيبات العالم، أنت سمائي وكفى.

عاد لغرفة الروح التي يناديها انبعاث الموسيقى هو ولادة روح ... وَقَفَ في البهو قليلًا يتمشّى جيئةً وذهابًا عاد للنافذة ينتظرها. حمل سيجارته وبدأ يدخّن واحدة تلو الأخرى خطرَ في باله أن يذهب

ويسأل إن كان من أحد يأتي إليه بمعلومات عنها، ولكن كيف يعرفونها؟

وهو مَنْ أتى بها...حتى لو ذهبتُ وسألتُهم: ماذا سأقول لهم؟ فأنا لا أعلم ما اسمها أظن لو قلت لهم صاحبةَ الوشاح لربّما يتذكّرونها سيعرفونها.. تعدّى الوقت الخمس دقائق ولم تأتِ، أظنّها لن تأتي سرقتني ولم تأتِ.. دخل ليجلس كما البارحة في مكانه الخلفي متطفلًا على ساعات ليست له متطفل على الموسيقى وهو ابنها متطفل على الوقت، وكأنه موسيقيلائيكي جلس يحادث الوقت..

بدأ الأستاذ بقراءة الأسماء لم يكن على علم بأنها سجّلت اسمها بين الحضور تريد أن تعرف الموسيقى أكثر وعندما نطق اسمها كانت قد دخلت ولم يسمع ما اسمها.

ها هي زميلتنا أتت.

كنتُ أعرف أنك لن تفوّتين درس الموسيقى.

عذرًا على تأخيري.

في صوتِها شيء مِنْ تَناغُم الطبيعة مع الملائكيّة التي ينتظر.

لم يفلت نظره عنها وهو يتتّبع خُطواتها الهادئة بوشاحِها الأبيض وردائها الأسود..

أظنّها عاشقة الأسود.. الأسود لا يليق بها فقط وإنّما يليق بعينيهَا وكأنّها طيفُ حمام محلّى بعَبيق الياسمين صعب الإدراك، صعب التفسير، رائحة الأمويّ أشعرها فيها.

بقي يحدّث الوقت إلى أن أعلن الموسيقيّ انتهاء كونه كما يسميّه، لم يتنازل بأن يسمّي درس الموسيقى حصّة (فالحصّة قابلة للتفاوُض)

ولكن بالنسبة له على الموسيقى لا تُفاوُض فكانت كلمة الكون هي الكلمة الأنسب التي من الممكن ألا تنهي الحصّة ولا الساعة ولا المئة عام ربّما تحتاج لشهود الكون أجمع لإدراك مفتاح أو نوتة من نوتات الأرواح التي ربّما تمنحك إياها الموسيقى كما الصلاة تمنح إجازة الروح واتصالها مع الخالق بساعات السحر.

انتظرها كما كانت تنتظر لتفاجئه!

تأخّرتِ اليوم..!

ربّما أنت أتيت مبكّرًا.

ربّما

هل جميع السوريّات ملائكيّات يُخطفنَ من الوهلة الأولى كأنتِ؟

تضحك .. و هل جميع الفلسطينين لديهم سحر حاد الإدراك كأنت ؟

يضحك ..كيف علمتِ أنّي فلسطينيّ ولم أتحدث بها مطلقًا.

نسيمُ الأقصى طغى عليك

وهل يجتمعُ جمال الأموي بجنون الأقصى!

لَم تنكّرت لكونك فلسطينيًّا؟

لم أتنكّر ولكّني تائه عن موطني شعوري بالانتماء مذّ ولادتي ضائع، أبحث عنه فلا أجده.

والآن تمضي غير مبالية بما قالت.. خاتمةُ الأنوثة هي (أهنّ السوريات جميلات إلى الحد الذي يقتل! أظنّ أن جمالهنّ طاغٍ، أظنّ أنّ السماء وضعت بعضًا من جمالها فيهنّ، متمرّدات غير مباليات بالطبيعة ربما لأنّهن الطبيعة بحدّ ذاتها).

عاد ليحادثها بشيء أشغله...

مذ ما يقارب الألف عام وأنا شعوري باللا شيء يلاحقني....

لم يسبق لي أن أغرمت بهذه الطريقة، لم أفكر يومًا أن آتي لهنا لرؤية الحب، لمغازلته كل ما يربطني بهذه الأرض موسيقى سماوية، هواء عليل، وبعض من الغبطة تُرافقني، أحتاج هنا للراحة، ترافقني حيث لم أجدها في ليون، ولا النورمندي ولا في روان لا اليونان ولا روما.

ماذا يحدث لو أنّي فقدت ذاتي فيها؟ أظنّها سرقتني مني..!

أظنّها من النوادر التي لا تحدث..

وإن حدثت..!

ستحتاجُ لِخلق أبجدية جديدة تستوعب هذه الخليقة.

وإن اخترعت الأبجدية ..!

تكون مدوّن هذا التاريخ..!

وحدي لا يمكن.

ومن قالَ وحدكَ..

يضحك... طفلتي لا تخشى شيئًا، أُنثايَ تعبث بكل شيء.

أظن أنّه سيجتمع عندما تكون هناك أنثى كأنتِ حاضرة أنت تقلبين الرماد ثمار والنار تحيليها جنّةً..!

الحبّ الذي يولد من الوَهلة الأولى هو الحب الذي يسرق العمر. يخطفه تحت طائلة الجنون!

تضحك..

أواه ربي أواه! ما أرى أجراس الكنائس ترقص أمامي!

يخبرها: أنت لا تعرفين شيئًا عن الفلسطيني العاشق يصير شاعرًا، ماردًا، ثوريًّا، قاتلًا إن لزم الأمر.

(الفلسطيني؛ هو رجل يدرك الجمال من الوهلة الأولى ولا يحتاج إلى عمرٍ آخر ليستوعب توحّد الجسد مع الروح).

لم تهزّها كلماته بقدر ما هزّه صوتها وهي تهمس:

(الأنثى السوريّة لا تشابه أحدًا يمرّ بخيالها حب واحد تعانقه بغفلة العمر.. تمتلك مفاتن الحياة وهي في قلب الموت).

أظن أن الإناث كلّهن اختصرن فيكِ.

أحيانًا يخيّل إليها الفرح وهي في صميم الألم لديها شغف للحبّ لا تودّع الطفولة تسكنها العفوية من جميع أطراف حركاتها مع تناغم إيقاع جسدها.

تتدلّلُ بطريقة خالية من الميوعة حتّى أحيانًا يخيّل إليك بأنها قريبة إلى الطفولة!

بدأ يطالعها بعينيه وهي لم ترف عينيها عنه تتبعه بصمتٍ بومة بريّة ديجاء ترافقه يحاول أن يرى الكثير أن يقرأ المعاني.

يريد أن يستكشفها... يستكشف عالمها غير مبالٍ بماضيه الذي ضيّعه جعل منه رجل التناقضات كما جعلها امرأة الفوضى دون منازع كما يحاول التجوّل، تحاول السفر داخل عينين فلسطينيّتين وجبين الأقصى الذي سيوصلها للمتاهة الكبرى. الشيء الوحيد الذي كان خارج نطاق الصمت هي سيجارته التي كانت تحترق وحدها ما بقي منها رمادها المنتصب من بدايتها لنهايتها من ثقلها هبطت على أرض الياسمين دون أن تحدث ضجّة لكيلا تزعج المارّين على صدى

همسها نسيها تائهًا داخل عينيها وهو الذي ما اعتاد أن ينساها لو أنه نَسِيَ الكون بأكمله يستحيل أن ينسى سيجارته أُنثاه الثائرة بين يديه بصمتِها.

13

(الحُبُّ الذي يُولَدُ من نظرة خير من حُبٍّ
يقضي العمر دون أن يُرى بشفق بُرهة)



لم يتجاوز عُمرها التاسعة عشرة عندما احتُجزت كما يحتجز عسكري داخل قطعته. ما ذنب قديسة إن وقعت في حرمة حبّ لا ينتمي لها؟

(هو الحُبّ ليس حكرًا على دينٍ ومحرّم منبوذ لدين آخر)

كانت رسالة الأنبياء عليهم السلام التوحيد، ونحن مشتّتون بالفطرة، خلقنا الله بلا اعتراض على أمره متفرّقين.

من ينظرُ إليها يخالها حورية من حوريّات الجنّة، وكأنّما السماء أمطرت حوريات ينبتن – على خبث – أرض لا ينتمين لها.. ليست بطول الحور ولا من جميلات البادية.. جمالها نوراني رغم جلبابها الأسود الذي يغطّي جميع مفاتن جسدها.. إن شقّته سيظهر للعيان نورًا يظنّ البشر أن السماء هنا.. شعرها اللّيلي يصل لأسفل أديمها لا يقيّده شيءٌ، مسدول عليه بارتياح تامٍّ دون انزعاج..

ذنبها أنّها مشت في ليلة ظلماء عندما كانت عائدة من منزل خالتها الشركسيّة التي احتفظت بشركسيّتها الأنيقة والمرهفة رغم ما يفرضه عليهم مختار حَيِّهم من قوانين، منزلها الذي لا يبعد ثلاثة أمتار عن منزلهم تحتاج للدوران نصف الحيّ لتصل لمنزلها وهي التي تميزت بهدوئها التام وأحيانًا يخيّل إليك أن لا أناس فيه، جمالها الذي تميّزت به عرّضها للشهوة ورفضها المستمر جعل المختار عاشقًا لها دون اعترافه، فكان حبّه الأخير كالدواء لم يستكين عنها إلّا عندما قالت إنّها ستفضح أمره أمام جميع الرجال حينها ضحك باستهزاء: إن سمع رجلٌ لكلامكِ عندها ستنالين ما تطلبين .

فكانت أمُّ يوسف هي المنجد الخبيث لطلبها الذي ندمت عليه فيما بعد لم تعلم إلى هذه اللحظة ماذا أخبرت المختار لتبعده عنها، ربّما فيما بعد ندمت الشركسيّة لأن التولُّ الذي بين يديها غدا رجلها الصباحي وتعاستها التي تغطي نقمها. حتى أنها في مرة قالت في ذات سرّها:(لولا أنّي لم أتمّسك بوعد زوجي بأن أحيا على ذكراه لما بقيت وحدي أدندن لعذريّتي) .

أعمالها التي اعتادت المواظبة عليها كما يقوم بها الجندي على الجبهة كان التطريز والعمل بالتول من الأعمال التي ورثتها من والدتها التي ورثتها من أمّها الكبرى وتوارثوها نساء الحي كافة. حدسها كان حليفها الأقوى بأن يدفعها لتتنفّس زوايا الحي فهي لم تعرفها جيّدًا وتريد أن تتلّمس حجارتها أن تتنفّس وحدها. فهي اليوم تعيش الحريّة

كطير حبيس فتح الباب لاستراحة مؤقّتة، تريد أن تعانق جدران المئذنة التي توقظهم لموعد الصّلاة، وأن ترى جرس الكنيسة بأمّ عينها تريد أن تتعرّف للأشياء للحجارة التي يضعون فيها المجانين اللواتي شذذن عن قواعد الحي. تريد أن ترى رام أحيانًا وأحيانًا أخرى تتذكّرها فيعتصرها بكاء دون أن تبكي. تريد أن ترى سراويل رجال حيّهم الغريبة التي تتكلّم الألسنة عن فتحاتها دون أن تراها لكثرة ما ترى العباءة البيضاء. تريد أن تتنفّس الياسمين المتدلّي على الجدران دون عبث، أن تلامس الحبق وتتمتّع برائحته ماذا يحدث لو أطالت التجوال لن يعرفها أحد فهي مغطّاة من الرأس لأخمص قدميها برداء أسود لا يميّز منه الليل من شدة العتمة، لم تتنبّه للقواعد التي تحظر على النساء التجوّل بعد الخامسة والآن الثامنة، ولم يبحث عنها أحد إذ أن والدها لم يناديها لتسمع نباحه، هذا ما قالته في ذات سرّها، فتاهت في حيّ هي من ساكنيه لم تحفظ متاهاته فهي مذ ولادتها لا تعرف إلا الطريق المؤدّي من بيتهم لمنزل رام وخالتها البائسة العاتبة على الدهر تنتظر موتها دون موت تعانق جدران بيتها تخاف الخفافيش بأن تلقي نظرة عليها فتجفل وتموت وهي تشهد على موتهم تساعدها في أعمال منزلها بعد وفاة زوجها الذي مات في ليلة كان يصلّي وعندما دخلت لم تحدث صوتًا، فلم تره إلا مُبحلقًا بها دون حراك، وكأنّ جمالها أجفله، أفقده صوابه فمات. لم تحظَ بالخلفة الصالحة ربّما على حدّ قولها: (أنعم الله عليّ أنه لم يطعمني طفلة ترى ما لا أشتهي).

تمشي مسرعة بين أزقّة الحارات، اعتراها خوفٌ بأنّها تاهت لم ترَ إلا أبنية تعانق شيئًا من الأرواح كأنّها الأموات.

مشت أسرع مّما أمكنها خوفًا من أن يراها أحدُ الرجال، فتتسرّب الألسنة أن فتاة ً من فتيات حيّهم تمشي ليلًا وحدها هذا إن لم يلحقها أحدٌ فيتعرّف مَنْ تكون..

إثر الخوف الذي رافقها سقط منها منديلها حمدت الله أن لا أحد قربها، وأنّها على مَقربةٍ من بيتهم عندما همّت لتأتي به تحمله فتعيده مدّ يده وأعطاها ما سَقَطَ منها.

يردّد.. أيصبح أن أصير وشاحًا يتأمّل وجهكِ البدريّ.

رغم السواد الذي يغطي الحي إلا أن جمالها بربريّ يتسلّل من بين العتمة. علمت عن جماله من جارهم أمّ يوسف التي هي أيضًا سمعت عنه وتنادي به على حدّ قولها عندما كانت حاملًا بمولودها ظنّت بأنه سيأتي وُلِدَ ولكن لسوء حظّها أنجبت فتاهًا دون أن تتخلى عن اسمها الأول أم يوسف تيمّنًا منها بأن الفتاة كانت يجب أن تأتي ولد ولكن هي حكمة الله .

لم يخطر لها أن ترى جمالًا يوسفيًا لا ينتمي لفئة الرجال الشرسين، استثنائيًا. وقفت مذهولة بما رأت وما هي إلا ثوانٍ واختفى كأنه حلم أتى يوقظها ويهرب.

طوله لا يمكن تحديده من العتمة، ولكن عينيه كانتا واضحتين كوضوح البدر لا لون يستقر عليهما كلون السماء، خطفها منها وكأنّ فتيات هذا الحي يغرقن من أول نظرة، فالحبُّ لديهنّ لا يحتاج إلا بُرهة ليسرقهنّ فالوقت لديهنّ مبعثر لا وقت يهدّدهنّ. سقوط منديلها لم يكن مدبرًا منها، ولم يتم تحضيره مصادفة إنما من تحضيرات القدر الخبيثة التي أحيانًا توقعنا دون علمنا بنداء الحب لولا حركة خارجية عن هذا الموقف لما غادر خوفًا عليها.

غطّت وجهها وغادرت كما يغادر مهاجر مدينته مرغمًا لا يتمنّي فِراقها. عندما وصلت لعتبة دارهم كانت قد رأت بابهم مفتوحًا على مصراعيه، وكأنّ وليمة أنجزت لحضرة قدومها لم تكن تعي أنّه بانتظارها بحضرتها سيمضي المساء ترهّله الأخير، تجاهلت القوانين التي تحظر عليها التأخّر، تجاهلت قانون القبيلة. حاولت التمرّد على العقليّة الشرقيّة كما تجاهلت أنّ الخروج عن عاداتهم هو كالموت أو موت مع وقف التنفيذ. خرجت عن معتقداتهم التي لا تمثّلها، كما أنّها تجاهلت أنّ كرباجًا بطول والدها يمثّل الشرقيّة من شرقها إلى غربها. يمكنك أن تتعرّف على كامل العقلية الشرقيّة من خلال كرباج دونما ذكر، فهو وحده يمثّل قوّة مئة رجل يفتقدون لخاصيّة الرجولة التي ينعتون بها الأمّة و يشبعونها كلامًا، لا يأتون بحركة دونما تحريك الدُّمى لا يختلفون عنه فهم متشابهون جدًّا..

الكرباج يحتاجهم لتحريكه وإصدار الأوامر عليه، وهم يحتاجونه لتحريك رجولتِهم وربّما استيقاظهم من بعد سُبات يحثّهم على الحراك فيحثّونه على الموت.

الآن هي تواجهه وجهًا لوجه لأول مرّة من بعد ولادتها ربّما لم تشعر يومًا بانتمائها لذكر لا تراه إلّا عند الفجر عبوسًا لربّما حتى الصلاة تستشعر في حضرته القلق، المميّز فيه لا يوجد في يديه مسبحة إنّما كرباج، لم يكلّمها ولم يسألها حتّى أنّه يقرف من خوض الحديث معها من ضمن الشتائم التي قالها لها أمام أخواتها الثلاث عشرة: (كنت أتمنّى أن أدفنك بيدي وأنتِ على قيد الحياة). .

ردّت عليه: شكرًا لأننا نعود للجاهليّة وبصوت عالٍ بتجمهر قويٍّ لربما نحن الجاهليّة بحدّ ذاتها، لن أكون أمّي ولا جدتي ولا حتّى جليلة التي ناديتموها بالمجنونة أخفيتم قصّتها ودفنتم موتها بأيديكم وجلستم تبتسمون، ولن أكون رامٍ ليسمع العالم جرائمكم وفضائحكم.

وما كادت تنهي جملتها حتّى انهال عليها ضربًا ما أذهله هي قصّة جليلة، كيف علمت بها وهي منذ موتِها لم يسمع أحدٌ بها لم يستثنِ جزءًا بسيطًا من جسدها إلا وانهال عليها ضربًا حتى أنّه ولا واحدة من الحاضرات أمكنها التكلُّم وكأنّهنّ يشاهدن مسرحيّة تراجيديّة

أمامهن لربّما نسيت أمّ يوسف أن تخبرهنّ أو لربّما لم تتجرّأ أن تشي بقصص قوقعتهم العظيمة.

يملك كرباجًا بُطوله: (إذا كان هذا الشيء يُستخدم لقتل الفتيات وهذيب الإناث، فكان أحقّ لو يستخدم لإعادة الرجولة)

كان هذا آخر ما همستْ به، لم تكن تعلم أن نظرة دون سابق إنذار لا دخل لها بها ستحيلها على سرير الانتظار نائمة، غائبة عن هذا الواقع ما يقارب الثلاثة أشهر، أي ما يُعادِل التسعين يومًا. بقيت ثابتة دون حراك رغم كلام أم يوسف منجّمة الحي بأنّها ستستيقظ مبكرًا، يغدو كلامها كنسمة تمرّ على الخدّ لا تشفي بشيء مرّت الثلاثة أشهر دون علم أحد لم هي نائمة. كان رفض والدها لطلب المختار بأن يستعين بأطبّاء وإن لزم الأمر ينقلوها لمستشفى خارج الحي ولكن رفضه المستمر وهو يردّد:

(لو أنّها ماتت، لكنت ارتحت ولو بضع قليل).

كان يردّ على كلام المختار بأنّ قلبها لا يزال على حاله وربما في القريب العاجل ستستيقظ.

في اعتقاد أمّ يوسف التي كانت تستهزئ بكل ما تراهُ من والد قديسة مردّدة: لربّما الله استجاب لتضرّعات والدها ودعائها المستمر والآيات التي كانت تُقرأ بهم على كوب من الماء وبعد انتهائها تمسحُ جسد طفلتِها بآيات الرحمن على حدِّ قولها: (الله يحمي المظلومين ولن

يتركها نائمة، فالقرآن هو الشفاء). ربما هذه الثلاثة أشهر كانت كفيلة بأن تعطي اليتيم عمرًا يرتجي فيه نظرة أو لربّما هو أثر الضربات التي تلقتها إثر قُدومها، أم أن الإنسان ليستوعب الحبَّ يحتاج عمرًا إضافيًا يُضاف إلى عمره للمُضيّ دون خوف.

الجيدَ في الأمر أن أباها لم يتوصّل للشاب الذي أفقدَ صغيرته صوابها، ولكن الحديث المطوّل الذي أجري بين قديسة ولميا كان هو الشخص الوحيد الذي أخبر أباها بكل ما جرى في تلك الليلة. حتى أنه اعتادَ أن يقدم له تقريرًا يوميًّا لكيلا يُخفي شيئًا عن شيخ الحي، ومن المتوقع هو الذي يكشف المستور دومًا لكثرة تنقلّه داخل أزقّة الحي وتجواله ساعات مطوّلة ينام الغراب وهو يحرس نوم عينه.لم يتأذَّ فيها شيء إلا يدها التي لم تستطع تحريكها إثر الضربة التي تعرّضت لها وخدّها الأيمن الذي كان مغطًى بقطعة قماش بيضاء عندما أزالت القماش عنه كان بضع جروح قد اختفت إثر الوقت الذي نامت فيه، ولم يظهر منه إلا بضعة شقوق لا تثير القلق..

الأمر الذي أحدثه الشاب ...لا يحتاج لكل هذه الجلبة، ولكن لولا وجود أمثاله لن يُعلي شأن أولئك الذين يحتمون ببعوضة خوفًا من هروب الفراشة. والدها الشيخ محي الدين معروف عنه بطيبته ومعاملته الحسنة التي يتلقّاها منه الجميع وصفاته ونقاء السريرة الذي يملك على حدّ قولهم: لم يخلق الله له مثيلًا. لم يكن يعلم أحد أنه قبل

مغادرته لصلاة الفجر يعوّي كذئبٍ مذعور ليوقظ أهل بيته ليجهّزوا له أدوات المسك والماء للوضوء. ظانّين أنه الصدر الحنون ولكنّه يملك وجهًا آخر مُختلفًا كل الاختلاف عن الذي يملكه خارج أرجاء بيته.

خلال الفترة الّتي نامت بها قدّيسة لم تتركها إناث منزلهم في كل يوم كانت تدخل إحداهنّ ويتجدّد الدور بعد أن تنتهي الأخت الصغرى من الزيارة ونومها قُربها مع حلول فجر اليوم التالي لتبدأ الأخت الكبرى بالزيارة اعتبارًا من المساء لساعات قريبة من الفجر كنّ يخبرنها خلال الساعات التي تُعدّ بالنسبة لهنّ غير كافية عن روتينهن القاتل.

الشيء الّذي كان خارج نطاق منزلهم ومقته الربّاني هو سماح الأب المتعض للميا بزيارتها خلال أربعين دقيقة يسمح لها بتقبيلها، تسريح شعرها اللّيلي، و مسح عينيها اللتين تبدوان مليئتين بالدموع تزيّن خدّها وخلال الأربعين دقيقة كأنّها كانت تكلّمها عن الكون وجماله، أسراره ومفاتنه. من بين هذه الأسرار كانت الموسيقى هي أمّ الحديث والقراءة هذا العالم الخالي من النفاق، وكانت تخبرها أن الطبيعة ملؤها الفرح صافية من الخبث الذي يعانوه نساء حيّهم وأن لا أحد يقرب أزهارها عكس المعاملة التي تتلّقاها فتيات الحي والجملة التي أعادتها عليها خمسين ألف مرة هي: (نحن إناث بثورة متناقضة سنقلب نظام هذا الحي، سندمّره، سنلعن الأموات، ونعيدهم، علّهم

يلقّحون ذكورنا ببعض من رجولتِهم لنستعيد تنفّسنا، حريّتنا، همجيّتنا.. سنقلب نظام القبيلة).

عندما فتحت عينيها لم يعلم أحدٌ كيف استيقظت وكان من المحتمل أن تنام مئة عامٍ دون أن يعرفوا السبب، كانت أول من رأته هي لميا عندما كانت تبكي قربها تنتحب كامرأة ميّتة يعتصرها مزن لن تسع السماء كلّها ولو اجتمعت السماوات السبع لمعرفة بكائها وجمع دموعها ونثرهم على أرض قاحلة لا تنبت كانت تخبرها: يتيمة.. أنا يتيمة بلا موطن استيقظي قديسة استيقظي.

كفى، كفى...

استيقظي... إني أموت من شدّة الموت وحيدة.

غادرت لميا مسرعة دون أن تتنبّه لاستيقاظ قديسة وأنها لمحتها قبل خروجها لم تعد تحتمل فكرة أن تبوح بكل ما لديها لنائمة لميّتة نصف موت .

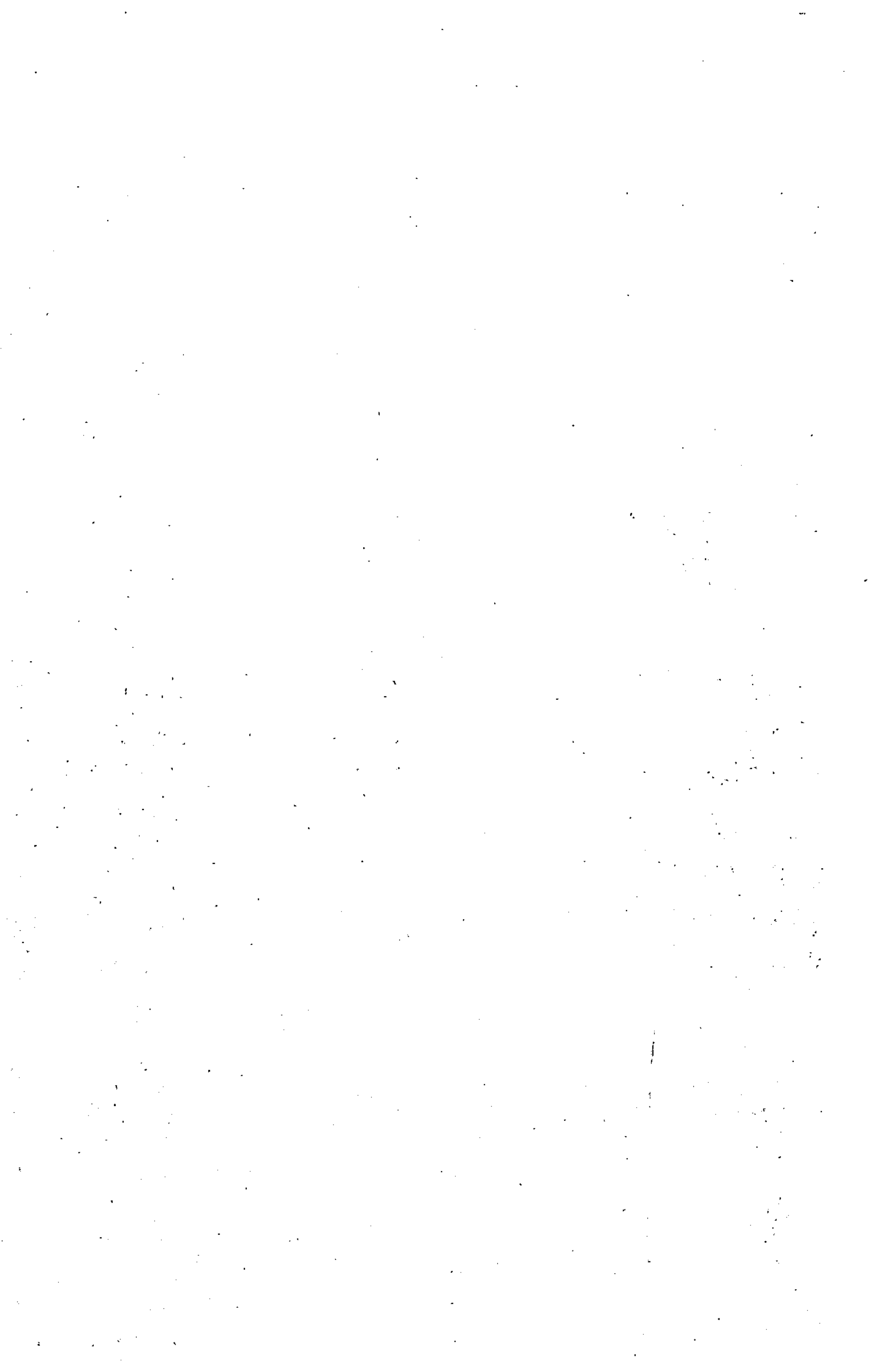
هزّ صوتها أرجاء المنزل وكأنّ ميّتة تنادي من قبرها أسقوني!

وكأنّما السماء ارتعشت لنحيبها فأمطرت.. لم تطلب بعدها شيء، ظهر على وجهها علامات الشيخوخة وهي لم تعانق العمر بعد!

14

(اللقاءُ الأول هو مَوْلِدُ جميع المواعيد التي تأتي بَعْدَه).

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي



ينهش بها الحنينُ كلّما استيقظت على ذِكرى أحمد... كيف اغتال رجولته؟ كيف خانته الذاكرة؟ وهل للرجل أن يُغتال في زمن الذكورة المُبكّرة؟

لم يكن استثناء، أم أنّ الاستثناء وجبة لم تنضج على ذكرى الأيام بعد!

هكذا همس في أذنيه: تخيّل لو أنّي فراشة نائمة على خدّك شرقيي!

يجيبها: تخيّلت.

بماذا شعرت..؟

شعور جميل.. لكنّه تلاشى بسرعة ..

متى طفلي سيكون لدينا ملعقة واحدة..؟

وأنا أشتهي أن أتناولك لكن دون ملعقة صغيرتي أحتاج أن التهمك وأقسم حينها أنّي سأميّتك بين يديّ دون أن تقولي كفى... دون أن تحتجّي وإن حدث وتكلّمتِ فسأحدث خرابًا أشعل به هذه الأرض.

أحمد أنا لا أعشق نظراتك.. عيناكِ أصبح هذا الشيء أمر عادي، ما أعشق حقًّا تنفسك آهاتك حتى الهالات السوداء التي تحتل عينيك أعشقها..

تخيّل لو أنّكَ مُستلقٍ على ظهري؟

تخيّلت.

لم أكن أدري أن الأيام أهلكتك حبيبي..

و كأن الزمن توقف يأخذ استراحة الذكرى..

ياااه!

مذّ متى و أنا لم أقلها ح ب ي ب ي

أستشعركَ هنا تحتلّني.. هيا اخرجْ من هذه العتمة.. اخرج بالله عليك.. أنتَ تعلم أنّي لا أحب هذه اللعبة.. أمقتها.. اخرجْ.. اخرجْ سمعتُ صوت آهاتك إنني أسمعها.. اخرج من بين خصلات شعري أستشعرك..

بدأت تركض في كل زاوية من زوايا منزلها .. تعانق الجدران.. الملال.. علّها تجد شيئًا.. تطير

كطفلة تبعثرت في المهد تصرخ تنادي علّه يجيب..!

من يسمع نحيب الأم على طفل ضاع بين يديها تاه حتى خان والدته هو عاشق ثائر في زمانه عانق أكثر من مئة فتاة دون أن تجفّ له رمش غادرهنّ دون رعشة قلب.. في حضورها لم يُنادِ نداء الغيرة لأنّها فاقدة لكلّ شيءٍ سواه، لم تتعرّف إلى مفهوم هذا النقص لأنها تعرف بحضرها تموت التموّجات الغريزيّة بأن ينبّه الأدرينالين عنصر الغيرة، لربّما طبيعتها ساهمت بأن تكون خارج كل الإباحيات التي تعانيها النساء، والطبيعة التي خلقت فيها لم تساهم في تثقيفها على مفهوم يناقض التفصيل بحدّ ذاته.

هو ليس مطهّرًا ولا نجسًا، يخاف الحياة، إنّما هي المصادفة ملكة الجميع وقع في حبّها، لم يكن يتوقّع أنها أنثى تسرق دون أن تُسرق.. شهيدة الحب تعتصر نبيذ الآه في وحدها.. تؤلمك دون أن تتنفّس.. هو لم يحنّ لأمٍّ يتيمة على ضريح الحياة.

لميا لم تكن الأنثى الاستثنائيّة بل كانت الأم الشهيدة تبكي دونما بكاء.

تعشقينَ الموسيقى حدّ الموت..؟

أعشق أن أعزفكَ حتّى الموت.

يضحَك: أُنثى همجيّة.. أنتِ لا تُشبهين شيئًا.. بريّة.

الّلقاء الأول هو ولادة جميع المواعيد التي تخلق بعده..

لا نحتاج لولادة مئة لقاء لتعبّر الأنثى عن حبِّها.. قابلي الحب دون خوف..!

كيفَ لأُنثى أن تعانق رجلًا من النظرة الأولى..؟

لم يسبق لي أن قابلتُ أنثى كهذه.

يهمسُ لها: أنتِ امرأةٌ أنتفضُ بين حناياها

كعصفور يرتجي الراحة..

وأنا أُنثى لا تهدأ إلا بمعانقتك..

عانقيني إذًا! كانت تنتظر قرنًا آخر لرجل يخطفها من الوهلة الأولى لا يكفيها عمرًا آخر لتستوعب هذا التمازُج الذي خلق من الكلمة الأولى، فهي لا تعلم عن القواعد المفروضة في الحب شيئًا أو عن قواعد المحبّين، ولكن يعنيها جدًّا أن تتوّج في الحب على أنها الشهيدة لا تعنيها الأدوار أو التسابق في الحب لا مباراة يعلن فيها الخاسر ولا ماراثون يتسابق فيه أحد كلّ ما في الأمر هو نشّال محترف يسرق القلوب دون إذن صاحبها، مُقامر ماهر يجهّز المؤامرة يخترع لها

مُصادفةً، ويُوقِعُ اثنين في خضم تفاصيله هي ليست الاستثنائية أو القاعدة الشاذة للحب ولكنّها تبرهن أن الحب قاعدة.

وليس شذوذًا إنّما الشذوذ هو واقع تعيشه تحت وطأة مجتمع لا يعترف بدور العاشقة، ولا يعترف بالمرأة التي لم تمارس الحب، ولو بالخفاء دون علم أحد حتى ناديا وبناتها يقفن أمام الجميع وبأعلى أصواتهنّ ينادين يناصرن الحب.

لم تمارس بعد حرية الحب تحت طائلة الحجز عليهنّ إنّما شذوذهنّ عن واقعهن كان نفيًا دون رجعة .

أربكتهُ لم يعتد بعد على استيعاب أنثى خارجة عن المنطق احمرّت وجنتاه خجلًا وهو يقول: أظنّه اللقاء الثالث أو العاشر لا يهم، ولم أعرف بعد ما اسمك!

اقتربت منه وهمست في أذنه.. حب.

ما اسمك؟

حب وطفلتي التي سألِدُها منك سيكون اسمها مطر.

والطفلة الثانية؟

أيلول..

شدّها إليه بقوة.. أتعلمين يا حب أنك مجنونة ...؟

بحضوركَ أصبحتُ هكذا

وهل تعلمين بأنكِ أثرت غيرة جميع الفتيات هنا..؟

لا ..

وهل تعلمين أنّي الشرقي الوحيد على وجه الخليقة الّذي عانقته فتاة متناسية كبرياء الشرقيّة عانقته أنثى بريّة أجمل من إناث البادية وأجمل من ملكات الشرق؟

أنتِ فينوس في زوايا الشرق العتيق..

أتجعلين مني زيوس..؟

أنتَ زيوس.

جميلة أنتِ... جميلة حدّ الموت وأكثر .

عانقيني.. اشنقيني.. لا تتركيني مذ قرن ونصف وأنا أبحث عن أنثى تتجاوز حدود الإناث، مذ قرن ونصف أحلم بأن أرقد بين حنايا امرأة لا تعرف إلّا الحب.. نقيّة كأنتِ.

مذ ألف عام وأنا مشتّتٌ أرتجي الراحة، والآن وجدهًا، ولن أدعها تهرُب مني.

لم تتركهُ إلا عندما تلّفظ كلمة الراحة، ابتعدت عنه كما يهرب طير بسرعة حملت قيثارهًا المفتتّة التي ضاع جزء منها وبقي منها ما

تحمل أوتاره الستة المتموضعة على خشب طولاني دون أن تنبس بكلمة، زكضت كأنّ شعورًا خفيًّا نبّهها أن تهرب لربّما قيام الساعة قد حان.

تتبّعها .. مشى خلفها .. شعرت بشيءٍ يُلامسها .. صرخت: لا تمشِ خلفي فبعض اللّصوص مجرمون.

وأنا مجرم.

ولكنهم لا يرحمون..

وأنا كذلك..

أرجوك ابتعد لا تُغامِر..!

أنا لها..

أرجوك افعل ما أقول لا تُكابِر..

متى سأراكِ؟

لا أعلم.. إن فكّوا سجني وحرّروني ستراني..

وإن لم أراكِ؟

ستراني.. وداعًا..

وداعًا جعلته يبكي، أربكت السماء معها جلست على حافة الطريق تلتمس الراحة، وكأن ضرًّا مسّ بها أخذت تتنفّس.. تتنهّد

بعمق تقول في ذات سرّها: ما هذا الشعور الذي اعتراني فجأة؟ وكأن مسًّا من الشيطان قد أتاني.. لا يهمّ حلو جميل هو كالقمر.. ولكنّي أظنّه القمر.. أين أنت يا قمر؟

عادت لمكانها المعتاد قبالة القبور ولكن لم يكن من أحد ينتظرها عادت أدراجها لحيِّهم.

شاميّة الخدّين ورديّة العينين.. سواد يغطّيها.. وشاح يرتديها تنظر تخاف النظر تبحث هنا ها هنا ما من شيء حمدت الله أكثر من سبع مئة ألف مرة.

كل شيء كالمُعتاد، لم يتخلخل نظام الكون، لم تتغيّر كينونة الحي.. تسألها لِمَ تأخرتِ؟

لا شيء أمي كنت أنتظر الغروب أحبُّ مشهد الشمس عندما تنسدل خجلة من تبدّل ألوانها فتتماهى مع السماء..

أخاف أن تصيبنا اللعنة لميا..

ممّن!

هناك شعورٌ يُخيفني طفلتي بأن لعنة ستحلّ علينا لربّما المختار قبِل بما تحملين، ولكنه يمقتك جدًّا، إلى متى هذا الحال؟

لا تغيبي عن ناظري ولا تطوّلي جلساتك حتى آلتك اتركيها هنا قبل خروجك.

أمي لِمَ تخافون من كل شيء، ماذا تخفون عنا لَمْ يجب علينا أن نبقى داخل جدران تخنقني، تموّتني، تجعلني أشعر بأنّي أنتمي للقبر، لربما انتمائي له أفضل من هنا، وما أن تلفّظت كلمة القبر حتى بدأ قلبُ والدهّا يخفق مُزيداً من سرعته.

أرجوكم اعتقونا، حرّرونا، أطلقوا العنان لمخيّلتكم قوموا ... قوموا من نومكم وسُباتكم، كفى، مللنا الجاهلية، انظروا حولكم بما تفكرون، حرّكوا عضلات مخيخكم، يكفيه ما نعانيه إلى متى المختار سيخنقنا بترهّلاته..؟ كبرت ولم أعرف والدي، لِمَ تخفونه عني!؟

لم نخفِه إنّما مات ميتة ربك.

أشعر بروحه هنا أتمنى أن آراه... أن أتعرّف تفاصيله، هل أُشبِهُه...؟

هل هو يتنفّس زوايا الحي..؟ أيحب شجرة الزيتون التي أحب؟ هل يخبّي فيه...؟ ضائعة أمي، شعوري بعدم الانتماء يخنقني.

الموسيقى تصيبُ الصلاة لا أكثر.. تهدّئ الروح.. تدلّنا على الطريق.. لا تحرمونا نعمتها .

دخلت غرفتها.. كلّ ما فيها مرتّب بعناية شامية ممزوج بعَبَقٍ يوناني.. على يمين الباب ترى عدة رفوف بعضها مرتبٌ فوق بعضٍ هذا ما يخيّل إليك، ولكن إن أمعنت فيها ستبدو غير ذلك متموضعة

بشكل عشوائي بطريقة لا تؤذي النظر وجميع الأشياء الأخرى التي كانت تزيّن هذه الرفوف نقلت إلى منزل عشيقة المختار ناديا المهجور الذي أخبرها به بأنه منزل جدّتها المتوفّاة

أم والدها.. حيث لم يقربه أحد مذ مغادرتها، علمت فيما بعد بأنه كذب عليها كما كذبة وجودها، فهو لم يكن إلا منزل عشيقته الذي بناه لأجلها، ومن أجل أن تحفظها بأمانتها فيما بعد لأنه لا يثق إلا بناديا.

أم والدتها التي زارتهم مرة في حياتها والتي أعقبت زيارتها زيارة أخ راهشان، وكانت الأخيرة حيث سمح لها أن ترى حفيدتها التي هُيئ لها بأنها تنتمي لها، كان عمرها آنذاك ثلاثة عشر عامًا، مكثت ما يقارب الثلاثة أعوام لديهم، ورثت جميع طباعها، وبعدها تُوفيّت في حضنها، وهي تحكي لها تفاصيل الاحتلال، وهي تغازل شعرها الغجري.

تعوّدت أن تسمع منها دون وعي بما تقول: (أنتِ ثورة متكاملة طفلتي لا ينقصها شيءٌ).

تجيبها: الآن متمردة بكلي وداخلي.

مفردات جدتها المنقوشة على جدران الذاكرة بعربيّة ركيكة محفورة بعناية إلهية، حين سألتها: كيف أنتِ شامية ويقولون عنك باريسية؟ من باريس، جدتي؟

طفلتي ما أظن أنكِ تريدين أن تعرفي عن باريس، المرأة الرمادية هي في حداد ليس مع الموت، وإنّما مع الشؤم الذي يرتديها، هذه بلد تسكن في الطرف البعيد، لن تريها، إنّما هاجت ثارت في ليلة ظلماء وأتت أُعجبت بنسائنا، ثاروا ثورة لا تُحتمل، وعندما أتوا لزيارتنا قبل أن يسرقوا منّا كل شيء، أهدونا أتعس الأشياء، الجهل كما ترين حصيلة النفي الذي تعيشينه، أظنه ثمن سندفعه طيلة حياتنا، وإنني باريسية طفلتي من أب باريسي وأم سورية، تقول أُمي: بأن والدي "أثناء زيارتهم لسرقنا سرقني مني"، نعم فتن بما رآه من جمال.

أذكر حينها قالت: أنّه أخبرها يومًا "من الممكن للإنسان على أرضكم أن يسرق كل شيءٍ منكم حتّى الأرض إلا المرأة عصيّة على أن تُسرق"؛ لهذا لم يستطيعوا المكوث أكثر، فنساؤنا متمرّدات مذ بدء الخليقة ولكنهم سرقوا ثورتنا حتى غدنا متعبات شاحبات الوجوه كما ترين، وحين جاء جدك الفلسطيني منفيًّا إلى أرضنا فُتن فيَّ على حدّ قولهم: "نساؤكم جميلات، من الصعب التخلُّص منهن بسهولة".

قال لي: "إني فُتنت ولا يوجد للمفتون راحٍ إلا حِضن محبوبته".

طفلتي جماله لا يشبه أحدٌ وَرِثْتُ عنه كل شيءٍ، وأكثر ما أحبَّه فيَّ أني أحبُّه. لا تعشقي فلسطينيًّا لأنك ستكبرين، ستهرمين، وأنت تبحثين عنه، هم تائهون بالمصادفة..

ولكنه هو حبيبي، وجد موطنه فيّ فاستقر في روحي.. ربما تتعرفين تقسيمات وطنه، يكتب عن حيفا، يافا، نابلس، غزة، القدس، طولكرم، الخليل، اللّد وغيرها.

إنّي أحب فلسطين جدتي.

تضحك ووطنك؟

روحي فيه، أنا هنا رغم الألم أتنفّس.

ما هذا الذي آراه؟ طفلة تتلو صلاة.. أقسم لو أنّ المختار يسمع ما تتكلّمين لعزلك.. ورماك في تلك الحجرة كمجنونة، لا وطنَ لها.. اقرئي طفلتي في القراءة حرّية.. حياة وعمر طويل، واحمدي الربَّ أنك تقرئين وأنهم سمحو لكِ لولا ذلك لما رأيت النور طيلة حياتك كنساء هذا الحي الفاتنات.. إناث ولدن ليتوّجن على عُهْرِ الرجولة دون أن تمسسهنّ يدُ نجسٍ.. استوحشت هذه الحياة.. أظن لميا أن الربَّ يسمع مناجاتكم، آهاتكم، ولكنه يفسح مجالًا للرحمة لأن الفواحش استفحلت في هذا الحي وأظنّ لو وصلت آهاتكم للسماء السابعة تحتاجون مئة قرن لتُغفر، فأنتِ لا ترين ما يخفى أمام عيونكن.. راهشان والدتك كانت طفلة عندما التقيناها... عندها علا صوت راهشان وهي تصرخ: يكفي أمي.. فتابعت تلك الأخرى... لا أعلم طفلتي كيف يعشن هؤلاء النسوة هنا؟

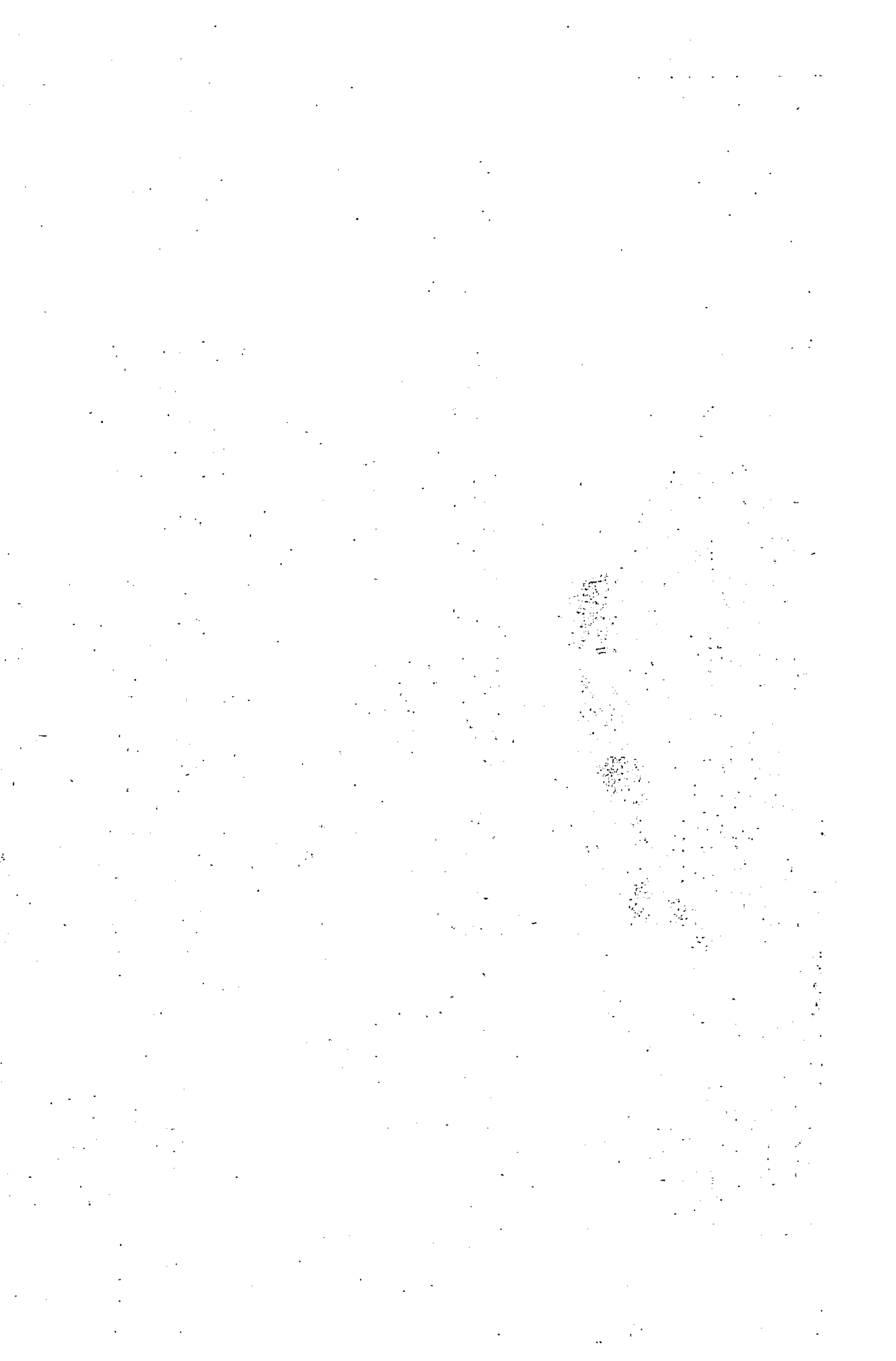
كيف يتحمّلن عذاب رجالهنّ؟ أظن أنّ مسًّا قد أصابهنّ وأعميت عيونهنّ.. ما الحجزُ الذي أصابهنّ؟ ولِمَ الموت يعانقهنّ؟ ولِمَ نظام هذا

المكان مختلفٌ عن الكون بـــأكمله؟ ولِمَ إن جرَّبت واحدة منهنَّ التكلُّم فمصيرها الجنون ومن ثم الموت؟ أنتنّ مخفيّات عن العلن، فالله - جلّ جلاله - لربّما لا يراكم إن لم يسمح له النجس.

غَفَتْ ليا على وقع آخر كلمة عندما أتت والدتها تسأل تلك الأخرى عن كيفيّة إخبارِها بكل ما يجول في بالها... أجابتها الباريسية من حَقٍّ رام أن تعرف أني لستُ أمَّك راهشان وأني وَجدتك يتيمة عند باب منزلي المهجور بالتميمة الزرقاء المنقوش عليها راهشان اليونانية لولا زوجي لما كنتِ رأيت النور، ولولا ذلك لما حظيت بوالد لميت وهو الذي تخلى أبوه عنه دون أن يعلم أحدٌ عن السبب المجهول لربما من اللعنات الواقعة على هذا الحي، ومن اللعنة التي حطّت على صدري مما أتاح الفرصة لزوجي أن يراعاه ويرعاكِ، فأوقعت به غادر بك إلى اليونان على نيّة أن تري أبويك قضى أجل والدته وهي تنتظر رؤيته لولا تيمّنها بأن تراه وعودته دون رؤيتها وأنتِ من حفر له راهشان.

اقتربت تلك الأخرى منها بملامحها الصارمة وصرخت في وجهها أقسم لو أن ليا علمت بنصف ما تتكلّمين لأقتلك وأدفنك بيدي جدة خزامة .

صعقت تلك الأخرى ويدها على قلبِها تتمتم بأن يحفظها الله بحماهُ.



15

(يرتدونَ البَداوة ليخفوا عُهْرَ الرجولة الذي يُلاحِقُهم)

أنا لحبيبي وحبيبي إلي



هي حبيبي تعالَ نرقص الرقصة الأولى قبل الميلاد.. الليلة سيولد ميلاد جديد خاصٌّ بالرقص.. امسكْ يدي.. عانق مرفقي، تعالَ كأول مرة اقتربت منك، همستُ لك بحبيبي، لم أستحِ حينها عانقتُك بقوّة لكثرة ما نعاني من أوهامٍ، تعالَ زيوس.. أرسمك حلمًا لن يسرقه أحدٌ.. حلمًا لن يكون لأحد.

أعلم ما عدت تحبّني تناديني بالغبيّة دومًا لفرط غبائك ليس إلا.. إما أن تحبُ أو تعشق، وبكلتا الحالتين تحترق.. هي المعضلة ليست هو أو ذكورته، فالذكورة شيء عادي؛ لأنها مفروضة ولكن المعركة الأساسية هي لُعبة الإناث وخُبث الرجال.. هكذا بدأت تشي لنفسها عنه.

هي لميا اغتيلت بين أحضان واقع لا تُطيقه اختارها واقع لا تعرفه.. ورجولته فهي رجولة فاحشة تخشى البراءة.. هم يتلاعبون

على براءة النساء.. لا يوجد امرأة ساذجة أو غبية أو حتى أنها عاشقة سيّئة الحظ.. هذه المخلوقة المعجونة العجيبة.

مَنْ يَراها للوهلة الأولى ربما يأخذ الحب انطباع الانكسار، يخشى أن تحيله هامشا على حافة الطريق..

تعيش الأنثى في مجتمع ذكوري تحلم فيه كل أنثى ببدوي، ولكنّهم يرتدون البداوة ليخفوا وراءهم عُهْرَ الرجولة الذي يدنّسهم. يسرقها خيالها الجهنّمي أبعد من واقعها لتُعانقَ براءة إناثهم...

لقد ماتت... استيقظ الجميع على نُباح صوتٍ ينادي: ماتت.. ماتت الأنثى الثالثة من أجمل نساء الخليقة والحبل عالجرّار.

استيقظت ليا على هذا الصوت بغد الليلة الكئيبة التي أمضتها في منزل قدّيسة حيث كانت تجهش بالبكاء تنادي دون مجيبٍ.

سألت: ما هذا النحيب أمي؟ من مات..؟ في بداية الأمر لم تُجبها.. ألحّت عليها مَنْ مات أمي؟

لِمَ هذا الحي الكئيب لا يُلامِسُ إلا الموت..؟

أجابتها: لقد ماتت.. ربّما هذا أفضل لها.

مَنْ مات؟

قديسة..

لم تستوعب ما قالت حملت رداءها و ركضت..

استيقظ كل نائمٍ على أثر صوت أمها تنادي كمرأة لم تفقد شهيدها، إنّما امرأة تنتحب على فقيدة.. كان نحيبًا محرومًا محمولًا بغصّة إثر المشهد الذي رأت فيه طفلتها مغطّاة بالدماء على أرض المطبخ الذي تلوّن بالدم.. كان لون حجارته شاحبًا حدَّ الملال، ودماؤها زيّنت هذا الرماد الذي غطّاها أكثر من عشرين عامًا أو أقل بقليل.. دفنها أباها في المكان ذاته دون صلاة، على حدّ قوله لا صلاة على مَنْ أنهت حياتها بيديها، اللّعنة عليها.. لكم أشتهي أن أقطع رأسها بيدي وأعلّقه أمامي كلّما استيقظت أبصق عليها، لعنتني هذه الوقحة..

وهو يقول كلماته ظهرت ابتسامة فاترة تزيّن وجهها.. صُعِقَ الجميع من هذا المشهد ظنًّا منهم أنها عادت للحياة.. لكنّها لن تعود، قطعت رقبتها بسكينتها الحادة التي كانت سترثُها من أمّها التي ورثتها عن جدتها توارثوها على مدى أكثر من تسعين عامًا إلى أن دفنت مع قاتلتها..

ذُهِلَ الجميع من سكّينة تغرس في منتصف العنق تعانقها برفق متلوّاة..

تلاسن الجميع مَنْ قتلَها؟ لا يُعقل أن تقتل نفسَها.. لم يتوقعوا موتَها بعد عودتها للحياة من نومٍ يُشبِهُ الموت ثلاثة أشهر..

همسَت لميا أمام الجميع وهي تبكي، اختارت أن تختار زفافَها بطريقتِها على أن تنكح مُرغمةً برجل لم ترَه يومًا.. أبعدوا العاشق وألبسوها رداء الفضيلة لتتستّر من رذيلتهم .. اختار أن يعتنق الدين الاسلامي وأن يتزوجها فرفضوه..

الحُجة لم تكن في ديانته، وإنما من التركيبة التي يُخضعون لها النساء، أن تتزوج من أقاربها من رجل يعرفوه على أن تتزوج برجلٍ هو شبّ معها، لكنّها لم تتعرف إليه إلا مرةً في حياتها..

صرخ الشيخ في وجهها: وقاحتك تجاوزت حدود حيّنا..

حينها ردّت: أترون شيخكم المبجّل كذبه شقّ عنان السماء هو الذي يدعو للتأدّب والابتعاد عن الكلام الفاحش واحترام النساء، أليس هذا ما وصّى به الرسول الكريم

أحملتمونا كلامكم على ظهورِنا ومرّرتموه على رِقابنا إلى أن جعلتم منّا عاريات؟ عاريات من كل كلمة لها الحق بالتفكير.. أعريتم أذهاننا بكلمة هكذا تربّينا.. هكذا قال أبي، وهذا ما يقول جدي، وهذا هو الصحيح.. أصحيح أن نبتعد عن كل شائبة، منعتم عن نسائنا الكتُب رميتموها وحرقتموها وأعلنتم جهلنا للعلن..

لم تسكتها إلا ضربة على وجهِها كادت تُوقعُها أرضًا عندما همسوا لا يُعقل أن يفقد الشيخ صوابَه ويتطاول على فتاة.. سمع المختار ما جرى وقال: إن هذه الفتاة تضرّنا تتفوّه بأشياء ستفسد نساءنا.

16

(كيتيمةٍ وُلِدَت ودُفِنَت دون وطنٍ)



تسعون يومًا سقطت فيها النساء بعُزلة بعيدات عن المارّة، خائفات من التالية، حتى ليا لم تغادر المنزل مذ ثلاثين يومًا لم تحتمل أكثر .. أكّد الطبيب المشرف الذي استعان به المختار والسيدة الكبرى الذي تأتيه ببراميل من الحليب وبالفتيات اللواتي يغدقن عليه حبًّا على موت قديسة أنها هي من قتلت نفسها.

ردّ والدها: الله لا يرحمها..

كانت تهمس ليا: قتلت نفسها بالسكّينة ذاتها ودفنت معها أيعقل؟ كانت تقول لي: إني بهذه سأموت وبأن جدتها أهدتها لوالدتها توارثوها ولا تعطى إلا للفتاة البكر و لكنها السابعة من بين أخواتها ، ما كان قصد الجدّة الأكبر التي أهدتهم إياها.. أيعقل؟ كانت تريد أن تقول: تمردوا على هذا العُرف أم كان قصدها أن تُحملها واحدة كالتي قتلت زوجها متمرّدة على عُرف الذكورة .. لأنّها تزوّجت مُرغمةً بأخيه الذي يصغرها بإحدى عشرة عام، لم يشعر الجميع إلا

وهم في وَضَحِ النهار، صُراخ الكون اقشعرّت له الأبدان على أن امرأة قطعت قضيب رجلها.

فدفنها أهل المتزوج حيّة وأسكت على الأمر ، لم يستطع أي واحد من أبناء العائلة الشاهدين على الحادثة إفشاء الشائنة التي تعتبر بالنسبة لهم لا تُغتفر..

حتى أطفالها الثلاثة الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة ماتوا في حريقٍ لم يُكتشف بعد سببُه

ولم يبقَ إلا الطفل الأصغر من بينهم والذي فقد عقله .. جنّ إثر الحريق الذي شبّ في منزلهم فأخذته الجدة الأصغر خديجة والدة المجني عليه قبل موتها بستّين يومًا التي ماتت ميتة ربها لم ترث قديسة منها إلاّ قامتها الممشوقة وتمرّدها اللا علني ..

حتّى أن قديسة كما قالت: "علمت بالقصة من والدتها التي كانت تهمس لأختها عن حُزنها الشديد على نشوء الطفل دون أبوين وسمعت والدتها وهي تحمد الله على أنه جنّ بدل أن يكتشف جريمة والدته وموتها أمام الملأ وهي على قيد الحياة.."

قبل موتها أتت واحدة من نساء المتوفي والتي كانت خالة قديسة الشركسية سارة نسبة إلى زوجها الشركسي فلاحق اسمها بالشركسية حتى بعد وفاتها ، بصقت في منتصف وجهها وهي تخبرها: إن ذهبتُ إلى الجنة ورأيتك هناك فسآخذك بيدي للجحيم أيتها الفاجرة..

وتلك الأخرى ردّت عليها: "الجحيم هناكِ أرحم من جحيمكم.. ادفنوني... هنا سأنام بسلامٍ."

أيعقل أن الجدّة خديجة الّتي كانت كلمتها تمثل لهم مئة رجل عندما تلفّظتها ولكن القلائل اللواتيَ كنّ يسمعن تنهدّات صوتها هذا ما كانت توصي به أحفادُها المتوارثون ؟ أن يقطعن قضيب الرجل ويتمرّدن بكل ما أُوتينَ من قوة.

حملت نساء الحي وشاحًا أبيض يردن أن يغطين جسدها.. عندما صرخ: ادفنوها حيث ماتت دون صلاة .. حرّم الله على جسدها الجنة.

ستدفن دون صلاة.. سيعلن موتها دون نعوة.

صُعِقَ الجميع بما سمعوا.. ك تيمة وُلِدَت ودُفِنت دون وطن.



17

(يُولَدُ الحبُّ فينا في اللحظة التي يُباغِتُنا فيها الواقع).



هل أراه مرةً أخرى؟ أم أن المصادفة تستحيل عتمة فيتلاشى معها كل شيء.. لكنّه قبل مُغادرته كان قد سألني..؟

إن كان سيراني مرّة أخرى..؟

أظنُّ أن الجُميلون كهو يستحقون الحياة.

تعوّد أن ينتظرها.. أن تأتيه عندما تراه وتبتسم.. وهو يضحك..

يقول لها: تعالي يا حب واقتلي ما بقي مني فبعدك الموت مؤكّد.

يقول في ذات سرّه: كم هي جميلة! جمالها صعب الإدراك.. تمتلك أنوثة طاغية ياسمينة لم أرَ لها مثيلًا.. منحوتة يونانية.. غريبة التفاصيل رغم الرداء اللّيلي الذي ترتديه، أظن أنّي رأيت كل ما هو تحته من جمالٍ عاجيٍّ..

قرأتُ في عينيها حُزنٍ.. حزن يتيم.. أهي يتيمة..؟ ولكن كل ما فيها ينبيء بشيء اسمه الفرح.. اسمها حب.

أول حب يغتالني بطريقة راقية.. صافية لا عبث فيها.. هادئة قريبة من الملائكية .. كيف هي أصابع قدميها، هل تشبه يديها الخرافيّتين.. أظنّها كلها بما فيها خُرافية.

لا أظنّ أنها لن تأتي، لديّ شعور يلامسني كأنّها فَراشة ستأتي.. أنا عاشق لا حظّ له ولكنّي معها أراها دنيا تضحك لي.. يكفيني النظر لعينيها، عنقها، خصلات شعرها، ويديها لترى هذا الكون من حولك ياسمينة... نعم فيها جميع صفات الياسمين هي كل النساء في أنثى.

سبع ليالٍ وأنا لم أعرف فيها النوم.. أيعقل أنّها لن تأتي..؟ أيعقل أنها نائمة..؟ أظنها لا تنام، ملائكية هي ... همتُ في تفاصيلها ... أيعقل أن يستحي الرجل النظر للنساء لمجرد عِناق أنثى؟

ولكنّه أحيانًا يغدو عِناق أنثى كفيلًا بإحالة جميع النساء على قائمة النسيان.

دقّت الساعة الثالثة والنصف وعلى الجميع التوجّه لغرفة الموسيقى حيث تتربّع الآلات برشاقة بأيدي الموسقيين بتناغم هيستيري حيث سيتم تنسيق معزوفة باخ لتتناغم على صدى آلاتهم ودمجها معهم بأغنية لفيروز... كيف يمكن للموسيقى أن تتربع على عرش الألوهيّة في صوت فيروز وحضور باخ من صوت الآلات...!! ولكنّها هي لم

تختر آلتها مصادفة عندما حملتها هي الآلة التي اختارتها، و لعل البدوية التي مرت بها كانت على صواب حينما أهدتها إياه ولكن دون علمها بما ستؤول إليه.. عند دخول الأخير كانت هي خلفه تهمّ بالدخول عندما سرقها من يَدِها،

شدّها للزاوية التي تقع مُحاذيةً لغرفة الموسيقى.. عندما قال لها: اشتقتُ إليك..

همست: وأنا.

أين كنتِ..؟

في جنازة مع الموت.. سأحكي لك تفاصيلها فيما بعد.. الفتاة الثالثة من فتيات حيّنا قد انتحرت..

وهل فتياتكم متمرّدات لينتحرن..

إنهنّ مجنونات.

وأنتِ..؟

أظنّ بأنّي سأكون الرابعة، لأني أعتقد أن بعد الحب الموت بإذن الله.

لا تتفوّهي بأي كلمة أخرى، مجنونة..

بكَ ...

كيف حالكِ الآن؟

لا تسألني عن حالي وأنا معك دائما بخير .

وأنتَ ...؟

أنا طفل تائه دونكِ.. كدت أجنّ..

تكلّمي لا تصمتي، أرجوكِ فبعضُ الكلام منكِ يُخرجني مما أنا فيه..

أتذهبين ..؟

أذهب للموت معك ..!

لم تسأله إلى أين وكأنها ندرت حياتها لمجهول.. طفلة هي لا تفكر بالخبث الّذي يعتلي جدران الخيبات.. الحب لديها كل شيء من لا شيء.

سآخذكِ إلى مكان لا يعرفه إلا الله..

تقول في ذات سرِها و هي تحدِّقُ به: أشعر كأنه مغناطيس سرقني مني..

أنا برفقة رجل.. أقسم لو أن أحدًا من الرجال الذين يتتبعون خطواتي رأوني لقتلوني أمام عينيه.. أحمد الله بأن الطبيعة تعطيهم فرصة

الانتظار دون عودة.. الحمد لله على نعمة الموسيقى التي تخرجنا من داء الواقع لنداء الحب.

مشوا من الطريق المعاكس لحجرة الموسيقى على الطريق المقابل للطريق العام.. من النادر أن ترى أحدًا يمشي هنا .. مكان مهجور لم تطأهُ قدمُ بشر مذ ما يقارب الألفين عام.. أبنية مصفوفة بطريقة تثير النظر.. رائحة العتيق تعانقهم..

تنهّدت: توقّف قليلًا.

ما بكِ..؟

أغمضت عينيها.. تنفّست بهدوء..

همست: أشعر كأني وُلِدْتُ هنا.. هنا روحي هذا ما يخيّل إليّ كأني أنتمي لهذه الحجارة أكثر من انتمائي لأيٍّ مكانٍ آخر.. أكثر من انتمائي لوالدي.. هذه الرائحة تخرج من روحي تعانقني.. تعانقك.. أتشعر..؟

يااااه! أنا أشعر فيكِ تتغلغلين في روحي على عرش الروح ساكنة يا حب.

كل بناء مبني على الطراز القديم تسكنه حجارة ليست مطلية وبعض وريقات الياسمين تتدلّى من الأعلى لتُعانق الحبق بخجل.. الحبق لا جالس ولا واقف، ولكنه متدلٌّ وكأنه نائم ينتظر محبوبته متكبر

على الياسمين التي تعانقه بقوة تُوقِظُه بين الفينة والأخرى اشتقتُ إليكَ.. هذا الشيء ليس نادر الحدوث وإنما لا حدوث له إلا على أرض الياسمين.. من الجهة اليُمنى ترى انعكاس المرآة اليُسرى لترى المكان الذي تغزلت به عيناك هو ذاته على الطرف الآخر يكحّل النظر.. كل بناء مبني بطريقة مخالفة للأخرى للخروج عن نمط التَّشابُه من الاختلاف يخلق الحب.

أنتَ حبقي..

و أنتِ الياسمين.

رائحتكَ معتّقة كرائحة الحبق..

وأنتِ ياسمينة نادرة الوجود..

أيحدث أن أغازلكَ..؟

نعم، يحدث أن أنام على دفء صوتكِ.

أنتَ حلو كالشمس..

يضحك..

مفرداتكِ صافية نقية كأطفال الحارات الذين أقابلهم..

نعم: أنا يتيمة أشحذُ الحب..

أنا رجل مُرْهق.. لم يرَ الراحة بين حنايا صدركِ أجدها .

الهدوء الذي يُعانِقُ هذه الأبنية يشبه هدوء الكنيسة التي في حيّنا.

عن أي حيّ تتكلمين..؟

عن الحي الذي أعيش فيه..

أنتِ تعيشين في..

أعيش في حي إناثه يعلنون انتحارهم عن الحياة.. حيّنا منفي عن هذا الواقع.. هذا الزمان الذي أنت فيه يختلف عن زماني.. ممنوع دخول الغرباء لا يُسمح إلا لبعض من الناس الذين يأتون ويخرجون كما يدخلون.. خائبين وأحيانًا أخرى يأتون ليروا جمال فتياتنا المخفي للعيان طالبين إحداهنّ للزواج، ولكن ينتهي بهم الأمر بالرفض بحُجّة أنهم لا يملكون خمس سبائك تُضاهي جمالنا.. فالجمال في حيّنا هو العبادة كلها.

أظن أن لا جميلة بعدك.. فأنت منحوتة بعناية فائقة.

ربما لأني أُشْبِه جدَّتي الباريسية.

لديك رائحة صعبة التمييز وكأنكِ معجونة من جميع الروائح شيء من الخزام والنارنج، وفيكِ الكثير من الياسمين المعجون بالكافور والمرمر... ارتبكت إثر الكلمات التي سرقها منها إليه.

ألا يمكنني أن أدخل حيّكم..؟

سيقتلونك.. كل من يحاول الدخول عليه أن يُحضِر بيانًا عن أصلِه، وإن كان المختار يعرف أحدهم، والسبب لمجيئك سيسمح، وما عدا ذلك سيقتلك دون رحمة.

على ما أظن أنتِ تعيشين حياة معقدة إلى الحد الذي يقلق.

ألم تفكري بالهرب...؟

أنا لا أهرب إلا لحضن أمي وبعده أتوه.

من سمّاك حبًّا..؟

أنتَ.. عندما رأيتك شعرت بأن اسمي حب يغدو أجمل.

يضحك، ما اسمك إذا؟

لميا..

لم تسأله عن اسمه.. وأنا.. قبل أن ينطق باسمه كانت قد أجابته: أحمد

ذُهِلَ .. كيف علمت..؟

قلتَ لي قبلًا أنّي لا أُشابِهُ أحدًا..

وما زلتُ عند كلماتي..

إذ أنه لا يعلم بأنها اختلست ورقة مكتوبًا عليها اسمه كانت قد مررت سهوًا من يديه لصديقه عندما قرأت فيها...

"للرجل الذي يعانق الآلة أكثر من أرضه للسماء حق علينا بأن نشكرها... نشكرك ."كان صوت صديقه قد سبقه عندما ناداه وهو ينظر إليها، فكانت الورقة الصفراء هي دليلها. كانوا يشكرون الأقصى الذي حمل رجلًا غريب الأطوار لأرض الياسمين، علمت من كلمات صديقه الأخيرة التي قال فيها فلسطين بأكملها ستزفّ عروسًا على أرض ياسمينكم وإني للياسمين أنحني.. تساءلت: أهو فلسطيني؟ قرأت عنها كثيرًا ... جدي ... هو والمصادفات ..؟

وأنا؟

أجابته: فلسطيني.

تحرّيت عني جيدًا..

لم أتحرَّ كل شيء أتاني مصادفةً..

أجابها: الأموي والأقصى..

أترين كيف جهّز لي الله طاولة الحب..؟ خلقها الرب لأتمتّع بجمال ما خلق ولأمضي حياتي كلها فارغًا من كل شيء عداكِ.

أنا متعب.. متعب لميا، غدا هذا الواقع كرحم امرأة لا يرحم، وأنتِ خرجت لي من العتمة، أرى فيك نورًا لم أشعر به من قبل..

إن صرتُ فراشةً على خدِّك ماذا يحدث؟ دعيني أستوعب كلماتكِ، فأنا أحيانًا في صدى صوتك عصفور ينتفض فرحا.. أحتاج

مئة عام لأستوعب ما تقولين.. لديكِ سحر خاصٌ يربك. حتى ضحكتك تثير بي كل شيء، تثير بي نداء الحب..

سيغدو هذا العالم أجمل لو تبتعد قليلًا عن شعور الحزن الذي يزيّن هالاتك..

سببها أني لم أرَ السعادة مذ رأيتُ الدنيا، ولكنّي الآن ولِدتُ من جديد.. هذا السواد يخنقني لو أنكِ تلمسينهُ ليهدأ..

خافي الله واحضنيني..

أخاف أن تلعنك الملائكة وتحرمنا من لقائنا بعد الموت..

ألا تخافي ان يلعنك الله لأنكِ تحرمين طفلًا من أن يرتاح لضمَّة أمِّه.

أثر ذاك العِناق يجري في أنفاسي لا يزول..

كان خارج إرادتي، خارج حدود العقل، مذ أن رأيتكَ وكأنكَ منجم سرقني مني..

وماذا تفعلين بعاشق يغدو ميت عند قدميك يستنجد الراحة..؟

أهديه روحي..

..بضع خطوات وسنكون في الجنة

إنّني أراها من هنا..

هذه ليست إلا سماء أولى..

والجنة في أي سماء..؟ أظنها مُتدرجةً بين السابعة والسادسة

لو تخلق لنا سماء ثامنة يكون اسمها مطر أو أيلول.

يجيبها: ربما حب.

الحب ينضج فينا قبل أن ننضج فيه.. يستوعبنا بالقَدْرِ الذي نستحق العناية منه.. يغدو طفلًا.. تغدو فراشة من فرط الحب تنسى أن تُكابِر!

تخلق لغة خاصة بالعِشق.. تجاوزت جميع القواعد المباحة.. تجاوزت حدوده.. أنثى طاغية تجاوزت حزنه الذي يسرقه من لحظات الفرح..

توقف برهة.. أمالت إليه بنظرة خاطفة..

لم توقفت..؟

أغمضي عينيكِ..

لم تتعود إن طلب منها شيئًا أن تسأله عن السبب..

أغمضتهما منتظرة إشارة منه..

أمسكها من معصم يدها اليمنى: لا تفتحيهما..

أقسم أني لن أفتحهما

تعالي معي فأنا مرشدك..

هذا المكان لا يليق إلا بملاكٍ كأنتِ

هذه الجنة وأنت ملائكتها.. افتحيهما..

قبل أن تفتحهما تجيبه: أنتَ أيلولي الجميل.

الجمال يغدو فقيرًا بحضرتكِ.

وأنا أغدو يتيمةً دونكَ

فتحتهما.. صُعقت.. ذُهلت.. رباااه! ما هذا الجمال! أظن أن جمال الطبيعة يطغى على جمال البشر.. هذه جنة. الأرض الممتدة على بعد النظر خضراء لا لعب فيها.. صافية.. لا تمويه.. فراشات يحلّقن فوق هذا الخضار ما يفصل بين الأشجار الصنوبرية المحيطة بهما واللوحة المقابلة لهما هو نهر ممزوج بالأخضر والأزرق مموّج بالأصفر، يراقب النهر بعضٌ من أشجار السِّنديان منتصبة على أطرافه في منتصفه أعشاش من الطيور بألوان مختلفة تستقر بصمت، حركة خفيفة من طرف يدها كانت كفيلة بتحريك سراديب منها، وكأنها استجابت لنداء صوتِها لتحوّل هذا المشهد لحلم جنملائيكي..

أين كانت مُخبَّأةً؟

في روحي.

لا شيء يُعكّر صفوها تجذب النظر.. انظر كم هي هادئة تتحرّك بتناغُمٍ موسيقي يتلاعب بنوتاها أشهر فنان على وجه البسيطة.

إنه الله.

انظر أحمد للفراشات كم هنّ جريئات يقفن بكل ما أوتينَ من قوة على عين الزهرة إني أرى روحها.. ودقات قلبها.. للكون موسيقى خاصة لا تسمعها إلا الروح.. ألم تسمعها يومًا؟

فقط أغمض عينيك وانعم بهدوء ربّاني لا تفكر بشيء، اسمع لتناغم العصافير، لهديل الحمام، لحركة الطيور، وتناغُم الأزهار مع تموّج هدير النهر، اسمع لتراقُص حفيف الأشجار، صوت المزامير البعيدة صوت الباعة المتجولين مع بعضهم البعض جميعًا صوت ضحكة الأطفال صوت الكرة التي تدوي بالمارة، جميعها تؤلف موسيقى الكون.

مجرد الصمت لخمس دقائق وأنت مُغمض عينيك تجعلك تفهم معنى الكون تجعلك تسمع موسيقى الكون.

هو في ذات سِرِّه كان يعلم بكل ما باحت به، ولكنّه لم يُرِدْ أن يُشعِرَها بأنه في حضرتِها الموسيقى تتماهى أمام عُذوبة صَوتِها.

لم يخطر في ذهني يومًا أن أغمض عيني وأنا بقلب الطبيعة لأسمع هذه الموسيقى الخالية من أنفاس المنافقين.. أشتهي أن أنام هنا.

تعالَ أحمد.. استلقِ هنا قُربي.

هنا ...!

نعم فوق الطبيعة سنرقص ...

أمسكت شالها بيديها، لفّته حول جِيدِها، ألقت بجسدها بنعومةٍ طاغيةٍ على ماهية العشب، واستلقت بهدوء هو الآخر يضحك مجنونة أنتِ..

تعالَ لا تُضيّع الوقت .. تعالَ لترى كم السماء جميلة! هو الآخر بدورِهِ امتدّ قُربها طاغيًا على العُشب تحت السماء.. هما الاثنان بتناغُم يفوق الطبيعة..

أترى أحمد، كم السماء جميلة!

يهمس بصوتٍ شِبْه مسموعٍ.. جميلة جدًّا..

صافية جدًّا..

أتظن أن السماء تخلّد الحب حتّى أنّها صافية..؟

ألا ترين كم هي هادئة لرؤيتنا..؟

أتعلم لو أن ملكة غيري احتلّت قلبك لقتلتها

هههههه بحياة ربك بتكتليها..؟

نعم أقتلها، ولن يكتبوا بأني مجرمة؛ لأنهم لا يعترفون بجُرم العُشاق، بل يبرّؤونهم أتعلم أني عاشقة غذاء الروح.. حتى أنها أقوى من الحبِّ بحدّ ذاته.. أنت ساكن روحي، وما أتنفّسه هو روحك، لن يستطيع ولا أي عالم بالتاريخ أن يحل هذه المعضلة.. معضلة الروح داخل الروح تتنفّس وإن غاب الجسد تتنهّد الروح مُشتاقة إلى أنيسها.

هو يستمع لكلامها بصمتٍ يُطالِعُ السماء.. لم يصدر عليه أي تغيير لربما كاد يبكي ولكنه يُكابِر..

بغفوة طفلة قبّلته دونما وعيٍّ منها، داعبته كما تُداعِبُ طفلةٌ ألعابها.. هو لم يكترث للطفلة بقدر اهتمامه لعشوائيّتها البريئة جَمُدَ إثر ما قامت به.. بقي مدهوشًا ما يقارِبُ الأربع عشرة دقيقة ليستوعب ما قامت به.. طفلة أثارت فيه كل هذا الجنون.. في ذات نفسه كان يقول: ككهف مهجور مذ ما يقارِب الأحد عشر عامًا، لم يقربني ملاكٌ وهأنا هنا في حِضن الجنة أنام.. دون استئذان أخذها بين يديه وغاب بها.. شدّها إليهِ برفقٍ وهو يهمس لها: أتحبينني مجنونتي؟ ظلّ على هذه الحال عشرين دقيقة .. همست بعذوبة صوتها الرقيق وكأنها نفخت في أذنه لم يسمع إلا حفيف الطبيعة يجيبه.. نعم عصفوري..

أُعيديها..؟

نعم عصفووووري...

أُعيديها برِفقٍ أرجوكِ.. أنا أطمع بالكثير ملاكي..؟

اقتربت من أذنه اليسرى واصلت تنهيدها لارتعاش جسدِه الذي أهلكه التعب... نعععععم عصصصفووورري..

في كل مرّة كان يسمع بها كلمة عصفوري كان يشدُّها إليه وهو يقول: أرجوكِ اقتربي أكثر، أحتاج أن أغيب عن الوجود، ولو متّ هنا لا أبالي.. تابَعَ شهوته الجهنمية بأنه عاد لجيدها .. أمسك بها بكلتا يديهِ وكأنّه يعيد تركيبها على طريقته قبلها ما يقارب العشرين مرةً وغاب في تقبيل شحمة أذنها اليسرى.. وهو يهمس طفلتي أنتِ جميلة، أخاف أن أقترب أكثر فأؤذيك.. شعر ببرودة جسدها وتنهّداتها .. أبعدها وكأنها غابت عن هذا الوجود.. هزّها ثلاث مراتٍ دون أن يسمع لها صوتًا... أعاد الكرّة خمس مرّات قبل أطرافَ أصابعها اليُسرى، وبعدها اليُمنى وهو يهمس: أرجوكِ لا تحرميني نعمة الحياة، سقطت من عينه دمعة على طرف عنقها فشعر بها تحركت..

تنهّد وهو يبكي... ما بكِ.. أنا أمام الطهارة أموت... رجل سيئ جدًّا و أنتِ أطهر من الملائكة ملاكي.. اعذريني فخبث الحياة هو الذي جعلني هكذا... تكلّمي لا تنظري إليّ بصمت..

تعالَ ونَمْ قُربي هنا، وجوهُنا للسماء...

أتعلمين ماذا؟

كيف يعيش الناس بلا حُبٍّ وأنا مذ رأيتُك كأني ملكتُ حبَّ كرة أرضية كاملة.. كأني طفلٌ أحيانًا أتوه دونكِ..

احضنيني، فمنكِ لا أشبع، أشتهي في كلّ معانقة مئة عناق مُتتالٍ كاذبٍ نافَقَ مَنْ قال أن إحدى عشرة دقيقة كافية لإنجاز الحب، معك

أحتاج أحد عشر قرن لأبدأ الحب.. أنتِ قُربي وأُكثِرُ من تقبيلك لا أجرؤ أن أؤذيكِ، لم أتخيل في كل حياتي أن أحميكِ عن شهوة ذاتي.. احضنيني..

تعود كلما قال لها، احضنيني، أن تُغني له، أن تهدهد لحاله، تسكّن أوجاعه، يغدو الغِناء أحيانًا مخدِّرًا مجانيًّا لأوجاعنا...

كلّما غنّت له كان يمتزج دمع عينيه مع ضحكته ويتنهّد قائلًا: آه يا مخيلتي! آه يا ممتزجة السعادة مع الحزن، أنتِ مزيج موسيقى كاملة، سأعزف عليها جميع نوتاتي.

أتتخيل أنه سيحدث هذا يومًا..؟

أجابها: لميا انظري إلى عيني..

مالت على طرف جسدها، هو الآخر فعل مثلها، وتقابلت عيناه مع عينيها، التقيا في خطٍّ مستقيمٍ، وكأنما لن يجدا نقطة يتوحدان داخلها .

أصغي لي جيدًا: خُلقت روحي لكِ إن كنتُ لكِ فسأكون وإن لم أكن لكِ فأنا لكِ يا أنا.

وأنتَ خُلقتَ فيَّ أتنفّسكَ من بين خصلات شعري، أنا آلهة الغرام خلقت على يديك.

أعاد جسديهما بحركة مائلة لوضعهما الأول محدّقين بالسماء..

أحمد هل سيفارقك الحزن ونعيش معًا؟ أم أن الحب في موطننا تعيس؟ حزين؟ زرعوه في أرض قاحلة صعبة الإنبات.

لميا أنتِ الفرح ولا حزن لديَّ.. أنتِ كلّ الحُب.

أحمد، هل سيسمحون لقصّة عشقنا أن تعيش..؟

ومن يتجرّأ على ذبح حبٍّ بريء..؟

ولكني أعيش في حيٍّ لا يعترف بالبراءة حتى..

ولكن يا أنا إن لم يعترفوا بنا سأخطفكِ.. سأقوم بالخطيئة..

بدأت تبكي دون صوتٍ.. تنبّهَ لصمتها المفاجئ عندما رآها تبكي..

لِمَ تبكين؟

ألا ترى كم السماء جميلة..؟

أعشقها يخطر لي لو أن بيتنا هناك، ومن كلا الجانبين ملائكة تحمينا..

كانت تقول كلماتها دومًا دون وعيٍ منها، لم تدرِ يومًا أن الواقع سيهديها وابلًا من الخيبات، ولم تكن تعلم بغدرِه ولكن إحساسها بالخوف كان دومًا يُراوِدُها أن شيئًا سيُحيلُها صفرًا على هامش الواقع..

استلقِ أحمد وانظرْ للسماء تخيّل كم نحن أبرياء!

عاد لحاله دون صوتٍ وبعد خمس عشر دقيقة بدأ هو الآخر ببكاء محمول بألم..

لِمَ البكاء أحمد...؟

لا أعلم، ولكأن أحدًا ما يقول لي: أن السماء تنتظر دمع عيني..

أنتَ مطري وسمائي، دونكَ في اضمحلال دائم.

18

رخاءٌ سرمديٌّ



هنا روحي علقت بين جدران الياسمين

لِمَ لا تتصلين وتسألين عن حال زوجك..؟ على غيرِ العادة صار له ثلاثة أيام دون صوت منه لم يعوِ، أيعقل أنّه غيّر عادته..؟

لا أظن فِنادرًا ما تغيّر الكلاب الذين يكونون على حسب صِنفه عاداتهم..

أ وجودي ثقيل لهذه الدرجة..؟

لا تتفوّهي بهذه الكلمات، تحمّلت بأسك سبعة أعوام مضاف إليها ثلاثة ولا علم لي كم سأضيف فوقهما لولا آدم الذي انتشلك مني لكنت من بين فتياتي الثماني عشرة، وكنتِ الآن لا تعرفين في حِضن أي رجل تنامين وتستيقظين ولكن هي حكمة الله أوصلتك إلي لتأمني حياة جيّدة عند آدم ...

ولكن وجودك أحيانًا يعوق عملي.. أنتِ تعلمين أحيانًا أُخفِض صوتي رأفة بك، لم يسبق لي أن مارست هذا الشيء بهذه الطريقة، وأضطرّ أن أدخل بالرجل الذي يأتي لحجرتي بالعادة نحتسي كوبًا من القهوة قبل خلوتنا للعمل..

أتظنين أن ما تقومين به عمل..؟

نعم بالتأكيد، وأشرُفُ من العمل بحدّ ذاته يكفي أنّي آكل من عَرَقِ جبيني.

لا أسرق ولا أنهب ولا أخون الوطن ولا أيتّم الأطفال أو أسرق عُهْرَ الرجولة، كل ما في الأمر أقضي عملي وأتقاضى مقابله نقودًا تكفيني أن أسدّ رَمَقَ عيشي.

ألم تفكري بإنجاب طفلٍ بعد..؟

كنتُ أحلم دائمًا بأن يكون لديَّ طفلةٌ وأحيانًا كنتُ أحلم باثنتين واحدة اسمها مطر والأخرى أيلول..

والآن ألم تعودي تحلمين..؟

يكفيني أن أنجب ذاتي أولًا لأفكر بأن أنجب خرابًا آخر لهذا العالم، وما أن تلفّظت كلمتها الأخيرة حتى بدأت بالبكاء..

لِمَ البكاء لميا..؟

أظنّ بأنّ عقلك انتهت صلاحيّته، بدأتِ تتفوّهين بكلماتٍ لا معنى لها، ومن ثم تبكين دون سببٍ، ما هي إلا ثوانٍ وبدأ جرس الباب يرنّ.. يرمق ناديا بنظراته المحببة وكأنّه يقول لها: متى لقاؤنا..؟

تجيبه بإيماءةٍ لطيفة مع تمايُل جزءٍ من جسدِها، أأناديها أم تتفضل...؟

يظهر أتكيته المرهف، لا أريد أن أشغلكِ، فقد ناديها لو تفضّلتِ سيدتي..؟

تدخل ناديا مرهفةً كم هو أنيق زوجكِ..؟

نعم فقد مع أمثالك عزيزتي..

ماذا تقصدين..؟

لا شيء، وماذا يريد..؟

هي الأخرى فهمت ما تقول، ولكنّها لم تُعِرْها اهتمامًا لأنها في قرارة نفسها تعلم أنها ستقضي أجمل يومٍ لها معهُ هذا إن ما قضته بالفعل.

يريد أن تخرجي، فهو آتٍ ليأخذكِ.

أخبريه بضع ثوانٍ وأخرج فلينتظر داخل الحافلة لو أنّه اتصل دون أن يثقل على نفسه رؤيتي..

لا تقولي له شيئًا.. دعيه ينتظر.

كمَ تريدين؟ فالدلال خلق لحضرة جمالكِ.

ما أن سمعت الكلمات الأخيرة حتى شهقت ضحكًا.

تناهى إلى مسامعه أنين ضحكتها، فابتسم أيعقل أن ناديا علمتها شيئًا بخصوص العلاقة الزوجية بعيدًا عن الكتب...؟

عندما خرجت كان ينتظرها بفرح على غير عادته يقول لها: أهلًا بكِ سيدتي، تفاجأت من لباقته.. ابتسمت باستهزاء.. لم تُعِرْهُ انتباهًا.

بقيا طوال الطريق صامتين إلى أن وصلا لمنزلهما .

بدأ يسألها ماذا فعلتِ في غيابي.. ثلاثة أيام وأنتِ في بيت العاهرة..

لو لم أكن متعبةً ولولا إصرارها لما رأيتني في سِردابها المقيت.

أظنّها علّمتكِ شيئًا يُفيدِ عقلَكِ..

ربما لو كنت مكاني لعلمتكَ شيئًا يُثير رُجولتَك، أما أنا يكفيني بضع أوراق تروي ظمئي ثلاثة أيام كانت كالجنّة لحُلمي لولا بعض التعب الذي ينهال على رأسي فيضطرني للنوم في سردابها لولا هذا لكنت في رخاء سرمدي.

وقحة.. الشيء الوحيد الذي لا يتغيّر فيكِ هو كحلِ عينيكِ

كلّما غبت آراه هو ذاته أظنُّ بأنّ الكحل هو الذي يتجمَّل فيهما...

أصبحتَ تستخدم كلماتٍ جديدةً وكأنكَ كنتَ بفِراش إحدى المثقّفات بفنّ التكلم..

في كل مرة أتحدَّثُ معكِ، أتمنى موتي لميا ..!

إن كنتَ تتمناه لحظةً أو مرةً في العمر فأنا أتمناه يوميًّا، أنتظرُ موتي أعدّه بالدقائق والثواني .

هو الآخر في منزلهِ يصرخ ليس بهذا الصوت الذي يزعج إنما بصمت يخافُ أن تزعج صدى صرخاته جدران منزله فتبكي.

إنّها جنّت ولم تعد تكترث لوجودي إحدى عشر عامًا وأنا أنتظر عينيها لقد هرمتُ. كبرتُ.. شخت ومتُّ وما أنا بحيّ.

لا يهم لا شيء أجمل من قدس عينيها، جميلة حدّ الوجع وأكثر.. لئيمة حدّ التعب.. نرجسية لا تعرف الرحمة، ولكنّي أحبُّ تمرّدها، أحبّ كل ما فيها يحيني.. هنا علقت روحي بين جُدران الياسمين.

نساءُ هذا الوطن قاتلات بكبرياء.. بكلّ هدوء لا يكترثن للبكاء المزوج بعيونهنّ، يرفضن البوح لا تصيبهنَّ عين حقودٍ.. لا يهتممن إلا بأرواحهن وما عداه هراء.

بدأ البكاء .. يئنُّ. أنا الرجل الذي يبكي من كبرياء أُنثاه.

لا نور هذا المساء وكل مساء، و كل الأعوام التي مضت، وأنا محروم نعمة النور.. لعنة حلّت بي أستحق العتمة وأكثر..

لا شيء لديه إلا كأس نبيذ فارغة.. حتّى النبيذ ملّ منه .

كأنّها لعنتي لأثمل على ذِكراها.. نبيذ إيطالي صافٍ معتّق ممزوج بعطر ذكراها.. أُنثايَ مدلّلتي مجنونتي .. إن نفذ النبيذ فالدخان لا ينفذ هذه السيجارة التي تعشق لكم تمنّت أن تحتضنها، ها هي أمامي، أنفثُ عن عينيها غبار التعب الذي أرهق كاهلها أتعب محبوبتي .. أسمعها تقول لي: لو أنّي سيجارة أعانق تعبَك.

هكذا كانت تهذي دومًا.. بدأ يدخّن بنهمٍ يُحيطها بمدار شفتيه وهو يعضّ عليها إلى أن يأخذ نفس طويلًا منها كأنّه يقوم بعملية شهيق تستغرق الستين دقيقة، ومن ثم يخرجها لينفث الزفير ويغيب وجهه في مدار الدخان الذي أخرجه ليبدأ بشتائمه بلعن الأديان جميعًا يشمئزُّ من جميع الطوائف التي لم تعرف من ديانتها إلا الاسم (حيًّا مقيتًا) كحيّها، عذلوني لأني انتميتُ لطائفة الحبِّ وأنا لا عِلْمَ لي بها مَنْ خَلَقَ هذا التنافُر،

اللعنة على كل مَنْ أبعدني عنها، اللعنة على حيّهم، شيخهم، مختارهم، أمها وتلك الجنيّة.

أريد أن أحرق نفسكِ وأقتل روحي على أن أخرجكِ مني.

بدّل فِراشه بالمرحاض.

نَظَرَ إلى وجهِه في المرآة القابعة فوق المغسلة..

بدأ يتمتم بوضع يده اليُمنى على وجهه وهو يتحسّس السواد الذي يزيّن ما تحت العينين لقد ثَقُلَ والذقن التي نبت أصابها الوباءُ..

وجهي شاحبٌ أشعر أن لونه رمادي لا لون فيه.. تائه بين العتمات.. حمل موس الحلاقة وبدأ بإزالة الترهّل الذي أصاب لحيته.. شارد الذهن وما أن كاد ينتهي حتى شعر بالدماء تجري منه لم يُعِرْها انتباهًا، تابَعَ الحلاقة إلى أن انتهى.. غسل وجهَه مرات عدة يتمتم ليشهد العالم تعاسة رجل على يدِ أُنثاهُ.. ذهب لغرفتهِ المصاحبة باكتئاب حادٍ لا يتّضح منها إلا رفٌّ واحد عليه مجموعة من الكتب مصفوفة بشكل هندسي مُرتَّب.. أشعل الراديو على إحدى الإذاعات العربية استمع لأغانٍ متتالية ووعد نفسه ألا يبكي بعد هذا المساء، مسائي اليوم هو غذائي بكِ.

أنا الميت أقمتُ مدفني بين يديكِ وأنا الآن أعزي نفسي فيكِ.

19

(فيروز هي الصوت الأنيق)



دخلت لميا إلى غرفتها دون أن تنبس بكلمة.

ناداها: لميا إلى متى هذا الحال؟ أكثر من خمسة أعوام ولا أحدنا يعير الآخر انتباهًا، تمارسين الجنس وكأنه واجب أبوي، تقومين به ومن ثم تستحمّين كأنّي أقربك دون أن أشعر بدفء أو حتى ببرودة جسدك لا أشعر بشيء، امنحيني ولو القليل من الحب، لا تهمليني دون انتباه .. أو بالأحرى أنتِ التي لا تعيرينني انتباهًا، إلى متى هذا الحال..؟

إلى أن أموت..!

أهذا ما تفكرين به...؟

هذا اتفاقنا..

اللعنة على اتفاقات الأمم أجمع..

لم تعلّق بأي كلمةٍ، أغلقت باب غرفتها، لم يسمع إلا صوت المفتاح يدور دورته المتكاملة ..

بدأ بالتهجّم على الباب، افتحيه إني أشتاق إليكِ أحتاجك، وبشدة

لم تبالِ، بدأت بتبديل ملابسها..

لميا أصبتُ اليوم بضربة أثقلت كاهلي لهذا كنت أحتاج أن أخبركِ ماذا يمكن أن أفعل..؟ سمعت كلمته الأخيرة وهو منكسر..

ردّت عليه: أنا مذ إحدى عشر عامًا مصابة بداء الذاكرة.. والضربة التي أصابتني لم تثقل كاهلي فحسب إنما موّتتني..

فتحته

ما إن رآها تفتحه حتى أمسكها من يدها وجرّها إلى الأريكة التي تقبع في الصالون المصمّم على الذوق الباريسي قبالة غرفتهم؟

افهمي لميا إني أحتاج..

هذه مشكلتكَ..!

أريد أن تنامي قُربي أحتاج لأن أضمك بحبّ..؟

هذا الشيء الذي تتكلم عنه لا يهمّني لا يعنيني لا أنتمي له..

وقحة..!

وقحة إلى الحد الذي يغتال رجولتك..

أنتِ لا تنفكّين تُردِّدين الكلمة تلو الأخرى..

رفع يَدَه وضربها على وجهِها..

صاحت في وجهِه.. أبشع الأشياء التي تحدث أن يعتاد المرء على أمر لن يعتاده، أصبحت أعرف نهاية حواراتنا المقرفة إما ضرب أو شتيمة .

أنتِ لست وقحة، إنما ابنة كلب .

الكلب الذي تنعته يشبهك..!

لم يحتمل الكلمة التي قالتها.. حتى انهال عليها ضربًا غير مبالية لإلحاحه بالمضاجعة.. استطاعت أن تفلت منه وهي تقول أقسم إنك لا تنتمي للرجولة.. الرجولة بريئة من أمثالك، لم يستطع اللّحاق بها لتعثّره بقطعة قماش كانت قد سقطت عن المنضدة عندما انهال ضربًا عليها.. تجري العادة كل ما انهال ضربًا فإنّه يرمي بكل شيء أمامه لا يرى شيئًا، ثور إسبانيٌ عندما يهيج لا يرى إلا خصمه قبالته.. بدأ بالنباح افتحي..! هي تتنفّس بسرعة لم تعره انتباهًا صمتت كانت جالسة خلف باب غرفتها المغلق قبالته تبكي بصمتٍ، لم تعطِ البابَ ظهرَها، إنما استلقت خلفه مدّدت جسدها ظهرها السفلي لمسند الباب، رفعت قدَّمها كمدرّبة رياضة تقوم بتمارين الريجيم المعتادة،

ولكن هي عكس جميع المدربات اللواتي يمضين جهدًا كبيرًا لتخفيف الوزن ولو ربع كيلو غرام للمتدرِّب، فهي تقوم بتعرية جسدها وانتشائه خارجا بالعراء الفكري والحمى الجنسية التي تموّته، تبكي ..

لم يسمع لها صوتًا إلا عندما ناداها بابنة الزانية!

عندها صرخت ملء الكون صوتها ..!

الزانية التي تتكلم عنها إنها أشرف منك.. أشرف من رجال الكون أجمع.. هي ليست كرجولتك المغتالة علنا.. المغتالة أمام المؤتمرات العربية.. أمام عُهرك.. وأمام شرقنا، المستنقع العظيم..

تريد أن تغتصبني فلتبتلعك النار لتنجب أسطورة جديدة.. الزانية التي تتكلم عنها تخطّت مجتمعها لتبتلع عُقدَكم الشرقية وأنجبتني من رجل أرذل من رجال الأرض كأنت.

بعد غياب ساعتين عاد إليها عندما أفرغ من علبة السجائر من خلف الباب يناديها و هو يقول: أعتذر، فأنتِ تعرفين كل الكلام الذي أتفوَّه به لأني أحبكِ ليس أكثر، و أُقسِم لو أنكِ فتحت الآن فلن أقتلك ثانية وإن فعلتها سأمنحك الحرية التي تحلمين .

لم تُصغِ لكلماته وكأنها في عالم خالٍ من أنفاس البشر، فهي تعلم في قرارة نفسها إن فتحت سوف يدميها ضربًا و لن تموت، لم تُصغِ لحيونته ..

أكثر من مرة، مرتين، ثلاث وهو يناديها وهي غير مبالية مستلقية خلف باب غرفتها غافية تحت ضوء القمر قبالة نافذتها تعانق هذيانها

تسمع لصوت فيروز فهو يعلم ما تحب.. بدأت تتمتم: جميعهم يعشقون صوتك صباحًا إلا أنا لا أعشقه إلا مساء، فأنتِ نبيذ فرنسيّ معتّق..

فيروز هي الصوت الأنيق وهي الموسيقى التي عزف معها مفاتيحه على هذه الأغنية.. (أنا لحبيبي وحبيبي إلي، يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي)..

نهضت صباح اليوم التالي متعبة إثر الترهّلات التي أصابتها ليلة أمس.. ذهبت لتغسل وجهها بالماء البارد مع النعناع.. حتى في أيام الشتاء البارد اعتادت أن تغسله بالماء لا تبالي لحبّاته التي تتساقط على وجهها تشعر به يعبث بوجنتيها، يعبث برموشها، يعبث بتفاصيل وجهِها، يُغازلها لتصرخ.. تهرب لكي تحمل المنشفة، وتضحك:

كم هو نظيف وجهي.. شكرًا جدتي.. لو أنكِ لم تموتي لشهدتِ خراب المدينة، لربما رفعتِ يديك واستجابت السماء لدعائك ولقلبك الطاهر.

هذا الماء يُدفّئ قلبي.



20

وَتَرٌ سَماوِيٌّ



سمعتْ صوتًا يُشبهُ زقزقة عصفور.. لم تنتبه مرة أخرى أدارت وجهَها، كان هو قُبالتها يهمس: أيصبح أن أصير عصفور..؟

يصبح أن تصير عصفوري بين يديّ تنام.. خرج عندما رآها آتية إليه

همس لها: أنذهب لجنّتنا..؟

أذهب معك للجحيم إن لزم الأمر.. رأته يعتذر عن إعطاء درس الموسيقى..

سألته: مذ متى وأنت تعزف..؟

مذ وُلِدْتُ..

وزيارتي لهنا طويلة.. فإني أحب هذه المدينة، أشعر بروحي هنا تتنفّس.. لذا عندما آتي هنا أعرف أن زيارتي تطول.. وعندما أغادرها

أبكي، لا أريد مُغادرتَها، ولكنه هو الوقت يلعب معي، وآلتي التي أعشق هي مُنجدتي.

كلمني عن آلتك فإني أعشقها..

أتسمعين بإتحاد السموات السبع فهي تشكل هالة بمنتصف الكرة الأرضية، تشعرين وكأنّ هذا الكون بين يديكِ، أنتِ مركزُه كليمونة أو تفاحة قُطفت إثر الشهوة، تعبثين بها كما تشائين ومن أيّ طريق سيخرج لكِ لحن من نوتات أصابع يديكِ، ستمرّرين الهالات العشر والكواكب القابعة في راحة كفّيكِ، وتتراقَصُ الكواكب والنجوم في سمائهما ليخرج لك لحنٌ يسيطر على دقّاته وتحكمات عقلك، لتصبحين بعدها السيدة الآمرة في هذا الكون المبتدع لديك، سيحبسكِ ضمن صوت أنتِ من قرّر إخراجه سيدتي، وهذا هو البيانو الإعجاز الإلهي للطبيعة.

تعود تسميته الأصلية ل "لكرافيتشمبلو" ، ومع مرور الوقت اختصروه "لبيانو فورته" وبعدها إلى بيانو كما ترين تطوّر أجياله نحن نتمشّى على ثقل الكلمة إلى أن نفقدَ مضمونها الأصلي، فمن الشِّدَّة والضِّد بين القوة والضعف إلى اللين، وهذا ما يقوم عليه واقعُنا، يكفي أنها يا صغيرتي نظيفة من ثِقَلِ السياسة التي تطورت من ساسة لتتبع لشقّقات الأمم.

فنحن لميا نعاني تمزُّقَ أوطاننا، لربما أنتِ لم تجرّبي معي أن تعيشي تمزيق وطنك لأشلاء، يتهافت عليه كلاب الأوطان من جميع الأمم، أعاني داء تمزيق وطني، لربما لن تفهمي هذا الشعور الذي يقتُلني، مشتّت لا وطن لي أكبر خطيئة ممكن أن ترتكب لأنانيّ مثلي أن لا وطن له، تائه، ضائع بين عَتَماته أبحث عن حدود تحميني لا أجدها، التجأ لموطن آخر فينبذونني وهكذا أعيش حياة المتنقلين داخل تمزيق أجسادهم داخل الوطن.

أتدرين شعوري عندما أصل لهذه الأرض، أشعر وكأنّ فيها لمسة من الجنّة، هل جربتِ قبلًا الموت؟

لا ...!

أنا جَربْتُه، أعيش فيه، أنا في جهنّم الموت، لربما تقولين أنّني رجل مجنون ولكني حقًّا مهزوم، هزمَني الموت إلى أن جرّني إليه، ولكن حين وجدّتكِ أيقنت أنّ الله يمنح الجنة للمدنّسين، حين أرى وجهك الأمويّ أنسى التعب يا حبيبة، أشتاقُ إليك حتى في وجودكِ أرجوكِ لا تخزلي رجلًا أتي إليك من الموت يستنهض حبَّك، يرى في طفولتِك نجاتِه.

ياااااااااه

عليًّا أنْ أتذكر الكثير والكثير لو قضيتُ عمري أكتب عنكَ لن أكتفي بكَ، أترى!

مهما تكتب يبقى هناكِ شيء تائه؛ لأن قصتي معك أجهضتكَ قبل أن تنتهي حتّى أنّها انتهت قبل أن تبدأ. أتذكّرك كفرض صلاة، كمناجاة العاهرة وسط الزحام، كحاخام يهودي يتتبّع جميع الأديان وينسى فرضه الأساسي، كقدّيسة تتّبع شمع قلبها لتبكي في الظلمات، أكتبُك كسماء ماطرة، ماذا جنينا من الحب؟

أخذ منّا كل شيء، أتدري يا وجعي أنّي فقدت إيماني به! وهذا القابع خارج جسدي أمقته، أكرهه، وأصبحت أتنكّرك وأكرهك، لربما أنجبتك القدس نقيًّا ومنحني الأموي داعشيًّا من وطني، تخيل كم من هذه الأنمذجة نعاني؟ تستحضر خياله كظلّها يُلاحِقُها...

أتذْكُرُ عندما قلتَ لي: أنّي لم أجرب شعور فِقدان الوطن..!

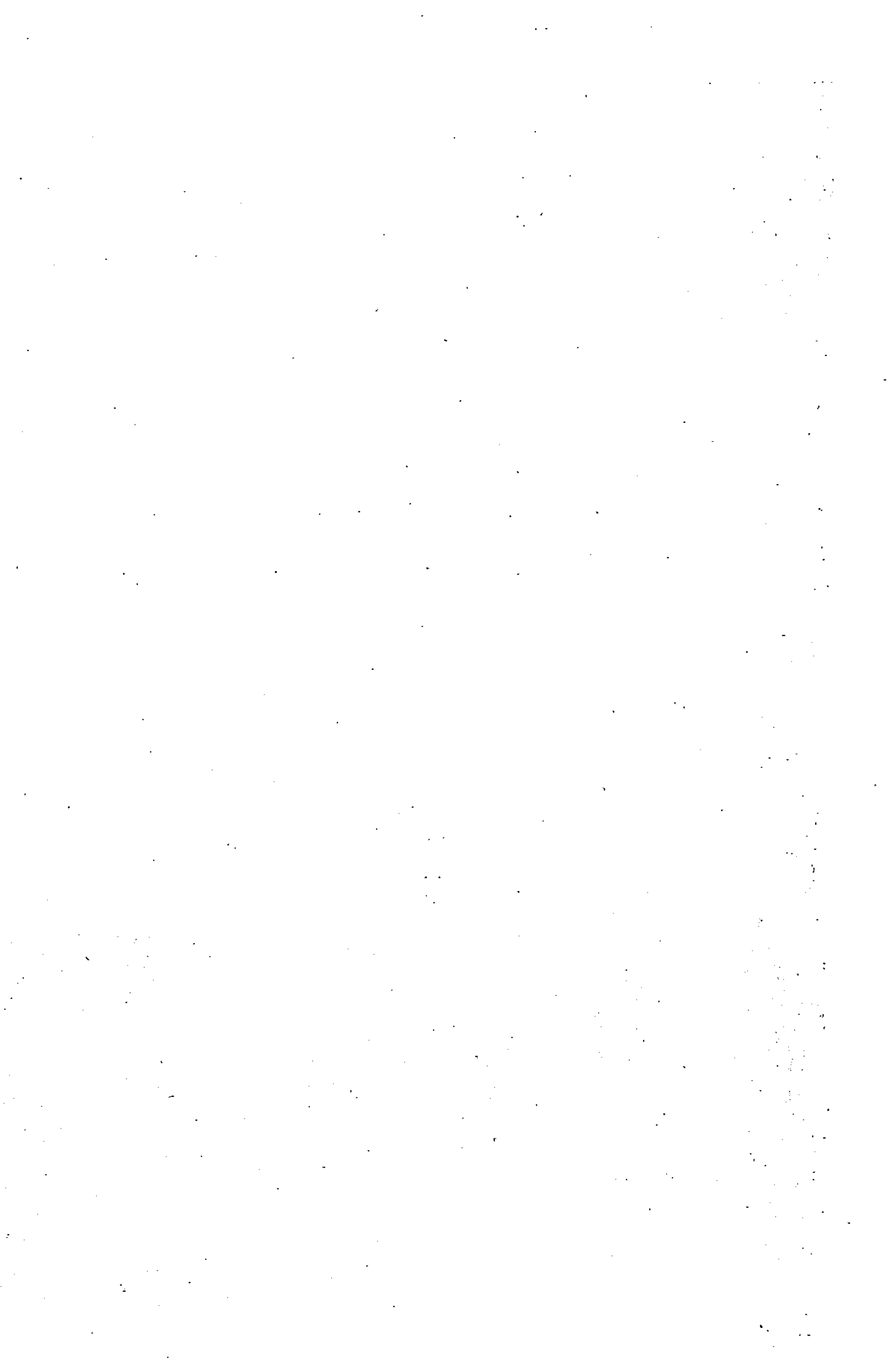
الآن سأقولها لكَ بصوت عالٍ أنا في مخاض التجربة شاهدة على تمزيق وطني بجميع الوسائل، وليست بالسياسة فقط، لربما نحن تفوقنا على وطنِكم بأنّ موتكم واحد، ولكن نحن نموت باليوم والليلة والساعة والدقيقة والثانية ألف موت؛ لأنّ هناك دواعش بوطني أكثر من العقول، تخيَّل الجهل الذي ركضنا إليه، يااااه!

كيف عليّ أن أُفهم المتحيون الذي آراه يتجرّع من داء الجنس ولا ينتهي أتتخيل بأني أكتب لمجهول ملكني و جرّني إلى ساحتِه دونما أن أعرف الخروج مهزمة أم رابحة ..؟

لربما كانت آخر جملة أتذكرك قلتها عن الموسيقى أنّها: (ابنة الحياة وهيرا الروح).

21

صباح عصفور



أنا لحبيبي وحبيبي إلي

استيقظتْ لترى أنها كانت غافيةً على أرضية غرفتها مبلّلة إثر الدموع التي زرفتها ليلة أمس.. نظرت من فتحة الباب، لا صوت.. لم تسمع صدى تأفّفاته..همست في ذاتها: إنه في الغرفة الأخرى..

استرقت السَّمعَ من خلف الباب، لكنها لم تسمع شيئًا أيضًا.. ولكنها عبثًا تخرج، أيعقل أنه إلى هذا الوقت نائم؟ طالعت الساعة المقابلة للباب القابعة خلفه المقابل لها معطّلة لا تفيد بشيء، ولكن مجرد وجودها يشعرك بالوقت.. كم الساعة إذًا؟ أيعقل أنه نائم؟ ولكنه لا يطيل النوم إلى هذا الوقت، فالنوم عدوُّه.. أظنّها الثامنة.. لو أنّي خرجت الآن فسينقضّ على جسدي أنا متأكدة، فالبارحة نظر إليّ وكانتا عيناه عيني ذئب سأنتظر، فلستُ مشتاقة هذا الصباح إلى راحة كفّيه، ولا لسوطه الذي يفصلني عن هذا الواقع، كم هو مقرف سوط لم يأتِ إلا من الجهل الذي يرتديه! فجدُّه الأبله لم يورثه إلا ما

هو رجعي، يُشبِهُه كمختار حيّنا لا رحمة لديه، مع أنه يستمتع بالضربات التي يقتلني بها، ولكنه لا يعلم أنّها لا تؤلمني.. فالخيبة التي تلقّيتها مذ أحد عشر عامًا أنستني ألم سوط شرقيّ.. شدّت ظهرها وأسدلت شعرها عليه غيّرت ملابسها ارتدت قميص نوم حريريًّا لونُه أبيض أكثر منه لؤلئيًّا، على كمّه دانتيل من قماش موسليني مفرغ، يغطي مفاتن اليدين، وعلى الصدر من الأمام مغطّى لا يظهر منه إلا بضع قليل من حور جسدها.. أشعر بجسدي متعب أصابه الأرق..

أخذتْ نفسًا عميقًا ومن ثم فتحت الباب دون أن تتردَّد فهي تعلم بقرارة نفسها أنه ينتظرها، فتمتمت: لا يهمُّ.. لا يحلو الصباح إلا بصفعات جميلة تذكّرني بذاك المنسيّ، اشتقتُ إليه.. نظرتْ عن يسارها لا أحد وعن اليمين ما من أحدٍ.. أيعقل أن حلمي تحقّق؟ انشقّت السماء وابتلعته دون سابق إنذار! باب غرفته ليس مغلقًا كعادته، مدّت رأسها بتردُّدٍ، لا أحد كل ما فيها مرتّبٌ وكأنه لم يَنَمْ ليلة أمس هنا.

ماذا حدثَ؟ ولكني لم أدعُ عليه ليلة البارحة، أيعقل أنّ السماء تسمع ما بدواخلنا فتستجيب دون طلبٍ منّا للتضرّع والبكاء بحدوث ما نخبّئ ..؟ خرجتْ للصالون المقابل لغرفتيهما لا أحد، أريكة الزعامة فارغة، بدأت تركض من غرفة إلى أخرى.

وكأن المشهد داعب شيئًا من الطفولة.. توقّفت فجأةً، ولكنّي لم أذهب لمكانه المعتاد، أيعقل أنه هناك..؟

اتّجهت إلى المطبخ حيث ضاجعها دون مضاجعة سبع مرات وهي تنوء كالمنتحب من الموت بخطًى مُتثاقلةٍ تحدّث ذاتها.. إنه هنا؟

أنا أعلم أنه يترك أرجاء المنزل ليستوطن هنا، ليذكّرني بواجبي الزوجي الذي لا أعترف به، أمقتُه، أكرهُه، أقرفُ منه، يعشق معدته مَنْ يراه ينهش بالطعام، يظن أن وزنه قد يتجاوز مئة رطلٍ وهو لم يتجاوز السبعين من القرف الجنسي، فهو لا يفهم إلا شيئين لغة الطعامَ والأخرى الجنس، وما عداهما لا شيء يعنيه، لا ثالث لهما إلا الحيونة، فهي دائمًا أنيسته، أحيانًا أرفقُ بالحيوانات لا ذنب لهم إن وُلِدَ بعض من جنس البشر متحيونين لا دخل لهم لننسبَ كل شيءٍ عاجز عن الفهم أو الإدراك الكلي للبشر بالحيوان؛ لأنّي أظن أن الحيوانات لديها إدراكٌ وفهمٌ خاصٌّ لخلق الله .

جَمُدَتْ حين أصبحتْ قُبالة الباب، مدّت رأسها من طرفه الأيمن، تجوّلت عيناها يالمكان لا أحد، أدخلت رجلها اليسرى ببطءٍ كمن يدخل إلى النهار، وما إن رفعت الأخرى حتى أصبحت داخله، تنفّست بعُمقٍ، دقّاتُ قلبها بدأت تتسارع، لم ترفع عينيها إلا بعد مرور عشر دقائق، لا تريد أن يصدمَها المشهدُ.

تقول في سرِّها: لا أشتهي ضربةً جديدةً هذا الصباح، أشعُرُ أنه قد يغدو صباحًا استثنائيًّا لولاهُ.

تجوّلت فوق أرض المطبخ جيئةً وذهابًا، ليس هنا، ولكن ما مكانٍ آخر يذهب إليه حتى أن لا رفاق لديه.. تجوَّلت بمكانٍ خالٍ من أنفاسه بدأت تركض تقبّل جدران المطبخ حتى أنها ركعت على أرضه وقبّلتها، تمدّدت مدّة عشرين دقيقة وكأنّها تنام في الجنة، وبعدها عادت للركض وهي تصرخ: أنا الحمامة في هذا الصباح، وبدأت ضحكاتها تتعالى لتزيّن جدران مدفنِها تُعانِقُ المكان، امرأة هي لا يليق بها إلا الفرحُ.

اختلطت ضحكاتُها مع صوت بكائها، لم تعد تميّز هذه النشوة التي تعتريها.. نشوة صباح من نوع خاصٌّ..!

أنا السيدةِ الآن..

أنا المواطنة والرئيس..

لا رئيس لديَّ هنا إلا أنا..

أنا المتمرّدة..

أنا الثورة الكاملة بصمت..

هراء الربيع الذي يتكلمون عنه..

بدأت بفتح النوافذ.. خمس وعشرين نافذة مغلقة الأحكام محكوم عليها التنفّس من الضوء الذي يمرّره ببضع دقائق لا تعيد الميت، بل تفيد بدفن الحي.

بعد أن أنهت مهامَها ذهبت لتغسل وجهها الحبقي بماء النعناع مع أنه ملائكي لا يحتاج للماء، فنجان القهوة يُناديها لصباح مليءٍ بالحب.. تعالي يا غزالة، ما هي إلا ثوانٍ ورائحة القهوة تملأُ المكانَ بمعدّل تسعة فناجين فارغة .

قبل كل شيءٍ وقفت تتنفّس، تستنشق عِطر القهوة المعجونة بحبّات الهال و المسكّة رائحتُها العتيقة تملأ المكان، فنجان تلو الآخر، تدلّل صباحها العتيق وكل شيءٍ رفيق للقهوة هو خاصّتها، تستمع إلى إحدى الإذاعات المحلية، صباح هادئ خالٍ من آثام الخبث، صباح بنكهة العتيق، بنكهة النعناع..

صباح له طعم الثورة وصوت فيروز على غير العادة، ما كانت تعشق صوتها إلا مساء، ربما نسيت لأنها مذ ما يُقارب الأربع سنوات لم تسمع لها إلا عبثًا في ذاكرتها، عُصفورها ينام معها داخل قفص غرفتها، غابت ثلاث دقائق وعادت بصحبتِه ليحتسيا فنجان القهوة يخبرها: دعيني أقبّل عينك بدلًا منه ..؟

تخبره: أنتَ الوحيد معي، أنت البريء الذي لم يتخلّ عني أمام هذا الواقع المؤلم، عصفوري قريبًا جدًّا سنقيم ثورة أنا وأنتَ ولن نسميها الربيع العربي إنما الشتاء الفكري..

لم تعتد أن تغلق له باب القفص إلا بحضور آدم، فهي تخاف عليه منه، فهو يتجوّل ما أراد ومتى ملّ عاد لقفصه بصمتٍ بغيابه ، جلس على كفّ يدِها يهمس: اشتقتُ إليك..

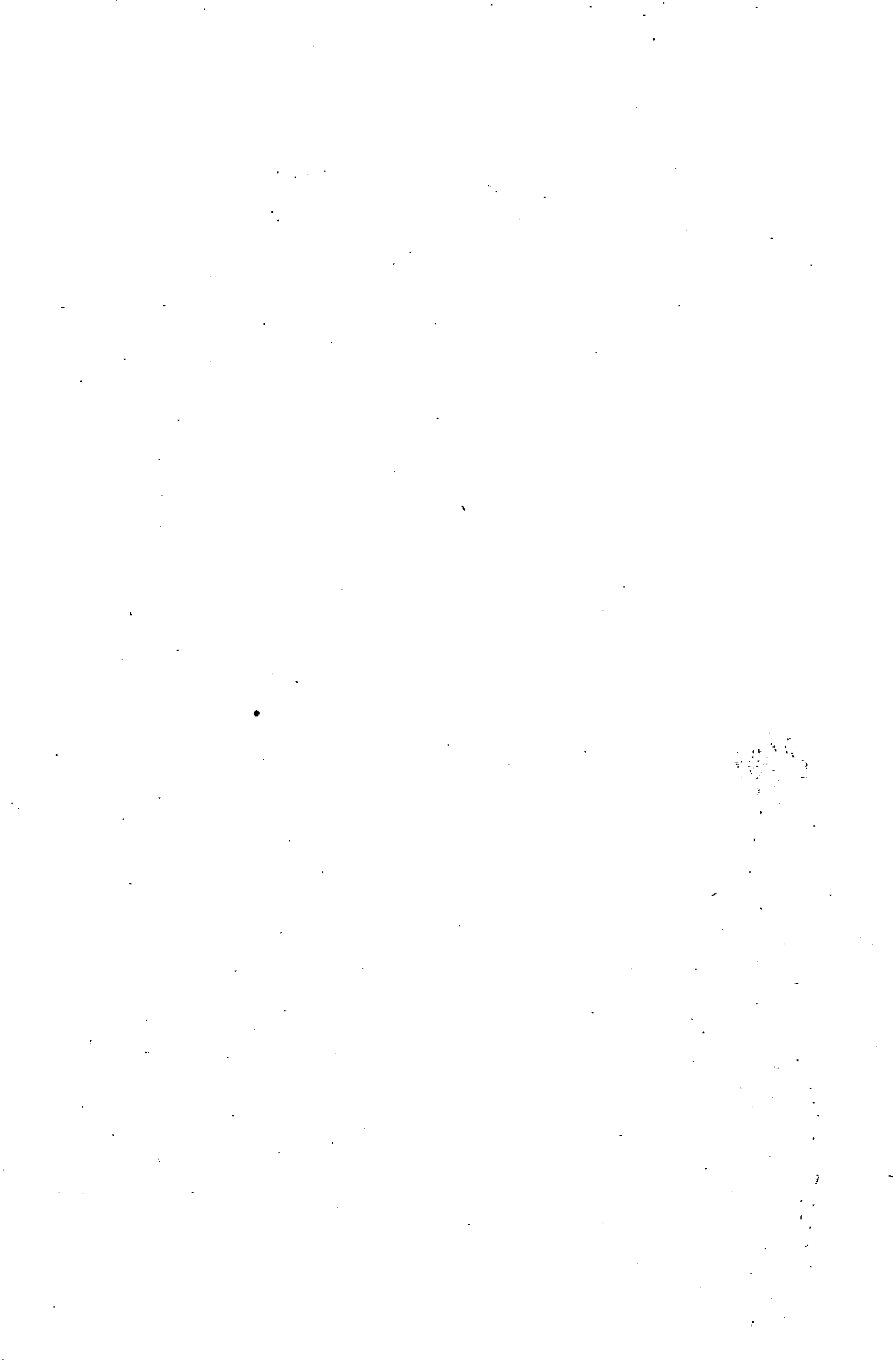
تخبره: وأنا اشتقتُ إليك، قبّلته من عينه، بدأ يطير ويعود إليها مرةً على رأسها وأخرى على كتفِها كأنه يهمس أحبُّكِ..

عندها أجابته أحبُّكَ أكثر..

أخاف عليه، يخطر لي أن أحمله بين يدي وأمنحه الحرية ليطير حيث يشاء، ولكن مرات عدة وأنا أفتح له النافذة ليخرج يسافر بعيدًا حيث النسيان، ولكنه يقاتل دفاعًا عن الحياة لأجلي كأنه يخبرني أني أعيش هنا بين حنايا صدرِك أجد الراحة، فأخاف ألا يتحمّل هذا الواقع فيسقط ويموت وأنا أخشى عليه من الموت، هو على عكس العصفورة التي كانت بحوزة المختار كما أخبرتني عنها أمُّ يوسف أنه كان يحبسها في القفص، وعندما كانت تخبره أن يرأف بها ويُخرجها للهواء كان يصرُخُ وكأنه يحبس أنثى لديه، يحبِسُها كامرأة كانت تفتحه لها خلسة لتخرج، ولكنها تخاف، وعندما حاول أن يحملها بين يديه ليشعرها بالأمان الذي يؤمّنه لها وما أن وضعها بين يديه حتى طارت دون رجعةٍ عندها قالت: إنها كانت تخطّط لتحريرها لو لم تجدها بحوزته، ومذ طارت لم يخطر في باله أن يأتي بواحدة أخرى تيمّنًا بأنّها ستنكر الجميل وتغدر به كالتي طارت.

22

قديسة



قديسة مرهقة وكأنّ حياها استعارة من اسمها القداسة للهُروب من واقع أعطاها رهبانيّة الحياة قبل أن تترهّب وكأنّه حكمَ عليها قبل أن تحكم السماء.

نَذَرت الباقي من حياتِها لحب ّجوزيف، من كان يتوقع أنّ ابنة من حيّنا ابنة الشيخ محي الدين تقع في غرام ابن معتنق الكنيسة التي تقع على الطرف الأيمن من مكتب المختار، هذا الشاب الذي يخاله البعض أنّه مخنّث لكثرة استيحائه.

جميع رجال الحيّ ومعهم النساء يصفونه بجمال نادر، لو رفعت صحيفة وجهه للسماء لتزيّنت به أمام الملأ متباهية بما لديه، يُخيّل أحيانًا أنه قطعة من الجنّة أتت من بين أشواك النار، يقع في غرام قدّيسة هي التي لم يرَها أحدٌ من قبل حتى أنّ خمارها لا يكادُ يظهر منها إلا بقعةٌ صغيرة من عينيها، رداؤها الأسود يغطّيها حتّى أسفل قدميها، لم أسمعها يومًا تبكي إلا عندما انفجرت ذاك المساء أمامي تقول: ما

ذنبي لأغدو تعيسةً ولِمَ لا يلغون شعار الأديان التي يتّمونا بها تحت مسمّى الدين؟ أوليس لدينا ربٌّ يحاسِبُ ويعاقِبُ؟ ولِمَ هذه الفواصل والقواطع بين المحبّين؟

أخبرتها حينها بقول جدتي المتشدّدة قبل وفاتها: إنّ الحب في وطننا يشبه خيانات العرب، ويُشبِهُ انقسامَ أوطاننا، علّمونا أن نضع حدودًا على أجسادِنا، وهكذا نعامل الحبَّ، كأنّه منبوذٌ محرومٌ من طعم الأنوثة.

علّمونا لميا أن الخروج عن دائرة الدين يغضب السماء..

ألا يخافون أن تلعننا السماء قبل الأرض ..؟

أخبرت قدّيسة حينها: أنا أعلم أنّ هذا الحب الذي تتكلّمين عنه حبٌّ خارج عن منطق العقل لا تتورّطي أكثر ولا تتعبيه، فوالده سينفيه قبل أن يقتلك والدكِ، كانت حينها تنظّف الأطباق مُسترسلةً بعملِها، وببعض الكلمات التي تتفوّه بها تابعتُ حينها: لربّما نحن ملعونون من السماء، نظرت إلى يديها ترتجفان، توقّفت دون أن أتابع ما أقول، فاجأني الموقف وصُدمت بوالدها وهو يعاملها كأنّها خادمة لا يليق بها كلّ هذا، لم أكن أتخيّل أنّه يعامل فتيات منزله بهذه الوحشيّة، كان يمنع إشعال الأضواء في أرجاء المنزل؛ لذا لا ترى إلا الشموع المسيطرة على الموقف، لا ترى فيه إلا أشباحَ بَشَرٍ لا تكاد ترى منهم إلا ظِلّهم.

ظننت بداية أنّه لا يملك المال لدفع أجور الكهرباء التي يُفرضها المختار على الجميع في الحيّ، وكنت أسمع أن الشيخ محمّد هو أقل الدافعين أو هو المعفيّ عن سدّ أجورها، ظنَّ البعض أنّ المختار يساعده في أجور الكهرباء لكثرة عدد الفتيات، وأنّه دومًا بحاجة لإعالة من رجال الحيّ، فكان البعض أحيانًا يُساعِدُه، وكان المختار لشدّة قسوته يملك القليل ليتباهى أمام الجميع بتحديد مبلغ لا يكفي لكساء طفل بحجّة أنّه يُعيله.

منزل مزيّن بشموع باهتة يحوطها اكتئابٌ حادٌّ لا يكاد الإنسان يرى أخاه الإنسان إذا ما اعتصر عينيه، ترى نصف واحدة في المطبخ وأخرى في البهو الواصل المطبخ بهيئته الخارجية مع أرجاء المنزل الداخلي نصف مقهورة تبتلع خيبة الموت، كان يتعالى صوتُه عندما صرخ في وجهِها عندما رأى نورًا من أحد المصابيح التي تتموضع على الجدران مُضاءةً بنور خافت بأن هذا إسراف وهو انتهاك بلا طعم، فأطفأهُ، فأصبح الضوء أقلّ نورًا، لم أعد أرى إلا خيال قديسة كان يردّد: الله حرمنا ونهانا عن الإسراف..

وكأنّ الربّ فُصِّلَ وصُمّم على مَقاسِه، يحلّل ويحرّم ما يحلو له الله نهانا ولكنّه لم يحرمنا من التمتّع بما خلق، جاهلٌ هو للأشياء التي خلقَها الله لنا وأباحها، فالله بالنسبة له يد يستدعيها مدى أراد.

جل علاه لم يبخل علينا ومنحنا الطبيعة بكلّ مفاتنها، لم يدعُنا لأن نحبس أرواحنا داخل صندوق مليءٍ بالعَفَنِ.

كادت تختنق حين ناداهم يا أبناء القحبة، فُجعَت إثر اللّفظة التي تلفّظها، ولكنّها لم تتفوّه بشيءٍ وكأنّها تعرف مصيرها إن تفوّهت، احمرَّ وجهُها خجلًا منّي عندما اقتربت همس أن نصعد لغرفتها البالية، وبأنّه لو رآني لصُعق، عاد يقول لها: يا ابنة الزّانية كم مرّة أخبرتك بأنّك لم تولدي على الرّيش وأنّه عليك الانتباه فمنزلي مليء بالعوانس، وما أن تلفّظ كلمته الأخيرة حتّى ساد صمتٌ طويل، عوانس طرقت هذه الكلمة جميع نساء المنزل، إن لم يسمع بها نساء الحيّ . أطفأت النور حينها، خيّم ظلامٌ حادٌّ إلى أن تمَّ إشعال الشمعة التي يحوطها الاكتئاب حتى طولها لا يتجاوز الإصبع الصغيرة من اليد، نحيلة كأنّها رأت بؤسًا حقيقيًّا موضوعة على منفضة يحوطها اكتئاب حادٌّ وغبار قطني لونه على الأغلب فضّي لم أستطع تحديده. في تجولاته التي بلغ عددها السبع مرات جيئةً وذهابًا والشتائم التي أدلفها واحدة تلو الأخرى لم يتنبّه إلى وجودي إلا عندما تعثّرت قدمه بطرف حذائي، كاد يقع عندها ذُهِلَ، وكاد يشقّ الأرض ويضع رأسه فيها لو كان ممكنًا هذا بعد القليل الذي أظهره وكان سيكمل لو أنّه لم يرَني، وما خَفِيَ أعظم.

خرج مُسرعًا بعباءته البيضاء التي يفوح منها رائحة العنبر، لم تبالِ به قدّيسة حينما انفجرت تقول: رأيت جوزيف مذ أربعة أشهر قبل ليلة نومي الطويل بيوم، رأيته مرة واحدة، ولم يتكرّر بعدها هذا الشيء، تعالي لميا لنكمل أحاديثنا بغرفتي الكئيبة التي تشبه قلب عذراء عجوز دفنت في قلبها جميع العاشقين دون أن تبوح لأحد منهم بشيءٍ، الباب الخشبي مصنوع من خشب الزان الذي تميّزت فيه أبواب الحيّ جميعها ما عدا منزل أم يوسف من البردي، والعليّة التي ورثوها من جدّهم لحفظ الأطعمة، طاولة تكاد تسع لشخصين وعددهم هم خمسة عشر فردًا، قدّيسة هي الفتاة السابعة.

همت في التفكير بكلمة عانس، وهم الذين عنّسوهن على طريقتهم بجعلهنَّ أحياء برفقة الموت بسبب إصرارهم على حبس الجسد، الأواني مرتّبة بشكل منتظم، مصفوفة كتراتيل آية قرآنية، كل شيء هنا صامت لا صوت له، لا يئنُّ، تسمع صرير الأواني تقول: أعتقوني، حرّروني، معبد هنا كل شيء قاتم، عتمة لا نهاية لها، فوق رفّ الأواني الزجاجيّة رفٌّ خاصّ للنحاس الصافي، وكأنّها انتشلت من الموت، خاضت حرب الحياة على الجهة اليمنى رفّان للأواني، وفي الجهة الأخرى تصفيف الملاعق مع السكاكين، وما بينهما مكان التنظيف مقابل الباب، لفتت انتباهي السكينة الخشبية ذات اللّون البنّي التي تفرم بها قديسة أوراق البقدونس هي الشيء الوحيد الذي تظنّه ينتمي للقرن الواحد و العشرين، وحافظ الأغذية الذي على الطرف الأيمن ميّت دون حراكٍ، ولكن مجرّد وجوده يُشعِرُك أنّك تنتمي للزمن،

بينما تجول نظراتي بهذا المكان أذهلني لون السقف البالي حتّى أنّك لن تتمكّن من تحديد لونه.

هيا لميا لنصعد...

أعادت الجملة عليَّ ثلاث مرّات دون أن أتنبّه إلا إلى يدها تهزّني.

23

(يتيم هو الأسود في حضرة عينيكِ)



ترتدين السواد، أعلم أنّكِ لا تحبّينه ...!

اخترت أن أرتدي اللّون الذي يُزيّن ما تحت عينيكَ

لا يهمُّ فجميع الألوان تغدو استثنائيّة في حضوركِ

كم أشتهي أن أرى شعركِ الفوضويّ بعيدًا عن هذا الوشاح الذي يغطّي نصفه لِمَ لا تزيلينه لأرى الجنون؟!

أزالته برفق... هو يتمعّن بها وكلّما أسدلت طرفًا منه... ذُهِلَ...

صحيح أنّ شعركَ نصفه واضح للعيان، ولكن النصف الآخر أظنّه خاص بالموت، غجريًّا من نوع خاص، هل الوشاح تقليد في حيّكم لأنّي لا أراه ينتمي للحجاب المعتاد..؟

ليس تقليدًا بقدر ما هو حكم، جميع فتيات حيّنا مخمورات من الرأس لأخمص أقدامهنّ، إلا أنا الفتاة الوحيدة التي لم تخضع لقوانين الحيّ، لم أرفض، ولكنّي تكلّمت، وعندما سمعوا صوتي خافوا من

القادم، فقبلوا ببعض الثياب التي صنعتها بنفسي، خلقت شيئًا خاصًّا لا ينتمي لأحد... لم أكن أنتمي له إلا بعد وفاة جدّتي، أهدتني وشاحًا فيروزيًّا عتيقًا كانت تحتفظ به لي، وعندما وضعته على رأسي بتبعثر أحببت هيئتي الفوضويّة، وأنّي أنتمي للغجر أكثر من انتمائي لنساء حيِّنا.

جميلة أنت ..

تذهبين للسينما؟

أذهبُ للجحيم إن أردت

اختارا المشي على أن يركبا شيئًا يُرهِقُ الذاكرة

نأكل بوشار...؟

نعم.

نجلس في الصف الثالث؟

أجابته، أريد الأوّل ...!

بدأ بالضحك

متمرّدة، طفلة عبثيّة أنت

بحضرتك يصبح للجنون موطن.

عند وصولهما كانت قاعة السينما فارغةً لتأخّرهما عن موعد المجيء... أُجّل موعدهما لموعد يحدّدانه مع النسيان.

صمتتْ.

يسألها: ما بكِ؟

لا شيء، وكأنّي قريبة من الموت

ما بكِ لميا؟ أنتِ هنا قُربي ...

أريد أن أعزف على البيان... أشعر وكأنّي مُتعبةٌ ...!

ولكنّي أظنّ أنّ الوقت قد تأخّر، سآخذك لمنزلي ...

استقلّا حافلة صفراء يعود لونها للقرون الأولى قبل الميلاد.

بعد خمس عشرة دقيقة كانا عند مدخل البناء يصعدان الدَّرَجَ دون أن تتنبّه لشيءٍ، وكأنّها مخدّرة تحت مسمّى الحبّ لم تتفوّه بكلمةٍ.

عندما فَتَحَ الباب كان أمامها كانت هي أوّل من دخل دون أن تتمعّن بالتفاصيل التي كانت تعنيها، اتّجهت مباشرة للشيء المتموضع على اليسار قُرب باب منزله، أزاحت الكرسيّ الصغير وجلست، حركّت يَدَها اليُمنى على المفتاحين الثالث والرابع، واليد الأخرى على المفاتيح الباقية، وبدأ يتناهى إلى مسامعه صوتُ موسيقى: أنا لحبيبي وحبيبي إلي، جلس قُربها يُشاهِدُها يحاكي ذاته معجونة من شيء اسمه الطبيعة أكاد أجنّ، بااااخ!

مغمضة العينين تعزف وكأنّها عزفتها قبلًا هي لم تشاهِدْهُ إلا مرّة يعزفها أمامها، أكادُ أجنٌّ: باخِ وأنتِ!

همس: وأنتَ!

ذهبت في عوالم البكاء.

لم يقترب ليتلمَّس هدوءها أو يضع يدَه ليُزيل بعضًا من تعبها، ظنًّا منه أنّه ينتحل كلّ ما فيها يخاف عليها.

بدأت تنادي: باخ لجميع النساء...

باخ لجميع الإناث.

فلتستيقظ النساء من سُباتهنّ المميت

وعُهر صمتهن

لتعانق الإناث أحلامهنّ بقوة

باخ لأجل المرأة

عقم أبدي المرأة الجاهلة بواقع مرير تعيشه...

مع كل لفظت "امرأة" كانت يدُها تشتدّ أكثر على المفاتيح لتظهر عروق يديها بصورة يتجلى صعودها من فوق جلدها لتعطي التفاصيل معنًى أدق ويتعالى الصوت أكثر مع تموّجات حُزنها، وكأنّ كلماتها توقّفت عند الحنجرة مختنقةً تنتظر أن يُصدِرَ قاضي المحكمة قراره برفع

الجلسة، وكأنّ كلمة "امرأة" تحتاج لجمهرة العازفين على استيعاب أحرف هذه اللّفظة قبل جسدِها.

عندما توقّفت عن العزف.. بدت مُرهقةً.

تبدين حزينة جميلتي، لِمَ كُلُّ هذا التعب...؟

يُتْمُ الأنوثة يُلاحِقني، عُقْمُ النساء يُعانِقُني، يخنقُني أحمد، يقتُلني جهل النساء، ممنوع عليهنّ أن يرين الواقع برمّته، خاضعات لأوامر رجلٍ أوسخ من أرذل امرأة على وجه الأرض يقبلن بأحكام لا تمثّلهن، أشتهي مذ ولادتي أن أسمع كلمة (لا) في حيِّنا الجميع يسيرون وراء الهاوية، نحن تأخّرنا عن موكب الحضارة، ولكن يزعجني كثيرًا أن نتأخّر عن إدراك الواقع، عن فَهْمِ الحياة، ما يشغل بالهنّ أمران: هما الزواج أو بالأحرى السرير والإنجاب والشيء الثالث الذي لم يعترفوا به أنّ نساءنا موجودات، انتحرن من الحبّ مع لفظة الحُبِّ "تعالى صوتُها، شيءٌ من الهشاشة قد عانَقَ جُدران منزله."

ركعت أرضًا، أنا في حداد دائم مع الموت في حداد مع رام، قدّيسة، جورجينا، جليلة المخفي موتها عن العلن وفاطمة، أنا في حِداد مع ليا مع ذاتي بأنّي لم أقدر بأن أغيّر قانونًا أو أخلق نظامًا يعترف بهنّ كعاشقات أمام الملأ، أنا في حداد مع أرواحهنّ، لا يريدون للمرأة أن تعرف أكثر من قوقعة الفراش رفيقًا، ولا أكثر من الجنس حلًّا.

نعيش في وحلٍ يستفحل فينا الخطأ ليأكلنا ولا نراهُ.

خذيني إلى حيّكم ...

سيقتلونك ...

فهم يدبِّرون مكيدة ليخرجوني من هناك، منبوذة عن هذا الحيّ ممنوع أن أخالط الإناث أو أخرج خارج قوقعة منزلي، ظنّا منهم أنّي تمرّدت على عشائر ديانتهم..

لم يأتِ بحركة أخرى خوفًا من أن يتمرّد على أنوثتِها

حملت بعضها وهمّت بالمغادرة..

عندما أمسَكها من يدِها يُخبرها أن تبقى.

لا أستطيع، ثلاثين دقيقة وسترى الفوضى تملأ المكان بحثًا عنّي،

سأوصلك.

لا ... سأذهب وحدي.

مشتْ وحدَها في طريق تنتمي له دون أن تعرف تفاصيله،

يتتبّعها خُفيةً عندما وقفت وسط الطريق تخبرُه:

لقد عوّضتني عن شعور اليُتم الذي لازمني إلى الوقت الذي رأيتُك، أنا يتيمةٌ على حافّة وطني.

أنثاي، لا يُتْمَ بَعْدَ الآنَ.

شكرًا لأنّك كنتَ يومًا في حياتي وما زلت... أنت قمر حلو أبدًا لا يخون...

إلى هنا وكُفّ عن متابعتي، أصبحت قريبة من حيّنا أو بالأحرى من مكاني المُبْهَمِ ...

أتتخيّل أنّي أُشاكِسُ المختار...أترى مشاكسته ستكون قتلي، قالتها باستهزاءٍ وكأنّها فعلًا تستحضر غَضبَ المختار..

كفّي عن هذه التّفاهات واذهبي.

حملت وشاحها وغادرت.

غاردينيا منسيّة تعانق شيئًا من النسيان، تُعانِقَ وطنًا مُثقلًا بالخيبات، تحمل معه التعب.

في عودتِه لمنزله يعانق شيئًا من الغِبطة.. رافقه قلق مصحوب بنشوة فرحٍ، فتح باب منزله، عيناه على البيان، خيّل إليه أنّها عادت من أمسية باريسيّة لتعيد له ما كانت تعزفه مذ دقائق.

لمح ورقة بيضاء مكتوبًا عليها: "أنا لحبيبي وحبيبي إلي" ارتسمت على وجهِه ابتسامة قلقة ...

إلى الرجل الرمادي، إلى الرجل البريء الذي عانَقَ أحلامي وغفا على أصوات واقعي الهمجي...

أغمض عينيك أرجوك! وتخيّل ما سأقول، فالكلمة هذه أكبر من كونها مؤلّفة من أربعة أحرف، فهي تحتاج لتوحّد الأرض مع السماء، تحتاج لبركان قلبك أن يسمعها بكلّ ما أوتيت من شرقيّة، وما أُوتيتُ من همجيّة، وعلى العلن أمام جمهرة ذاكرتك وماضيك وحاضرك ومستقبلِك "أحبُّك" بكلّ ما أوتيتُ من أنوثةٍ.

قرأَ هذه الكلمة سبع عشرة مرة وكأنّما أتعبته جلس على الكرسيّ الذي قربه وتابَعَ... يخيّل إليّ أحيانًا أنّي أجثو على ركبتي أحمل بعضًا قليلًا من خصلات شعري، وأمسح به التعب الذي يُتعبُك.

امتزج صوتُ آهاته همس ما تقول: "أنتِ كل التعب" ربما وجودك هنا قُربي يريحني لوزة برائحة الجنة أشتهيها حدّ الموت وأكثر، كم أتمنّى أن تكون بدويّتي هنا تمسك بجدران قلبي بتبعثرات ضحكتها!

24

(الصَّمتُ سيّد الموقف)

أنا لحبيبي وحبيبي إلي



أنهت فنجانها السابع، أفرغته من آخر رشفةٍ لها من هواء الصباح...

فَتح الباب ليظهر بقامتِه الصارمة قد دخل بكلّ هدوء لم يُحدثْ ضجّةً. طوله الصّاخب، وجهه الباريسيّ بتفاصيل حادّة بارزة مصاحب بأنف طويل، وكأنّه أتى من عاصمة من عواصم المدن البعيدة يرتدي قميص قطنيّ أسود مع بنطال رمادي من الواضح أنّه هو المسؤول عن بروز قامته، بدأ بتفريغ الأكياس واحدًا تلو الآخر، علبة حمّص، فول مدمس، علبة لافشكيري، علبة فول بزيت الزيتون، وبعض الدّونات بعدّة ألوان، ربّما لم ينسَها بهذه الوجبة، الصمت سيّد الموقف لم يكلّمها أو يقول لها شيئًا على الرغم من أنّها تترقّب تحرّكاته، وهي على كرسيها الصباحي تتبع خطواته جيئةً وذهابًا، صباحًا هادئًا بعيد عن الثورة، له نكهة العاشقين، كلّ واحد بخيال من يعشق، عاشقين يتيمين بلا مأوًى.

بدأ بإعداد طاولة الفطور، بدأ بالغطاء الأبيض الحريريّ الذي يتزيّن بنقوش عثمانيّة ورثها من جدّه انتهاءً بوضع الأطباق، لم ينسَ الوردة الجورية الصفراء، فهو عاشق للأصفر، لون الغيرة والحيرة والهدوء القَلِق، وضعها بفنجان من فناجينها الملوّنة المرسوم عليها وجوه بأشكال مختلفة، ما اختاره منها هو وجه عابس عليه تفاصيل حادّة صارمة وضعها على الطرف الأيمن قُربه ليبدأ إفطاره بنهمٍ، وهي جالسة قُبالته لم يقل لها كلمةً تستدعي أن تتناول لم يزعجها حتّى بصدى أنفاسه، ازدادت على وجهِها علاماتُ الاستفهام...

أيعقل أنّه الدعدوش الصغير من دواعش وطني يتحوّل...؟

ما هذا التحوّل الذي بدا عليه الذي أبدله من جحشٍ همجي إلى حيوان أليف؟! جميلة هذه المسرحيّة التي أشاهدها، إنها بالغة الاتقان، لطالما كان المخرج دومًا لجميع مخطّطاته الدنيئة، فنّان ماهر يتقن أدواره بطريقة مذهلة، يحاول إقناعي أنّه رجل من طراز رفيع، وأنا أعرف الوضاعة التي تزيّنه، ولو أقسم لي بالأديان كلها على أنّه تغيّر لن أصدقه .

ولكنّه دور غريب، جلس عند مقدمة الطاولة وكأنّه حاكم أو رئيس دولة سقط نفوذُها أو أنّه يحضر مؤتمرًا من مؤتمرات القمّة العربيّة الفاشلة حيال حلّ قضيّتنا، ربما يأكل بقايا اتّفاقاته المهترئة لإنقاذ اللّاجئين أطفال الخيام، لم يَدْعُها لطاولة المفاوضات المثقوبة،

فالمعتاد في القمّة أن ينفوا أولئك المجانين أصحاب أخلاق تحافظ على الأوطان ولا يدخلونهم ضمن صراعاتهم، وهي واحدة منهم أو لربّما لم يعترف بها بعد ك عضوةً، بعد إفراغه من تناول وجبته نَهَضَ ونظّفَ كل ما يحول دون ترتيبها، غادرت لغرفتها دون صوتٍ، حملت عصفورها معها، لم تفرغ ذاكرتها بعد من جميع الأسئلة التي تدور حوله ماذا يخطّط.

مهما يكن لا يستطيع رجل أن يدمّر أنثى مدمّرة، لا يهم، ما يهمّني ألا يمزّق الكتب التي أقرؤها، فهي وحدها تجعلني أرى أميري أدونيس قُربي، جسدي غدا ملطّخًا بُبقعات لها طعم النَّشوة.

بعد كل هذه الجلبة التي أحدثها هدوئه عاد لغرفة الجلوس المكوّرة الشكل بطلائها الرمادي موزّعة بشكل أنيق، نافذتين يُقابِل أحدُهما الآخر لا يطلّان على شيءٍ مغلقتين بإحكام شديد، يغطّيهما برادي مخمليّة مائلة للأحمر، تغطي الجدران من تحتها برادي حريريّة مائلة للون اللؤلؤي قُبالة النوافذ أربع أرائك موزّعة بمظهر لطيف لا تزعج النظر موزّعة بأرجاء الغرفة يلاحظ الكرسيّ المصنوع من خشب الزان ساكنًا من الجهة اليمنى بعد الخروج من غرفتيهما، هذه الغرفة تحوي ثلاثة أبواب دون أبواب باب مطل على غرف النوم، والآخر يأخذك بنزهة إلى المطبخ، أما الباب الثالث يأخذك إلى الصالون الباريسي الذي تبلغ مساحته حوالى الثلاث مئة متر صُمِّمَ على يدِ مهندسٍ فرنسي.

أشعلَ سيجارةً وبدأ ينفُثُ بقايا الغبار التي تحتلّ ذاكرته، اتّكأ على الكرسي الهزّاز، انسلّت من باب غرفتها لتراهُ جالسًا دون حراكٍ لم ترَ إلا دوائر وهمية من صُنع سيجارته، طالعت الساعة كان الوقت الحادية عشرة وثلاثين دقيقة، عادت وأغلقت الباب بلُطف.

من صوت طرقات حذائه ظنّت أنّه سيخرج، فوقتُ عمله مذ ساعتين قد حان... سمعت صوت القُفل، بدأت تهمس في سرِّها: أظنّه قَفَلَ الباب، عاد لعادته القديمة يظنّ أنّي عصفورة يخاف أن تمطر السماء عليَّ جناحين فأطير.. ما يهم أنّه خرج دون صوت.

ما أن وطئت قدمها غرفة الجلوس حتى عادت وكأنّها قطّة هربت من طريدها، كادت تختنق عندما رأته مستلقٍ كصنمٍ.

أشعُرُ بالجوع يُطاردني، خواء معتدي أهلكني، أظنّها الساعة الرابعة وهو لم يأتِ بحركةٍ، لا أرى إلا عَبَقَ السجائر يتعالى بنغماتٍ متتاليةٍ، وكأسين فارغتين لا ماء ولا حتى نبيذ.

وقفت بكلّ ثقة فتحت باب زنزانتها، خرجت لتشرب أيَّ شيء يسد رَمَقَها، ما أن وطئت قدمها باب المطبخ لتشرب كأسين من الماء و ما أن فرغت منهما لتستدير حتى رأته أمامها، لم يتكلّم أحدٌ منهما، عادت أدراجها بقي في مكانه منتصبًا كأنّه إله ... ساعة، ساعتين، ثلاث، الثانية عشر والدقيقة الثلاثون.

همجيّة هذا المساء، ألغت جميع القوانين التي أحدثها الكون، ألغت احتمال خلق قوانين لم تعتدها الإنسانية ...

أراه من ثقب الباب، أحدثَ تغييرًا هندسيًّا في مشيته، بدا اليوم أكثر جمالًا مزدانًا بأناقته الفاتنة، أراه يقترب... أخذت نفسًا عميقًا، جهّزتُ نفسي لوليمةٍ فاخرة.

كنتُ أقول في سرّي: هو اليوم سيتوّجني ملكةً على عرش الموت، أو لربّما ملكة تحت عرش الملكوت، يخبرني حدسي: أنّه سيكون مساء مدلّلًا، معطّرًا بقُبلة المُزن، بضع خطوات ويفتح باب زنزانتي.

أشتهي وجودَه ولو فراغًا يملأ صدى غرفتي التي أكل جدرانها التعبُ، عانَقَ هيأتَها الغبار، ملّ الضباب سماءَ سقفِها.

ما يزعجني أنه خالي اليدين لا يحمل شيء سوى سيجارته البالية، مللت وجودها في كل مرّةٍ يأتيني دونها، ولِمَ في هذا المساء بالذّات يحتاجها؟ هل يريد إفراغ فرحه فيَّ؟

ودَفْن تعاستِه فيَّ...؟ هل يريد أن يصنع من بقايا خصلات شعري جدائل لأرقِه..؟

بدأ يأخذ تموضعه في شدّ كتفه ورفع يديه وقبل كل شيء أفرغ يديه من ساعتِه البالية التي تحوي صورةً لم أستطع تحديد شخصيّتها، لا يحتاج إلاّ ثوانٍ ليدخل، بضربة واحدة قد فتحه كاد يسقط، رمَى

سيجارتَه التي أطفأها بقدمه بكل تبلُّد، لم يبدأ كما اعتاد بضرب الجسد بالسوط إنّما بدأ بضرب الجهة اليسرى من الرأس، كأنّه يريد إفراغ ذاكرتي من جميع الأحداث المسجّلة مؤخّرًا أو أنّه يريد أن يلغي تفاصيل آخر مساء عندما أتى والتجهّم يزيّن وجهَه بسوطه القديم الذي وَرِثَه عن جدّه وبدأ بضرب جسد قرف الحياة بنهمٍ، وكأنّ كل ضربةٍ كانت عناقًا للموت، وكأنّ الموت انتحر منّي وهرب.

أتمنّاهُ يُعانقني... يأخُذني... ينفيني... يسرقُني... أين أنت يا موت؟ أشتاق إلى قبري علّي هناك أرى الفرح أجلس مع ذاتي، وجودها يحدّثه بصمت بينما ذاكرتها سافرت بها إلى ما وراء الواقع.

مطر، أحمد.. مطر، مطر...

حملت وشاحها فتحت يديها تنادي!

تعالَ لنرقص...

مجنونتي!

تعالَ، تعالَ عصفوري الرمادي بين يدي.

تضع يديها على خاصرتها، تضحك، تضرب رجليها أرضًا، تُحدِثُ صوتًا وكأنّ الأرض استيقظتْ من سبات عميقٍ، ضربة عشوائية، مُبهمة، رجل للأمام وأخرى للوراء غير محترفين فنّ الرقص،

محترفين فنّ التمتّع بالمطر أحيانًا الوجود تحت المطر يولد فيك فنّ الرقص لو لم تكن ماهرًا...

يشاهدها، يضحك..

واقف وكأنّه يطالع فتاة فوضويّة ملّت قانون قبيلتها غجريّة ملّت حياة العشيرة...

لَمَ لا تأتي..؟

أحبُّ أن أراكِ تلعبين كالأطفال كلّ ما فيها تبلّل حتى خلخالها المخبّأ من تحت ردائها، ينادي: كل ما فيك أعشق بدويّتي...!

أثر الدماء جمّل المكان وهي لا تزال في داخل خيالها... تنادي: كل ما فيكَ أحبُّ.

بدأت همسُ تحت تأثير خدر ضرباته... أترى عدد الصواريخ وعدد الأطفال المشرّدين في وطني أحبُّك، أحبُّك عدد المجارير التي يتزيّن بها وطني بعد المطر، أحبُّك عدد الضربات التي آكلها من هذا البعير الذي لا ينتمي للإنسانية بشيء، انتماؤه للحيونة واضح، ولكنّي أظنّها أحنّ منه وما دخل الإنسانيّة فهي مذ ما يقارب المئتي عام وثلاثة قرون نعاني داء الإنسانيّة المعطّل.

أتعلم ماذا أشتهي...؟

سيجارة كالتي تدخّنها أظنّ أنّ الإنسانيّة شيء من ضرب الخيال وأنّ خيالي معك أجمل بكثير من هذا الواقع المقرف.

تعالَ نلعب إنسانيّة...!

سأخترع اسمًا جديدًا لها إنسانيّتجي كالخضرجي والمعمرجي الذين أراهم داخل حي ناديا، يتمايل اسم المهنة مع الشخص ليتناسب معهم، ربما الإنسانيّتجي تؤوي أطفال الشوارع، تحمي النساء من العنف، تحرّرهم في القرن الواحد والعشرين من داء الكبت، ربّما نبتكر بديلًا لها مطر لا ليغسل القلوب كما يدّعي البعض وإنّما ليرقص الجميع تحته بضحك متناسين العرق الذي يفصلها والجسور التي تحدّ من لقائهم، ضحكات تغيظ الجيران كجارتي ناديا التي تثير ضحكًا عندما تراني تقول: الحبّ جعل منكِ عجوزًا بلهاء دون أن يهتم.

25

كصمت البوم لا يهدأ

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي



لم يمضِ على غيابِه بضع دقائق حتى عاد من جديد ليُخبرها: أنت تعلمين أنّي أحبُّك..

ليست قادرة على الحراك، ولكن لسانها لا ينفكُّ ينعقد في جلسته وكأنّه بوم لا تهدأ

أجابته: لا أعلم.

لا علم لي بحبل الحبّ الذي يربطك بي، لا أعلم أنّ المحبّين يفعلون ما تفعل أنت يغتصبون مَنْ يحبّون، لا أعلم أنّ المحبّين متحيونين بالخلقة، لا أعلم أنّ الذكور يغتصبون نساءهم، ولا أعلم أنّهم يضعونهم بزنزانات للتلذّذ بعذابهن، وأنّهم يقتلوهن حدّ القتل وأكثر، أظنّ أنّ هذه أشدّ أنواع الجحشنة الذكوريّة، وهذا ليس بحبّ إنّما استعباد له.

وما أن سمعَها تقول كلمتَها الأخيرة حتى انهال عليها كما ينهال ثور على طريدته، يسمعها تضحك... تئنّ.. أتمنى موتي وأنت تقتلني لتحمل خطيّتي أمام الملء سيبصق الجميع عليك وستنفى سيقولون عنك الرجل المنبوذ قاتل النساء، وما أن يسمعها تتنفّس كلماتها حتى ينهال عليها ضربًا، ولكن في هذه المرة بعيار أثقل.

إلا إذا اختلقت قصّة تناسب دماغهم كما فعلوا قبلا مع رام وقديسة وغيرهما عندها سيبرّؤونك ويتوّجونك على نعش الذكورة المباحة، آخر ضربة كانت قد وُجِّهت على وجهها اختفى الصوت الذي كان يئنُّ "ستتوّج على عرش الذكورة المباحة" اقترب من جسدها ليتحسس نبضَها ما من صوت تجمّد قلبها، بدأ يصرخ بالله عليك استيقظي، فصوتكِ هو موسيقى يتزيّن بها مسائي، لا صوت ولا تنهيدة.

بدأ البكاء متّكئًا على قدميه، لم تكن نيّتي أن أؤذيك، أقسم بالله كنتُ أريد أن تحبّي هذا الوحش الذي لا يهدأ، إن لم يراكِ ملاكي البريء أنتِ وأنا النجس على وجه الأرض، كل كلمة تقولينها أعرف أنّها عين الصواب و لكنّي أنكر ذاتي، سمع صوتها يئنّ قُربه، اقترب منها ليفهم ما تقول لم يستطع توضيح أنّها كانت تغنّي..." أنا لحبيبي و حبيبي إلي"... ظنّ أنها تريد ماء، فأسرع لينجدها عندما أتاها بالماء بكأس فرنسية، اقترب منها ليناولها بعضًا منه مدّت يدها لتبعده عندها وقع منها وكسر الزجاج الباهظ الثمن.

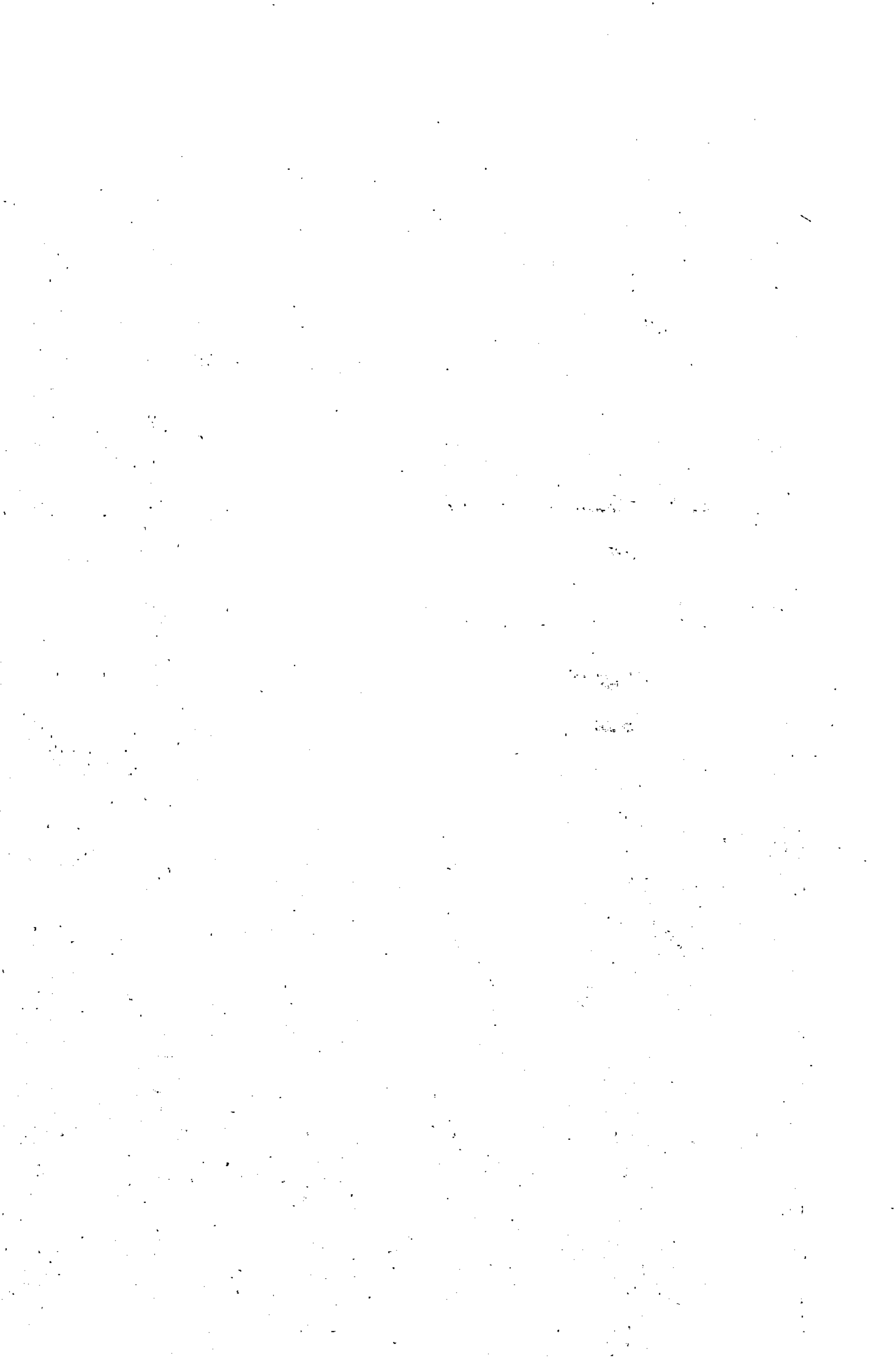
تتلفّظ الكلمات بصعوبةٍ ...اخرجْ يكفيك اليوم، لقد تناولت وجبةً دسمةً.

تحدّث ذاتها بهمسٍ:

يخبروننا عن التطلّع إلى العالم الثالث، وتتكلّم عن الإنسانيّة وأنت لا تنتمي لها، لقد تحيونت.

لم يُعجِبْها وكأنّ ريحًا ضربت جدران قلبِه ليرأف، ذهب ليفرغ ما تبقّى لديه من نبيذ الوجع، امرأة أُجَنُّ إن رأيتها لا تستكين، نرجسيّة بريّة لا تعرف الراحة.

لا تلقي شراعك للحبِّ لا تعطيه هويّة القضيّة وتنسى بين عتمات الزنزانات بين عتمة الطرقات، تُنسين ولا تَنسين، يمنحك تأشيرة الانتظار وأنتِ في قمّة الفرح، يدفنك بدفّة الحزن وأنت ما زلتِ في عمر الوطن، كوني وطنًا يحتوي المطر ليغسل عن ثناياك كلّ التعب ويُمحي كحل البدويّة الذي أثقل عينيك، جمال عينيك كل الأنوثة وما تبقّى هراء لا نعيم فيه لا تسمحي له بفرصة العبث بذاكرتك، الحبّ رجل خبيث يستوطن التجسّس، وغابت داخل خيالها الأحمديّ وبين واقعها الآدمي.



26

مِنَ الحُبِّ يُولَدُ الحبُّ



أحمد.. هل البشر أحياء..؟

هذا مؤكّد.

لو لَمْ يكن كذلك، لما رأيتني أمامك ...!

لربّما أحياء على ضريح الموت...

هذا ما كنتُ أقصد زيوسي الجميل..

من الحب يولد حب...!

لكثرة الأسئلة التي لا تنفكُّ تسألها لم تعد تعيدها عليه، لم تعد تسأله عن التّعبِ وسبب الهالاتِ التي تزيّن ما تحت العيون.

لم تعد تسأله عن والدتِه التي لا تنفكُّ تسأله بأن يحدّثها عنها.

لميا احضنيني، أشتهي أن أعود للمهد معك قولي ما هذا الشيء الذي يمنعك بأن تحضني طفلًا لا تتحدّثي لي عن الدّين وأنّ هذا أمر لم يحلّل بديانتنا ولا تخبريني عن الخجل من المحبّين.

أسكتته حين قالت: "أخاف عليك"، أخاف أن تلعنك الملائكة فتحرمنا من لقائنا بعد الموت.

لم تبعده الأديان عن منطلق الحب المحرّم، ولكن أخافه جدًّا أن يُحرم من وجودها بعد الموت هذا الشيء الوحيد الذي شفع له أن تكون حبيبته في الحياة ورفيقة أولادِه بعد الموت.

الأنثى الشرقيّة في قلب الحاجة تُكابرُ، تخاف أن تجتاز أنوثتها على الرغم من العقوبة التي عانقتها بشفافيّة طفل لم تقرأ لها البصّارة مفاتيح التنجيم عن الحبّ والسهر الطويل والاشتياق المديد والانتظار السَّرمدي، فهي تحتاج عُمرًا آخر لتستوعب الحب.

الحب الذي يعانق طفلة بغتة، يلصق بها كالعطر الذي يعلق ببعض الألبسة فهو يعلق بالذاكرة للأبد والذاكرة أنثى مدلّلة تحتاج عطرًا تستنشق منه عُمرَ الحياة.

ربّما غدًا لن تراني..

ولِمَ؟

عين المختار تتجوّل في كل مكان أصبح عدد الرجال بدل الأربعة ثمانية، أخاف عليك منه في آخر مرة استهزأ بي وناداني بالصوفية البلهاء لكثرة جلوسي مع الطبيعة، بدأ يضحك تخيّل بالنسبة له أنا مجنونة وبلهاء حتى أنّه قال: لنرىَ ما نهاية تشرّدك البدويّ والموسيقى التي تعشقين؟ أظنّها نهاية دفنك.

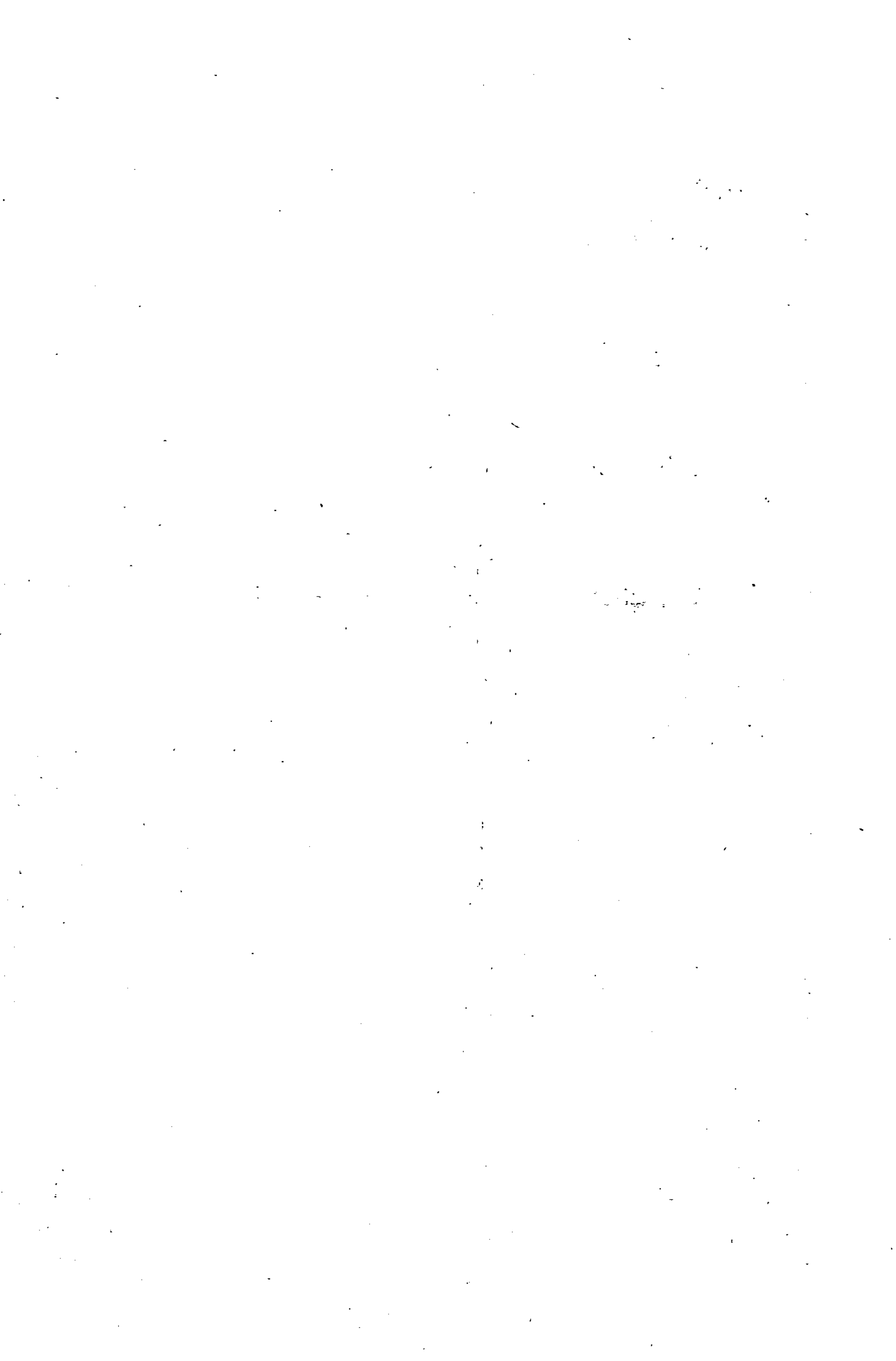
أنا متأكدة إن علِم بحالنا لن يلمسني، ولكنه سيحوّل حينا إلى نار سيمحو بناتنا عن بكرة أبيهنَّ.

خيم صمتٌ طويل بينهما لم يقطعه إلا مواء قطّة تنجب.. تنادي: آلام المخاض.

كم طفلًا ستنجبين لي لميا ...؟

عدد قطط شوارع وطني.

مِلءُ الحبِّ يضحك ههههههههههه .



27

البراءةُ تبكي

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي...



انتهى بي الحال بين واقعٍ لا يرحمُ وحُلمٍ لا يهدأ.

لم تكن تعي أنّها ستكون بين رحم واقع لا يحتضنُها.

ماذا لو لم يحدث كل هذا؟ وتركوني أهربُ معه..

يوقِظُها صوت بعيرها مبلّلة من شدّة العرق منهكة من التعب أوووه، ما هذه الدوّامة التي تحيط بي دوّامة مفرغة لا هروب منها كل مساء أغفو على وقع خطواتِه، أنام حيث لا أنتهي، أنام حيث الوجع يؤذي مفاصل يدي، جسدي المرهق في معاهدة صلح دائمة مع نبيذ وطني.

يناديها: هيا اخرجي نائمة كذئبة تتلوّى ترتجف من وراء الباب.

تجيبه: إن كان خروجي هو موتي سأخرج، ولكن دون مفرداتك التي لا تفهم منها شيئًا.

أتعلم ماذا...؟

ماذا..؟

يومًا ما سيقرأ العالم ماذا تفعل، أخبرُك أكثر..؟

ماذا..؟

أنتَ تحتاج لقاموسٍ مصمّم من حظيرة واقعِنا، ربّما ترى (متحيونجيّ) يتحيون معك أو أنّك تتبعر معهم.

هناك شيء آخر كيلا أنسى أثر ضرباتك دائم لا يزول...

اخرجي...

خرجت بثوبِها اللؤلؤي الممزّق المزيّن ببقعات حمراء، شعرها الغجري يعانق أطراف يديها، وهي تعرف إن خرجت ستتناول وجبةً خاصّة به، ومع هذا أرادت أن تكون فدائيّة لتنال من ضرباته علّ الموت يسمعها فيستجيب.

لم يعد يحتمل وكأنّه ينتظر خُروجها لينهال بصفعاتٍ على وجهِها، اصطدم طرف كتفِها بالطرف الأيسر من الباب عندما سقطت أرضًا بدأت تصرخ.. جدران منزلها زنزانة لا شمس فيها، النوافذ الأربع والعشرين جميعها مغلقة.

بدأ يقبّل يديها مع كل ضربة ينهال عليها بالكمِّ الهائل من القُبل متشبّثة بما بقي منها بالأرضية الرخاميّة التي تتقوقع تحتها، تحاول أن

تبعده بكلمتين: أقرف منك، أقرف منك أقسم بأنّي أكرهك عدد الحيوانات التي تحيط بنا. اللواتي يبعن جسدهنّ بحجّة النصيب لو كان فيك شيء يحب تأكّد لما كنت هكذا، ولكنك زدت خيبتي خيبات، تضاجع النساء على مرأى عيني، حتى ناديا أنا أعلم بأنك ضاجعتها آلاف وآلاف المرّات وتأتي تستنجد راحتي، تمارس الجنس وتريد أن أرأف بكَ.

أنا أنثى قالتها جدتي بثورة متكاملة متمرّدة بكلّي وداخلي سأقلب نظام القبيلة، سأُعلن تحرير النساء من داء العبودية داء تقبل الآخر على حسابهن، داء الألم ليرتاح الآخر، داءِ دفنّ الحب أمام الملأ، داء الصمت والكبت فقط لإفساح المجال للطرف الآخر بممارسة الجنس علنًا ولو من خلال صمتي ...

الرجل الشرقي يمتاز بتعدّديّة مجازيّة فلا يكتفي بأمّه يحتاج لزوجةٍ، ولا يكتفي بها بل يحتاج عشيقة يمارس معها داء الوجع، ويحتاج حبيبة ينفّث بها عن غضبِه، وربّما هؤلاء لو اجتمعن جميعهن لن تكفيه الأنوثة بأكملها، بل سيحتاج لنهر من الخطايا ليتطهّر بذكورة فاجرة ملؤها صمتنا، صمتنا هذا الشيء الذي يسبّب موتنا.

إن فرضَ الواقع ما أنا فيه، فلن أفرض على نفسي ما لا أطيقه.

خلقني الله لأتعايَشَ مع مَنْ أحبُّ وإن تُركت تائهة لن أرضى بزواج يحيلني صفرًا لو ترمّلت لو تكلّم عني الجميع بأنّي فاجرة، ولو

تكاثروا كذئاب ضارية بأنّي أنثى مجنونة، لست مريم العذراء، ولا مريم المجدُليّة، ولكنّي أُشبهُ جديلة بعض نساء من وطني مترمّلات بسبب الواقع، ويُشرّفني أن أنتمي لهنّ على أن أنتمي لرجل يُعانِقُ في اللّيل عشرات الإناث.

فخر لي أن أسمّى مُطلّقةً منبوذة على أن أرمي جسدي لرجل يشبه رجالات الحانات وذئاب الصحراء.

أنتم رجال بفصيلة ذكورة ناقصة.

اخرسي لميا..

أنتِ وقحة، مَن يراك تتكلّمين يظنّ أنّك تربّيتِ في الشارع، وأنّك ابنة الشارع، أو واحدة من أطفاله.

أواه! أواه ولشرف لي أنتمي لأطفال الشوارع من أن أكتب على صحيفة الرجال المترجّلين على أنوثتنا!

اللواتي تتكلّمين عنهن لا يتكلّمن بهذا الكلام الوضيع.

هذا مؤكّد لأهن لم يخلقن للكلام، فأنا لا ألومهن ولكنّي أعشق براءهنّ لأهنّ أُجبرن على تقبّل واقع لا ينتمين له، ولكن الفُحش ليس منهنّ وإنّما من ذكورتنا من رجالنا الذين لم يتركوا للوضاعة أدنى منهم.

أصبحت أكره النساء لأجلكِ.

كلما أراك تتكلّمين ويتعالى صوتك كسيّدة من سيّدات المؤتمر أكره ذاتي أكره وجودي ولكأنّك مِرآتي.

لِمَ لا تطلّقني وتحفظ رجولتَك وبُكورتك...؟

هكذا خُلقت أعلم بكلّ الوضاعة التي تصفينني بها

أتمتّع بكِ وأنت تتمنّين الراحة...

تشعرينني بنشوة أتلذّذ بها...

يخطر لي أحيانًا لو أنّكِ تقتربين منّي، همسين بأذني، ألعب بشعرك، تتمدّدين قُربي، تتعبين، ومن ثم على صدري تغفين، تنامين بين يدي.

تضحك، ملء الكون، تضحك مع بكاء يعتصرها..

لا أطيق فكرة أن يملكك رجلٌ غيري، أن تتحرّري من سجني، أن تبتعدي عنّي لو لم تكوني لي يكفي أنّي أتمتع بمطر عينيك.

إذا تحمّل ما أنت به يا ذكر من وطني

لِمَ لا تذهب وتنتمي لداعش؟

يخطر لي أن أذهبَ أنا وأنتِ.

تضحك، باستهزائها المقيت قالتها: مَنْ أنا...؟

سترقص داعش جميعًا على موتي

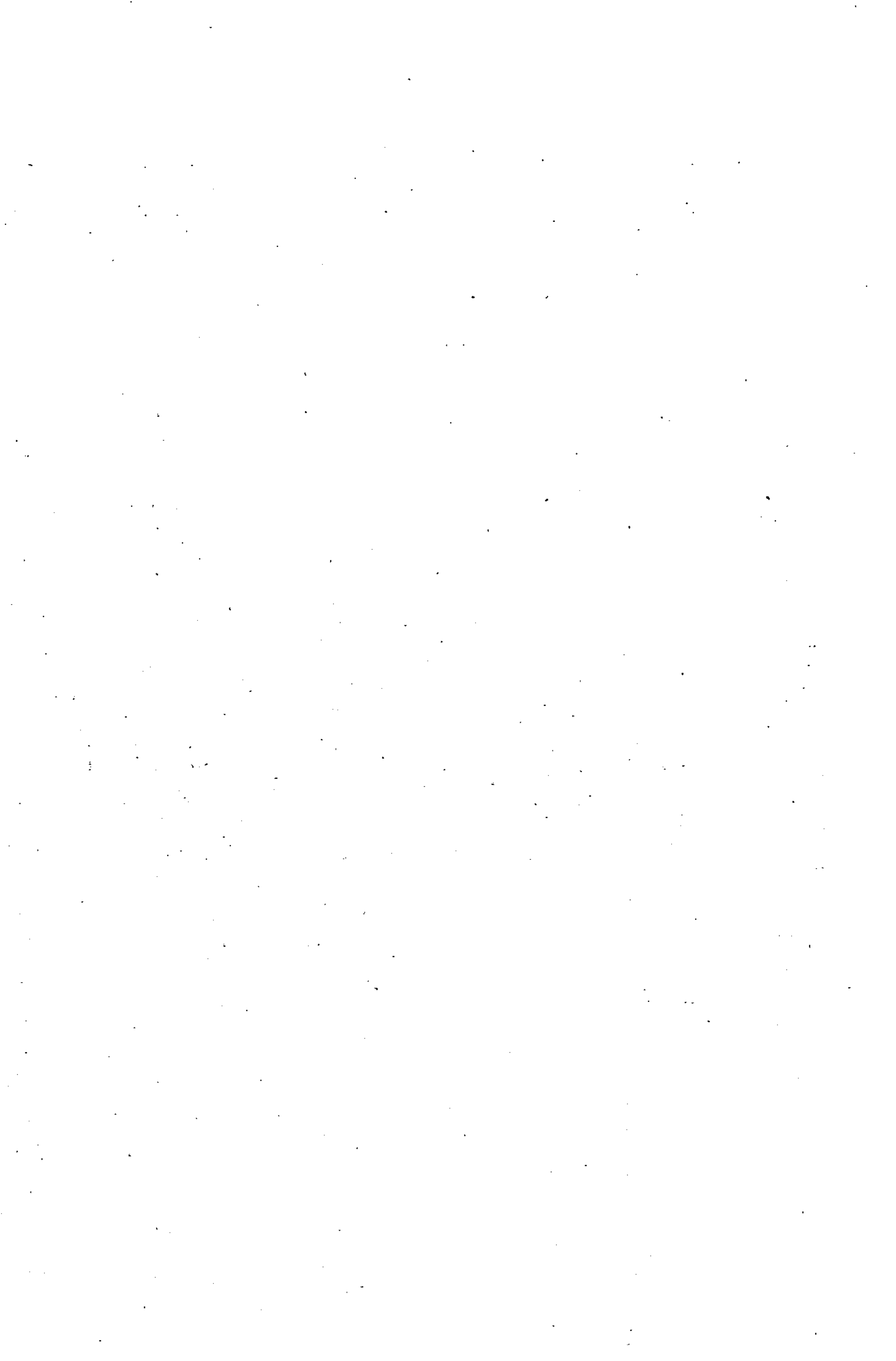
فأنا بكلّي وداخلي يخطر لي أن أصنع مجرّة خاصّة بالإناث، ووجود أنثى كأنا لا تصلح لهم.



28

تَعرّي الجسدِ لا شيءَ أمام تَعرّي الفِكر

أنتِ اليوم كلَوْنِ السماء، حوراء كمَلاك



"أجملُ الملكات اللواتي كنتُ أقرأ عن تاريخهنَّ العظيم، كنّ يحرصن على تغطية الجسد برمّته لكيلا يتشبّهن بالعُري الكامل، أريد فراشة من لا شيء، فراشة مهذّبة لقلبي".

أريد أن نمشي تحت المطر...

ولكن السماء لا تسمعنا...!

مَنْ قال لكَ هذا؟

في بعض الأحيان أظنّ أنّ الله لا يسمعنا، يملُّنا..!

الله لا يملُّ مناجاتنا أحمد.

أريد أن أعزف مطر عينيكِ يرويني، أغنّي، أرقص، أتحوّل إلى طفلٍ يتنفّس من نهديك.

أيصبح أن أصير طفلًا؟ أو أي شيء تريدينه ليرتوي من قلبك..!

تعالى حبيبي... أمسكته من عنقه، رتّبت له الكرافيت بطريقة أنيقة، أعادت له ترتيبها، فهو لا يحبّ أن يحدّده شيئًا كان يضعها ولكن بفوضويّة بدأت بقسمها إلى جزأين، واحد يسبق الآخر بطوله، بدأت بالجزء الأطول وضعته فوق الجزء الآخر فصار لها عقدة أدخلتها بها، ومن الممكن أن يتحكّم بطولها وقِصرها.

كيف تريدها حبيبي؟ همس قالها ... أنيقة كأنتِ حبيبتي لا يهمّ طولها بالنسبة لي، المهمُّ أنّك أنتِ من رتّبها.

خانته رجولته فلم يتحمّل براءة لا تنتمي لعالمه.

هو صنف من الرجال المعجونون بداء الكلمات يتلاعبون ببراءة الأنثى

تنادي أخاف أن أهرب من عينيَّ حبيبي ..!

فهرب حبيبي ...

يرتدون البداوة يخفون خلفهم عُهرَ رجولةٍ فاحشة.

مذ تلك اللّيلة وهي تنتظر أن يعيد الزمن تاريخه، أن تنجب من جديد لتعلم عنه شيئًا.

ظننت في الأسبوع الأوّل أن غيابه له مبرّر.

ولكن تكرار زيارتي على مدار ستّين ليلة، وستّين أخرى قضيتُها جيئةً وذهابًا على أمل أن ألمحه مصادفة من الخيال يولد ولكن دون جدوى.

مذ ذلك الحين وهي لم تتكلّم وكأنّ صدمتها أسكتتها حوّلتها لبركان خامد لا روح فيه.

قرّر المختار بعد موت الفتيات الثلاث ألّا تطأ قدم واحدة منهنّ خارج الحيّ بمن فيهن الفتاة الصّوفيّة كما أسماها ابنة الطبيعة،لم تشفع لها قرارات أمٍّ يوسف وانشغالها بتربية حماماتها والإشاعات الكثيرة التي قيلت عنها بأنّها سبب وفاة ما يُقارِبُ ربعِ رجال الحي إن ما كان أكثر كل من يدخل لبيتها يخرج ميّت لم يعرف أحد الفاجعة التي تصيبه، أهي فاجعة فرح لا تستوعبه فيطبُّ ميتًا؟ أم فاجعة تنبئ عن مصيبة؟

كانت تريد أن تخبره عن موت جورجينا، أن تحاوره عن الفتاة الثالثة التي ماتت دون صوتٍ كسابقاتها، بدأت تتصفّح ما تكتب غياب ستّة أشهر دون صوت أحالتها بصمتٍ دون صوت، مُعانقةً الفِراش

لم تستيقظ إلا على صوت والدها:

استيقظي يا قرنفلة.

استيقظَ عصفورُك والقرنفلة لا تزال غافية

لم تسمعها، لم تكن بوعيها الكامل لتعي ما تقول، كانت تهزّها حين شاهدت حزامًا حول رقبتها حاولت أن تستخدمه، ولكن الظاهر بأنّها لم تفلح، وكأنّ الموت لدى فتيات الحبّ سهلًا كشُرب الماء، لا يبالين بما هو بعد الموت، وبأنّ الله حرّم أن تنتهي حياتُهن بأي شكل كان، وكأنّهن لا شيء.

لديهن الحياة إما حبٌّ أو موت.

اجتمع الجميع على صوت والدها: ماذا تحاولي أن تفعلي طفلتي...؟

أحبُّ الموت أنا، أحبُّه أمي ..!

هل جُننتِ..؟

أريد أن ألحق برام، قديسة وجورجينا والبقيّة.

إنّي أحبه... تسعة أشهر كانت كافية لِتُنجبني من جديد، غادر دون أن يكلّمني وكأنّه ريح تركني بفوضى ذاكرةٍ لا ترحم.

صُدِمت الأخرى لهول ما تسمعُ ..!

عن أي حبٍّ تتكلّمين وأنت تعيشين بين جدرانِ

بدأت تحكي لوالدها كلمةً تلو الأخرى، استوعبت الأم نصف ما تقول والنصف الآخر استجمعته من هَذيانِها.

جُنّت طفلتي.

إنّه كوالدي تركني كما تركَكِ.

ليا أخبريني بأنّه لم يلمسك، أُستحلِفُك بالله.

أمي عن ماذا تتكلّمين ..؟ هل حفر المختار في رأسك فغدوتنّ لا تتكلّمن إلا بهذه الطريقة، خافي على قلبي ارأفي بي، قولي كلمة تنتشلني منّي ولا تكلّميني بطريقتكم، بعقيدتكم، بتفكيركم الموروث.

إنّه حبٌّ بريء لم يبصر النور حتى.

وتلك الأخرى لم تتمالك نفسها عندما بدأت تستعيد أحداث ولادها ونومها المتكرّر مع المختار، وفتاها التي أحبّت من داخل الجدران.

بدأت تسأل ذاها... أيعقل بأن الله عاقبها بما أنجبت؟ وزوجها الذي خاها مع أم رام والحاجّة خزامة التي هدّدها وماتت على يديها بدأت تستعيد ذلك.

وابنتها أمامها لم تشعر بذاها إلا ونساء الحي حولها إثر صراخها باسم ابنتها.. لياااااااااا

يسألنها عن الصوت الذي خرج من عندها، بدأت بإقناعهنَّ بأنّ فتاها متعبةٌ وعندما حاولت إيقاظها أكثر من مرّة ولم تستجب لها خافت عليها وبأنه صراخ لا داعي له.

اعتادوا أن يفقدن فقيدة، أن ينتحبن بصوت وكأنّه ولادة السماء من جديد، هي إحدى القواعد المنصرمة التي تُواظِبُ عليها أغلبيّة نساء الحيّ حتى أنّهنّ لا يحاسبن على هذا الصوت، متناسيات كلّ شيء، وكلّما كان الصوت أعلى كانت الفاجعة أقوى.

لم تنم ولكنّها كتبت فوق سريرها...

"مرَّ رجل بخيالي، سَرَقَ أحلامي، مرّ رجل بخيالي سرقني منّي وهربَ".

بدأت تبكي، جلست وظهرها للجدار تُنادي مَنْ يُعانِقُ خيبتي يا حبق؟

تصرخ: أنا الأنثى التي تُعانِقُ خيبتها وحدها، حبسوني داخل فكرهم وشُنقت أمام أعينهم، ولم يُبالِ بي أحدٌ.

29

"يُغازِلُنا الحبُّ خُلسةً كرجلٍ خَجولٍ".



ما بكِ؟

ماتت قديسة.

ما ذَنْبُها؟

قتلت نفسها بسكّين جدّها الكبرى

سألتها مرّة: لم أنتِ شاردة الذّهن في هذه السكّين؟

أخبرتني بأنّ عدد الذين ماتوا فاقوا عمرها، وهي لا تزال على قيد الحياة.

صدى صوتي ارتفع حين سألتُها: وهل السكاكين تموّت..؟

أجابتني حينها: نعم بعضها يودّع الحياة يملُّنا.

إلا هي لا تغادر الواقع وكأنّها ألِفَتْ نساء حيّنا، عمرها يزيد عن التسعون عاما، إنّه أكبر من عمر جدّتي الكبرى، وهي جدّة والدة أمي.

ولكثرة عُمرهما الزّهيد أصبحن يميّزن الكبرى بينهنّ بأنّها الجدّة الكبرى.

صرخت... لم تتنبّه للدم الذي بدأ ينسال من يديها.

ما بك قدّيسة جرحتِ أصبعك...؟

أنتِ تنزفين..

لم نعد نهتم وإن قُتلنا ونحن أحياء، فالدَّم الذي ترين ليس إلا بعض ماء ينسال منّا لأنّ دماءنا قد جفت ما عاد يهمّنا شيءٌ.

شعرت كأنكِ تتلمّسين جسدًا وأنت تمرّرينها بين أصابع يديك.

نحن في حيّنا لا ننتظر الموت بل ندعوه لميا.

أتصدّقين أن الموت يعشقنا..! أظنّ أنّ الموت لو لم يكن مأمورًا باقتلاع أرواحنا لما اقترب من حيّنا، ولكن نحن لا ننتظره، ندعوه على وليمة فاخرة، أتظنّين أنّه يتفاخر بخطف بنات حيّنا...؟

غازلها الحبّ خُلسةً، أتاها الموت من كلّ صوبٍ وحدبٍ..

أتتخيّل أحمد بأيّ معمعة نعيش ...؟

30

"غازَلَ الحبُّ نساء حيّنا خُلسةً فركضن هربًا".



كل واحدة منهنّ اختارت طريقةً لموتها حتى أنّهنّ لم يعطين فرصة للسماء لتقرّر.

أنهينا معضلة الحياة، الأنثى داخل نفسها لا تنفكّ تعيش معركة الواقع الذي يحيط بها.

هاجَر لم يكن ذنبها جرمٌ حتّى ينعتوها بالفاجرة، كل ما في الأمر أنّها اعترفت بذنبها أمام المَلَأ، أظهرت حبّها للعلن، فكان مصيرها أشبه بمصير قطّة تهرب. من كان يظنّ أنّها ستقتل نفسها؟ وأنّها ستنتحر علنًا وهي لا تنفكّ تقبّل القرآن بين يديها؟ حتى أنّ حبّها يشبهها، ولكنّها قابلته بعكس عقائدهم، وحبيبها لم ينهزم أمام المختار، فكان الدافن والمدفون قُربها، لم يرضَ العيش دونها وما كانت إلا بضعة أيام وقُبِرَ فوقها لم يمت ميتة المقتول بل مات من الحبّ لم يحتمل الفقدان، ولم يحزن عليه أحدٌ، ربّما لأنّه وُلد يتيمًا ومات كما أتى لمّا سبّب له التعب.

ولكن أظنّ أنّ هذا الشيء كان أفضل لحبّهما.

حتى هي لم تحترف فكرة أن تنسى بين عتمة الياسمين.

اختارت أن تنام بحضن النار بدلَ الجنة، اختارت مُعانقةَ النار على أن تنام بين أشجار اللّوز.

خنقت نفسها في حمّام مترلهم المحاط بعناقيد الياسمين، أشعلت النار، كتب قُرب حائط المختار: فتاة ماتت حرقًا.

قرّر المختار أن يدوّن أسماء اللواتي يقتلن أنفسهن ليُعرِّف بهنّ الجميع ليكونوا عِبرةً لمن يأتي ويخرج، ولمن هو آتٍ مع سابق الموت محمّلًا بشعار الدفن، هو المختار لا يرحم أحدًا من شَرِّه.

أيمكنكِ أن تتخيلي كم هم سعداء الآن فوق بعضهم البعض ينامون؟ أتظنّين بأنّه سيغفر خطايانا؟

أظنّ أنّ الله لا ينفكّ يُلاحِقنا وهو يرى عذاباتنا...

لا تخافي قديسة فهو يرأف بنا.

وأن فتيات حيّنا قتلن أنفسهنّ، وهذا محرّم في كتابه العظيم جلّ علاه.

لم تكمل لميا ما كانت الأخرى تحدّثها به، كانت تعلم بقرارة نفسها بأن كلامها عين الصواب، وكانت تعلم أنّه لم يُحرّم في الكتاب العظيم فقط بل في جميع الكتب السماوية، والأخرى تحاكي ذاتها وهي

متأكّدة أنّ الصّوفيّة لن تستطيع أن تجيبها على سؤالها الذي لا ينفكّ يُلاحِقُها قطعت عليها صمتها وهي تقول: عندما سأُقابِلُ الله سأسأله كل ما يجول في خاطري سأحكي له عن عذاباتنا حتى أنّي سأشي بالمختار عنده، سأخبر جلّ جلاله: بأنّي مُتعَبةٌ جدًّا حتى أنّي لم أعد أنام ليلًا مصابة بالأرق، سأحكي له تفاصيل عذاباتي مع اللئيم والدي، وعن أمنيتي بأنّي لو ولدتُ يتيمةً، وعن جليلة المخفيّ أمرها عن العلن، وعن رام، وهاجر وفاطمة التي دُفنت وهي حيّة كما زعم المختار بسبب الجنيّة بأنّها نذير شؤم، دُفنت وهي طفلة الحادية عشرة، ظنًّا منهم بأنّها كانت ستأتي ذكرًا، خيّبت ظنّهم، وأتت فتاةً. انتظر المختار حينها ليالي طوال ليأتي الخير، ولكنّها لم تمطر كان تيمّنه بالمطر كتيمّنه بالجنّة، إن لم تُمطر في سنوات الطفل الأولى الذي يأتي مصيره الموت بالأصح إن لم تمطر في سنوات الفتاة الأولى فمصيرها الموت، فهو يرأف بالذكور، سأحكي له عن أمّهاتنا اللّواتي يعانين داء الصمت، عن حبيبي المحرومة رؤيته، وعن الفارق المقيت الذي حرمني منه، سأحكي له كيف يحبسوننا ولِمَ يكرهوننا، سأساله عن الإجابة، ولِمَ يفعلون كل هذا...؟

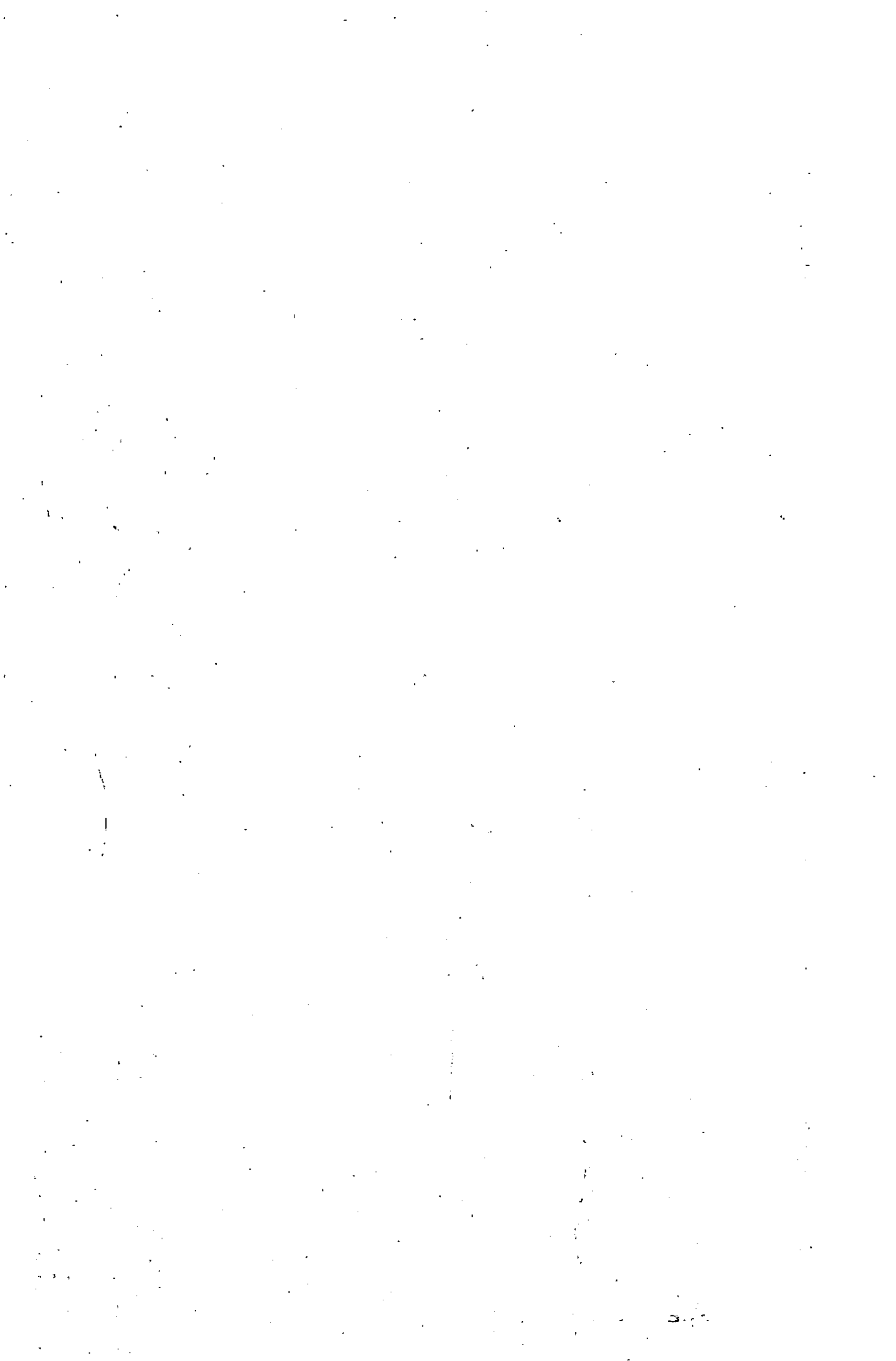
سأقول له بأنّي أحبُّه جدًّا، لا أخاف منه ولكنّي لا أطيق أن أغضبه، وبأنّه أرأف من رجالنا، سأسأله أن يغفر لنا موتنا، ويرأف برام وبأن يجمع فاطمة مع حبيبها التي لم تعرفه حتى لربّما ما زالت

صغيرة على الحب، سأسأله أن يمنحها غرفة مليئة بالطعام؛ لأنّ الأطفال يحبّون الأكل بشراهة، وسأسأله أن يمنح هاجر غرفةً تعيش بها مع حبيبها اليتيم لينجبا ثلاثة أولاد، كانت هاجر تمقُتُ الإناث وتحبُّ أن يمنحها الله الذكور فقط لربّما الآن غيّرت أمنيتها وصارت تحبُّهم.

ما يهمّني أن تحمينا الملائكة وسأسأله أن يشملك في عطفه لميا، بأن يجمعك بحبيبك المجنون، ويمنحك الراحة، سأخبره حتّى أنّك حاولت مرارًا أن تنقذينا من داء الجهل ولكنّه مستفحلٌ فينا حاولت أن تغيّري شيئًا ولكن كل شيء ضدّك، تبحثين عن مخرج ولكن دون جدوى أعلم بأنك تتعذّبين وبأنك بعد موت كل واحدة تذهبين وتقيمين مأتمًا لهنّ في غرفتُك حتّى أنك لا تنفكّين تحملين القلم وتبدئين الكتابة بأشياء لا يستطيع أحدٌ أن يقرأها ولو رآها مختارنا الخبيث لأعلن موتك وسط الحيّ.

31

السماءُ سترحمُنا والبشر سيحرقونَنا



تعلمين أنّي بحجم الصحراء أشتاق إليكِ... أشتاق إلى صوتك الملائكي فحنجرتك هذه أظنّها من اللؤلؤ البحري.

أيّتها السماء أمطري لعنة، صاعقة، إما تجمعنا أو تموّتنا.

أنا بين يديكِ طفلٌ جميلتي.

أنتَ طفلي المدلّل، طفلي الذي لم ألد، طفلي العابث في رحمي، القابع داخل أحشائي ينتظر الولادة، ولكنّي أخشى عليك من واقعٍ لا يرحم، أخشى أن أفقدَه قبل ولادتِه.

انظرْ أحمد للون السماء ضبابيّة غير مستقرّةٍ بين سواد المدينة ورمل البادية بين هدي القصيدة وخوف الطريدة أحبّها هكذا مجنونة كم هي جميلة سماؤنا!

أتحبُّ السماء...؟

هذا مؤكّد أحبها

مجنونتي أيحدث أن أقبّلكِ؟

أيحدُثُ أن أغازلكَ أن أكتب عن تفاصيلكَ المتعبة هالاتك التي أحب والشامة القابعة أظنّها شامتانِ قُرب عينيك التي تغمزني بهما أظنّها سبب خِراب الشرق القديم، وفمك الفُستقي أظنّ بأنّ والدتك كانت تشتهي الفستق وهي حامل بك، جبينك العالي كأنّه وطنٌ لا ينكسر، وجهك الطفولي بشكل يُثير العصافير لتغنّي تطربها كأنّك شتلة مطر أمطرتها السماء لتنجب لي الفرح ولو بقعة من سمائنا الموحلة تصلح لتكون صافية كنقاء عينيك.

أحتاج أن أسجد، أحتاج للصلاة والكثير الكثير من المطر، أحتاج أن أسجد ساعات طويلة كما يسجد المصلّي طلبًا للمغفرة، أنا أحتاج لها لأستوعب الكمّ الهائل من الفرح الذي أنا فيه.

أتظنّ أنّ السماء تُباغتنا بلمسةٍ أبويّةٍ كأيتام على رصيف الحياة؟

أحتاج أن أصلّي لأستوعب هذا الهدوء الذي يسكن وجهكَ عصفوري.

تعالي نهرب ونضيع في ساحات الجنون لا تنتظري رحمة المختار!
تعالي أُرتّلك عند الفجر، أستشعرك منهدتي، أنتِ مطري.

أين نذهب من كلمات حبّنا ومن دموع والدتي...؟

لا تهتمّي بهم دعينا نهربْ لمكان خالٍ من البشر لا يحوطه إلا السماء، السماء سترحمُنا والبشر سيحرقوننا.

تعالي هنا سأضعُك في قلبي، أضمُّك لصدري، هنا تختبئين، لا تخافي من أحدٍ، آخذُك لفلسطين ليراك الأقصى؛ ليرى جميلتي قُربي.

وأمي...؟

لا تخافي على أحد فالمختار يرأف بنسائكم، لا تخافي عليها الجنيّة ستبقى معها. خافي عليّ بأن أُحرَم من وجهِك البريء، صوتُ ضحكتِك، عينيك، أرجوكِ تعالي معي، ستشعرين بالأمان، أنا لا أطيق مدينتي، ربما قُربكِ أحبّها أجد الراحة سترين القدس، غزّة، رام الله، يافا، حيفا، بيسان، الناصرة، طبرية، الرملة، اللّد والكثير منها.

يافا التي حكت لي جدّتي عن تفاصيل ليمونها الذي عَشِقَه جدّي الفلسطيني يااااااه!

وسأطعمك من برتقالها بيدي ...!

لا تفكري بأحد، كل شيء جاهز لديَّ، لا تكوني جبانةً ولا تقولي والدتك السبب، أنا الآن أمنحك تأشيرَة قلبي، وتأشيرة مدينتي، وتأشيرة أولادي، أمنحك تأشيرةَ طفولتي، وكُرهي للمدينة، عصياني الدائم، جنوني المستمر، المطلوب منك كلمة نعم، لا تكوني نرجسيّة، فكّري بي أرجوكِ لا تخافي من السفر لن يستطيع لا المختار ولا ألف

رجل بأن يلحقوا بنا، خطوة واحدة وأطير بكِ فقط قولي نعم وأنكِ ستفكّرين... أنتظرك لا يهم ولكن قولي نعم، لا أطيق فكرة أن أبتعد عنك، أن أكبر دونك، أريدُ أن يكونوا أطفالي من هنا، منكِ سوريانتي.

هاا، ستفكّرين؟

ما تقوليش ما فيكي.

أنا أنتظر..

هو يتكلم وهي تائهة بعيدة عن كل شيء في مخيّلتها طفولتها، أزقّة حيّهم المقيت، الحجارة التي تعشُقُ وحلَ مدينتهم، ومطر حيّهم جاءت صورة والدها (الشيطلائيكيّة) وهي تقبّلها... يمكنها أن تفعل أي شيء ومن المستحيل أن تبتعد عن ملائكتها، فهي تتذكّر الطفولة بتفاصيلها مدينتها التي تعرّفت إليها مؤخرًا كيف لها أن تودّعها، والدها الذي هَجَرَ أمَّها لسببٍ تجهّله أو لربّما تناسَتْهُ وأحمد طالعت عينيه، طفلها البريء حبّها الوحيد المتوحّد فيها، يتماهى معها، وهو يتكلّم بأشياء، لم تعد تسمعها.

هي لميا قولي أي إشي..؟

تناهى إلى مسامعه... موافقة.

لم تسعه الأرض ولا السماء من فرحته.. أخبرها متى نسافر..؟

سألته: هل كل شيء جاهز..؟

كل شيءٍ، لا تخافي معارفي كُثر كل شيء سيجري كما أُريد.

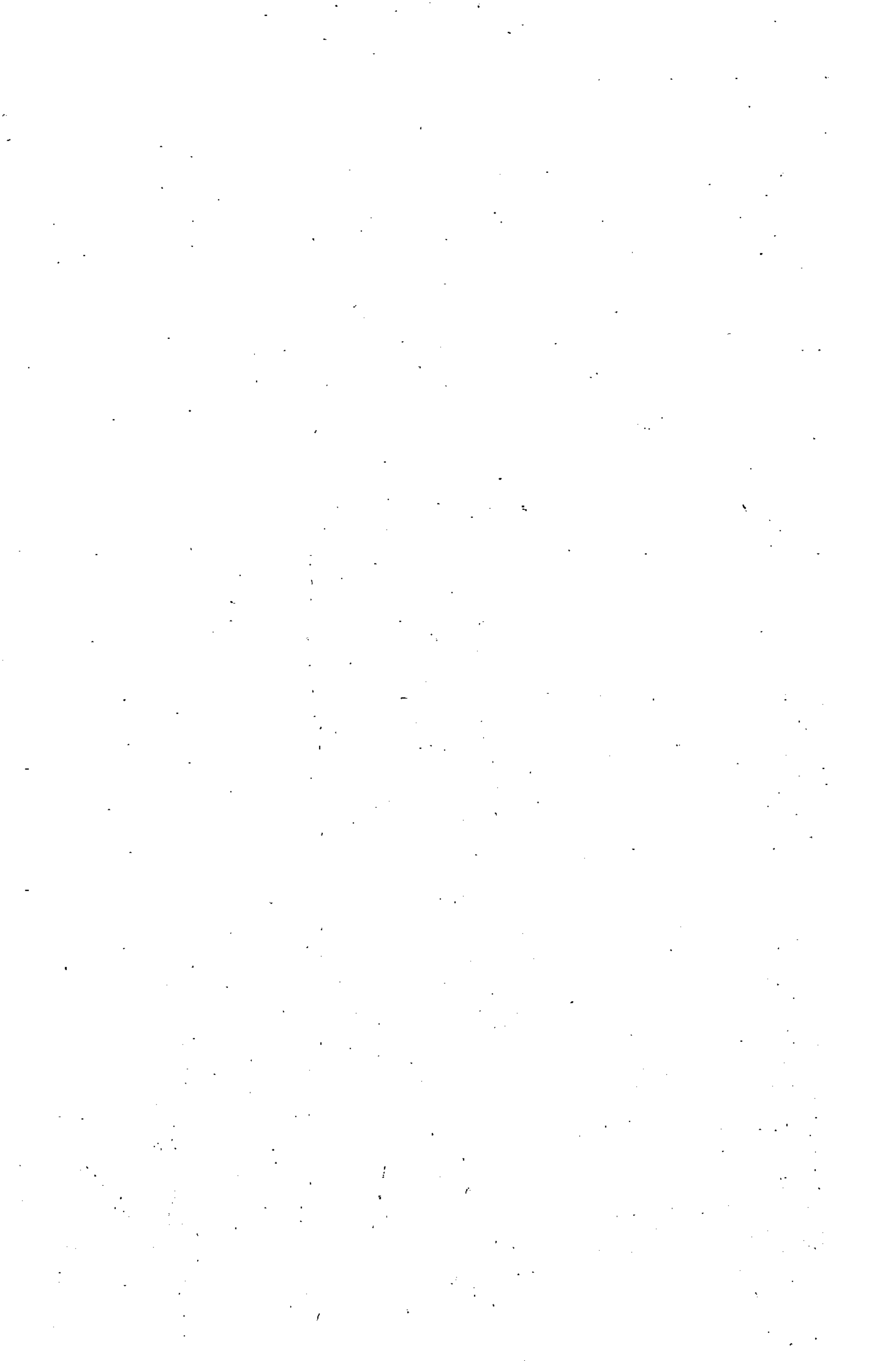
تعوّد إن أراد شيئًا أن يحصل عليه.

متى سنسافر..؟

متى أردتَ أنتَ...؟

بعد ثلاثة أيّام سيكون كل شيءٍ بين أيدينا... عند الساعة التاسعة موعد خروجك من حيّكم عند باب غرفة الموسيقى أراك، سآتي بالسيارة آخذك.. لا تتأخّري مُنجدتي...

تركته يقول كلمته الأخيرة، وغادرت لِحضن والدها تريدُ أن تسرق لها بقايا الفرح التي تشعر به بقايا الأمان الذي تمنحها إيّاه.



32

أنا لحبيبي وحبيبي إلي ...

هكذا يسمعها تغني عندما تطأ قدمه عتبة منزله، قرّر أن يعود لعادته القديمة، بقفل الباب قبل خروجه ومنعها من الخروج ليرى عند عودته طاولة الطعام مليئةً بما يُثير شهيته ولا يشتهي غيرها.

بينما هو يدخل لغرفته يسمعها تدندن داخل موتها ...

تنادي السماء تناجي الله أن يأخذها، تطلب بكل ثقة وهي على يقين بأن الله سيستجيب لها إن قالت ربّي خذني إليك وكأنّ طلبها مُستجابٌ وهي لا تعلم بأنّ ساعتها ليست الآن، لا تريد أن تدشن أمام مرأى الثكالى، لا تريد له أن يحزن لموتها تمقتُه، فجميع سنوات الانتظار تحوّلت لمقتٍ مُعوِّي.

اقتربتُ منه، ليتني لم أرَه مُنسيّة بين الطرقات، ليته لم يرني رجل من الزمن القديم، ما فائدة العمر وغدا كلّ شيء لا ينتمي لشيء حتى وطننا مَغدور، حيّنا ابتلعته السماء، والجميع ينادي بحقوق النساء، ولا

أحد يعلم بأنَّ النساء ذاتهنّ خاضعات بالقدرة الإلهيّة للوقت لآلة الرجل.

ماجوس ذكوري يُنهيها على عتبات الزمن.

هي تعلم بأنّه ينام في الصباح مع عشر نساء وفي المساء يأتي إليها كذئب يرتجي الراحة، لا يعلم أن قلبها صلدٌ لا راحة فيه.

لم تأتِ المرأة التي اعتدتُ أن أسمع صُراخها وهي تنتحب من نشوة الفرح، اعتدتُ صوتها وكأنّها تصرخ من وجعٍ.

بدأت تنفّث بقايا التعب تحمل سيجارتها وهي تقول مللتُ مُعانقةَ حُلمٍ لا أجد فيه إلا التعب.

33

كَشْف المستور



أكثر من أربعة عشر شهرًا والحديث عن الموت يُضجّ مسامع رجال الحي، أصبح همّهم الوحيد تجنّب العار من الأحياء الأخرى التي نُقِلَ إليهم الخبر عن طريق النسوة اللواتي يأتين بالحليب للمختار لتتلسّن وتغيّر ما يحلو لهم عن حيّنا وعن موت لم ترَه النساء على وجه الخليقة والمعاملة السيّئة التي تتلقّاها فتيات هذا الحي وكأنّهنّ إحدى الجواري المعذّبات، أُصيب الحيّ بحالة ذعر وكأنّهم ينتمون لعصر الكبت الذي لم يحدّد تاريخه بقدر ما تموضع على عرش العقليّة المتوارثة وكما أنه يمكن أن يُنسب إلى زمن الجاهليّة الأولى، عَشْعَشَ الجهل كما ينام السجين داخل زنزانة يعرف جريمته ربّما ولا يعرف متى تكون تبرئته.

هي لو تطير إلى العالم الثالث بصحبة الخيال.

تقول في ذات سرِّها والمختار يحلق فيها: كم أمقتُكَ وأمقتُ نظراتِك وأتمنى صاعقة تدوي بك إلى الجحيم الأعظم. وهي لا تعلم أن مَنْ تكرَهُهُ هو من يشترك بإنجابها، وأنه والدها التي تنكرُهُ.

بدأ يصرخ في وجهِها، لَمْ تلحقنا اللّعنة إلا منكِ، وماذا جنيتِ من جلساتك المتكرّرة بصحبة الطبيعة، أظنّكِ كنتِ تحاكين القبور وذلك أَفسد عقلكِ هأنتِ هنا ملقاة لا طريق آخر، أظنّك لن تعودي لحضن الطبيعة وستتابعين هنا تعاليم فتيات حيّنا واتّباع القواعد المحظورة.

تقضي أول قاعدةٍ

باحترام أوقات الدخول والخروج.

يُمنعُ خروجُ الفتاة وحدها أو بالأحرى لا تخرج أبدًا.

وتوافق على الرجل الذي يأتي به المختار، وإن كان هو ذاته اختار نفسه لواحدة ربّما اشتهاها سهوًا.

والقواعد الأخرى لم تنفذ بعد لأنه لم يؤخذ موافقة المعاونين الأعلى منه فالأوامر لا تصدر إلا من تحته لتعصف به.

وإن شذذتِ عن واحدة من هذه القواعد هنا أمام المَلَأ أقسم بأنك ستنفين إلى غُرفة العذاب التي صار لها مئة عامٍ لم تفتح، دُفِنَت امرأة مرة فيها، ستكونين الثانية التي تُفتح الغرفة لأجلها.

هو لم يقرأ ما في داخلها بأنّها تفضّل غرفة الجحيم، الموت، جهنّم أو أي اسم آخر لا يهم على أن تكون قاعدة من قواعدهم أو لربّما لن تكون إنما تنسى كأنّها لم تكن.

34

بسطت يديَّ كجناحي حمامة، فنام عصفوري

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي..



سنوات من الغياب لن يبرّره ألف اعتذار ولو كان سيّد الرجال.

أقسمُ إن رأيته لن أسمح لنفسي بالنظر إليه، وتذكّر الفوشار، السينما، البحر والمطر الشاهد على رقصي ولو أحالوه نعشًا أمامي، لن أمنحه تأشيرة الغفران.

أعادت هذا القسم آلاف المرّات وهي مستلقية على أرض الموت لا تتذكّر إلا هو، تعيد لحظات الجنون وكأنّ كل لحظةٍ حدثت أمامها الآن ولم يمرّ سنوات على غيابها ومحوها من الذاكرة، هي لا تعلم إن رأته ستنكسر كما أوّل مرّة رأته لن تملّ النظر في عينيه، ليس هذا فقط إنّما ستغازل تفاصيل وجهه التي حفظتها كطفل حفظ تفاصيل والدته.

أخبرته مرة: أنا لا أشتاق إليك ولا إلى النظر في عينيك، إنّما أعشقُ الشامة التي تجلس قُرب عينك، أغارُ منها، أريد أن ألمسها طفلي حتى أنه يخيل إليّ أن والدتك كانت تشتهي الأقصى وهي

تحملك، أظن أنكَ أخذتَ من جماله ما يكفي حتى يظن من يراك للوهلة الأولى أن لديك هيبة النبوة.

يجيبها: تفضلي حبيبتي ها... عيناي ومرجان وجهي كواكب يدي لكِ تفضلي خذيها ولا ترهميني ..

تضحك من شدّة التعب ترتجف يدها... مدّها جيئةً وذهابًا إلى أن أمسكها هو ووضع راحة كفّها على شامتِه ومرّرها على خدّه ليرتاح ممسكًا بها بكلتا يديه وهو يهمس: يدك دافئة... قطعة من الجنة أنتِ.

لم يُقاطِعهم إلا هديل حمامة سقطت على كتفه، أترين حتى الحمام يريد التغزّل بكِ

يغار منكِ...

أظنّ أنّ غيابه لن يطول سيأتيني على ظهر حصان يحملني ويسرقني أمام الملء لتُفقأ عين المختار حينها .. عين لئيمة .

أحمد كيف يمكننا أن نطير بعيدًا كالعصافير...؟

اغمضي عينيكِ وحلّقي حيث خيالك الجميل يأخذكِ واحضنيني، دعينا نحلّق أبعد من الطيور...

كم هو جميل أن تشعر بجسدك حبةّ هواء تحلّق للا شيء لا أحد إلا حبّات الهواء تداعب وجنتيك، لا واقع يلسعنا، ولا لؤم يخذلنا.

كم هو جميل أن تشعر بجسدك ريشة تطير مع الهواء.

أنتَ عصفور..

ربما عصفور من دون جناح...

بل عصفور بخيال... تعالَ نصنع من حبال واقعنا شراعًا نتسلّق منه إلى السماء الثامنة...

أيمكننا...؟

نعم...

كيف..؟

أغمض عينيكَ ودعنا نحلّق...

أيمكنني أن أقبّلك...؟

يمكنكَ...

وماذا أيضًا؟

يمكنك أن تتلمّس عينيي وأن تقبّلهما...

وماذا أيضًا...؟

يمكنك أن تجدّل خصلات شعري وأن تقرص وجنتي

وماذا أيضًا؟

سننام على غيمة بعيدًا عن عاداتنا المهترئة.. هي

على أرض الموت شاردة الذهن، غائبة الجسد.

هو لا يكتفي بكلمة ولا بفعل واحد، كل ما أعطيته طلب المزيد.



35

رجُل الكلمة الأولى

أنا لحبيبي وحبيبي إلي



هو رجل الصمت إن تكلّم يقشعرّ بدن السماء يهتزّ عرش الكون لجلالة كلماته جُنّ وهو القابع في غرفة لا تزيّنها إلا العناكب يهذي كالسكارى المتمرّدين على ملكوقم.

أنجبيني واقتليني، أقبل أن أخضع لقانون الرضاعة شرط أن تكون من نهديك حليب الجنّة أظنّه يحوي هذا النهد العابث على الإنسانيّة المتمرّد على الطبيعة. يحمل قلم حبر أزرق، يحفر اسمها للمرة المئة والثلاثين، حفره على الجانب الأيسر من الحائط وكأنّها مفردة متفرّدة بذاتها لا يروقه التمتّع إلا بين أحضان اسمها...

وهي الأخرى تُعانقُ جدران غرفتها التي يزيّن هيئتها البرد، تبكيها وحدها، تستمع لضحكات المترذّلات في غرفة آدم قبالتها، تستمع لنفحات صوتهنّ وكأنّهنّ حيوانات تجأش فرحًا، لا يسمح لها الخروج ثماني دقائق إلا بشقّ الأنفس، تغيب بضع ساعات وهو بصُحبة الخطيئة تأتي واحدة وتخرج أخرى، لم تتعرّف لموطنهم، ولكن الكثيرات منهنّ

لا تتكلّمن وكأنّهنّ ماهرات بوظيفتهن، أتين لقضاء رغبة وقبض ثروة إلا واحدة منهنّ تمكث ما يقارب الأربع ساعات، هذه دورها يكون في المركز الأخير وكأنّها خاتمة مُهر الذكورة.

تقترب من الباب لتسمع تأوُّهاتهم ونباحًا خفيفًا وكأنّه همس مُصاحَبٌ بضحكات متعالية، ركّزت أكثر أذنها اليمنى على الباب لتسمع وَقْعَ خُطواتٍ متتالية وكأنّه جري متتالٍ كأنّهم اقتربوا من الباب لتخرج تلك المرأة صرخة آه مع ضحكة متهالكة من التعب، امرأة ذكية اقتربت أصواتهم من خلف بابها وهم يصرخون... هو يقول لها بهمس: أكثر حبيبتي أكثر أحب... بك، صوت متقطّع يهمس جميلة يا جميلتي. لم تسمع صوتها إلا عندما تلفظت تلك الأخرى أنتَ مُتعَب.. مُتعَب..

يجيبها: أريد أكثر، سمعتْ طرق الباب وكأنّهم عادوا لمكانهم، لم تسمع بعدها شيئًا.

أحيانًا يصل الإنسان إلى الحدّ الذي يكره به ذاته فلا يعد يميّز بين الخطيئة الجسديّة والخطيئة الروحيّة، وكلاهما عنده سواء ما يميّزه أنّه في نشوة ولو في جحيم دائم وهذا ما يضعف قوّة الإيمان.

عادت تنهش جدران غرفتها تلتحف على بعضها من البكاء، تبكي وهي تهمس للمرّة الألف: وعدتُ نفسي بألا أبكي، ولكنّي ها هنا أبكي لا شيء منكَ وكلّي أنا عنك.

أريد أن أرقص على جسدِك.

تنهيدة طويلة... تنهيدة سماء

لا حدود بيننا فليذهب المجتمع الدولي في غياهب الضباب ولتُلْقَ كراسي الأمّة العربيّة بمقبرة الجارير ولتمُت قضايا الإنسانيّة كلها.

اقترب منها خطوة.. خطوة أخرى مصاحبة بصمت. وضع يده على شعرِها، بدأ يشتمّه مُغمض العينين لا يُبالي... اقترب إلى أن لامس نهديها وما كاد يُعانقُها حتى رآها خارج الغرفة تبكي في منزله كنحيب امرأة ميّتة، وقع راكعًا على ركبتيه،لم يصدر منه أي صوتٍ يعتصر بكاءه، صرخ: ما الحل يا مشكلة؟

نحن في وطن يحميه الدين والكتاب والمتملّقين عليه من كلّ مكانٍ ولا وجود لله فيه.

جلسَ قُربها كل واحدٍ معانقًا الأرض بطريقتِه يهمس: إن سافرت هل ستحزنين...؟

بل سأُيتّمُ دونك، أنا يتيمة لا ملجأ لي ولَمَ تسأل؟

لا شيء وبعدها ساد صمت أطول لم يقطعه حتى هديل حمامه لم يوقظه.

هو السفر ليس التبضّع بأسواق باريس إنّما رحلة إلى المجهول.

لم تكن تعلم عن حياته إلا بعضًا قليلًا والعقد التي تزيّنه ليست التعب المستقر على وجهه، إنّما هي قطع نادرة الوجود كالخطوط التي رسمت طريقها على وجنتيه، والدته التي لم يتكلّم عنها يومًا وكلّما سألتُه عنها يحيله سؤالها إلى صمتٍ طويل، ظنّت أنّها لربّما مُتوفّاة لم تكن تعلم أنّها امرأة الرجولة الفاحشة.

إحدى عشر عامًا وما زلتُ أنتظر...

همسُ هو قمر أبدًا لا يخون، جدرانُ غُرفتِها الشّاهدة على غيابه أكثر من أي مكانٍ آخر فهي الوحيدة تعلم بنحيبها ووحدتها وكلماتها المُلقاة على عتبة الوطن والدخان الذي تنفثه من تَعبِها والكتب التي تقرأ حتى الكلمات التي تهذي بها أصبحت رداء لعراء جدرانها، بحثت بين أوراقِها لتجد قصيدة خلقته فيها...

يا أبو الخال عالجبين

تاركني بالحسرة هجين

أرعن مسكين

تعال وشوف حالي تصعب عالسجين

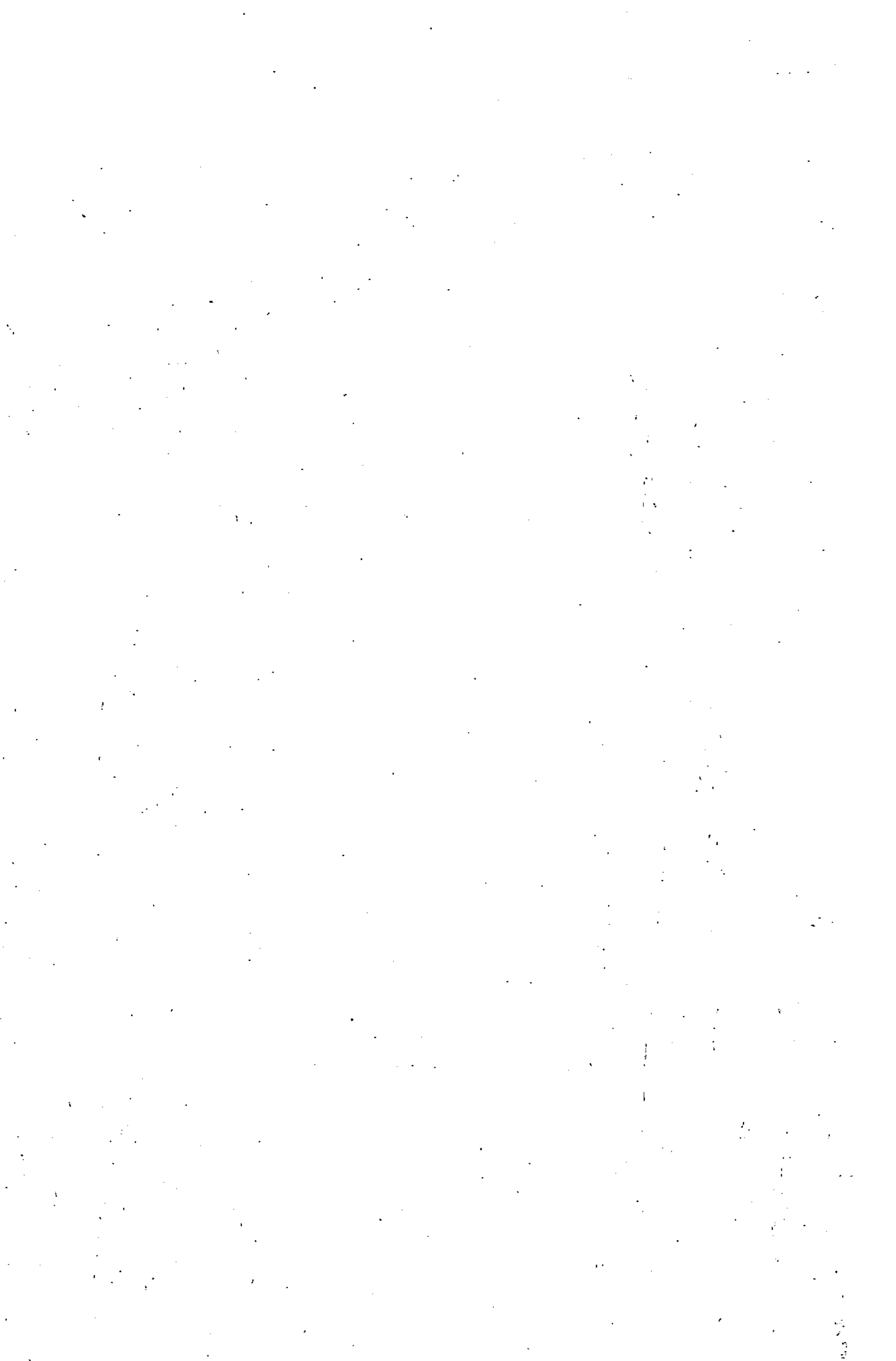
تعال وشوف دمع الجبين

يا أبو شامة على طرف عينه سرقتني من الوتين

بكفّ يده يهديني بالوتين

أرادتْ أن تُهديه شيئًا بعد هذا الغياب، غياب لا يليق بخُصلات شعرها وقفتْ أمام مرآتِها، حملت المِقصَّ، أفرغت منه هذا الجزء المتعب الذي أهلكته الأيام، حملته ودفنته بيديها ليحتفظ التراب بهيأته ...

هي حكمة الله تقضي أحيانًا بأن يُقضى أجلنا.



36

لوزة الصباح تودع الطبيعة



رَفَضَ المختار جميع المتقدمين لخطبتِها، لم يسبق وأن سألها عن واحد إن رغبت به مضى عام ونصف وهي رفيقة صراعات أحاديث النسوة عن واحدة هربت دون صوتٍ وعن أم يوسف التي يشتدّ بها الحال مع ازدياد عدد المتوفّين بين قدميها إثر فاجعة لم يتحدّث بها إلا واحد قبل مغادرته الحيّ، صَرَخَ قضيبٌ محبوكٌ مطرّز باللؤلؤ لا يستطيع أن يفتحه ولو اجتمع رجالُ الأرض، للوهلة الأولى ظنوا بأنّه جُنّ إثر جمالها الذي لا يظهر منه شيء للعلن ولعلّها تُمارس السحر عليهم، هذا ما آمنت به نساء الحي، وكأنّها تريد أن تبتلع رجال الأرض إما بالموت أو تبتليهم بالجنون فيهربون دون عودة، زاد عددُ الذين ماتوا عن الخمسين بعضهم من رجال الحيّ والبعض الآخر من خارجِه يأتي بهم المختار من حيث لا تعلم وكأنّه كلما أراد التخلّص من رجل أتى به إليها ليعلن في الصباح التالي عن وفاتِه إثر نوبة قلبيّة أو نوبة جُنونٍ أودت به حتّى الثياب التي يأتون بها يخرجون دونها تمنّت لميا لو أنّها تعود طفلة السبعة أعوام كجنيّة لترى ماذا كانت تفعل بالسحر

الأسود و بالدُّمى التي كانت تحيكها على هيئة نساء الحي ومرات على هيئة المختار لتذهب بهم وتضعهم شيئًا داخل بيوتهم ومرات عند عتبة أبوابهم حتى علمت فيما بعد بأنها مارست السحر الأسود على حيِّهم بصُحبة أمِّ يوسف، تمنَّت لو أنها جنية أو أن تكون على هيئة ذبابة تحطّ على رأسها لترى بأمِّ عينيها ما يجول داخل منزلها حتى أنّ المختار لا يمكنه أن يرفض لها طلبًا، آمن الجميع أنّها من نساء السِّحر فهي تمارسه بطريقة مُتقنة لم يرفض لها المختار ما طلبت طيلة حياتها إلا في الوقت الذي أوقفَ فيه لميا عن التصوّف في الطبيعة.

لميا متأكّدة أنّ أحجيات أمِّ يوسف سترأف بها لكنّها لم تتكلّم، تواطأت معه فهي مذ أن بلغت الإحدى عشر عامًا تخلت عن تعليمها وتوجيهها لآداب الحي ظنًّا منها أنها بلغت مرحلة الكمال وآمنت بانعزالها كصوفيّة زاهدة في ملكوت الله ولكنها كانت تنتظر ما ستمطره عليها السماء من حبٍّ حتى أنّها تواطأت بشأن العرسان الذين يتقدّمون لخطبتها، وعن كتم موت بنات الحيّ، فنساءُ الحيِّ متواطئاتٌ مع الرجال لدفنهنّ دون صوت لكيلا يُحدثن جلبًة في الأحياء الأخرى فيثوروا على الرجولة ويقطعون قُضبانهم ويعلّقونها أمام المَلَأ ليشهد المجتمع الدولي جريمة نساء من القبيلة، قطعوا قُضبان الرُّجولة ليُلقى بها في البحر دون رجعة لأن هذا العُهر سيؤدِّي الجميع إلى الجحيم على حدّ قول أم يوسف حتى والدها التي كانت تمتثل في وجهه مُدعيّةً بأنّها مع حريّة عقل ابنتها تواطأت معها على حَبْسها داخل جدران لا ترى من بين نوافذها النور، فجوره يزداد يومًا بعد

يوم لاسيّما بعد أن ضمن النساء الأكثر بلبلة واللواتي أحدثنَ الجلبة في الحيّ.

أمُّ يوسف والمرأة التي تحرس ابنتها وتحمل غطاء الفضيلة بأنّها تربّي طفلة بعد غياب زوجها بدون صوتٍ في ليلة عمياء لم يشهد فيها النور، لم ترَه بعدها، والأنثى الأشدّ تمرُّدا في الحيّ، تمّ حجزُها واعتقالها وفتح غرفة الموت لاستقبالها بحفاوةٍ وهكذا ضمنوا موت بقيّة نسائهم دون صوتٍ، أما بقيّة الرجال فهم عددٌ لا قيمة له لدى المختار، ولا يستطيع الواحد منهم إلا أن يغمغم بنعم على كل أمر صحيحًا كان أم خاطئًا، غدا الحي أعجوبة بسلام روحي تغطّيه عيون البُغضة والحاقدين مرَّ عامان من الأمان لم يشهد بعدها حالة انتحار واحدة وكأنّ أم يوسف أقامت معاهدة مع الموت أو أنّهم شنقوا عار الانتحار بكتابة أسمائهنّ على الجُدران عبرةً لمن يعتبر، الشيء الوحيد الذي لم يَقْرَبْه أحدٌ هم أرديتهم السوداء، كلّ من اقترب يُصيبُه شللٌ بالجزء الذي لمسه، وهكذا ظلّت في مكانها دون حَراك الأحياء بصحبة الأموات بعد أن حدّد دفنهنّ في الحي خلف البيوت لتسهيل عمليّة الدَّفن ولكيلا يُحدثوا جلبةً وهكذا بَقِيَ أمرهم في طيٍّ الكتمان دون معرفة أحد بموتهِنّ ولو أنهم استطاعوا أن يكتموا السماء لكتموها، وقِط المختار الذي تم تزويجه من قطّة أم يوسف باحتفال حضرة من رجال الحي جميعهم دون استثناء من أصغرهِم لأكبرِهم، أما القطّة الشقراء فتمّ توديعَها بحضور النسوة جميعهن توديعًا يليق بها من دون

أن تحضر الأنثى المجنونة كما أسماها المختار، وشَهِدَ صباح اليوم التالي الملاح لشدّة سعادة المختار بتزويج قطّه من قطّة أم يوسف ووزّع لشدّة فرحه على جميع أفراد الحيّ معمولًا بالجبن من صنع يدي أم ليا.

قضى رجال الحيّ ثلاث ليالٍ من الملاح والفرح وعمّ الهدوء أرجاءه لشدّة فرحِهم بعُرسِهم، لم يستوعبوا تزويج البشر بقدر ما فرحوا لتزويج حيوانات منسّخة عنهم.

37

حُبٌّ يتيمٌ



استلقتْ على سريرِها تستنشق الوجَعَ.

كانت تهذي: أنا اليتيمة التي لم تلقَ فرحًا.

عانقتْ بعضًا من خصلات شعرها الأديمي، حاولت أن تشتمَّ ولو بعضًا قليلًا، لحظة نشوة غفت على وَقْعِ صوتِه: نامي يا غزالة.

هل تحبّينني يا لوسيا...؟

أحيانًا يخطر لي أنّي أحبّك على هيئة طائر وأحيانًا أخرى تأتيني في الحلم على هيئة إبليسٍ مُسالمٍ وأحيانًا أتخيّلُك كأولئك الذين يخطبون على المنابر كذبًا إنّهم ينافقون على الله وأحيانًا أخرى أراك شبح أرض سُرِقَت منّا على هيئة وطن.

إنّي أكلّمك عن الحبِّ يا لوسيا...

الحبّ...!!

الحب... وغابت عيناها في سقف الغرفة بينما غطّى هو جسدَها يتابع معركته إمّا الهزيمة أو الانتصار، وهيَ لا تأتي بصوتٍ لكيلا تُزعِجَه عن أداء مهمّته، تفسح له المجال لينتهي بأسرع ما يمكن.

لوسيا إحدى الفتيات اللواتي تستعين بهنّ ناديا عندما يصعب عليها إرضاء زبون ولا تريد أن تخسر جيبه لأسلوب هذا الزبون الغريب كلّما أتى لا يطلب إلا لوسيا، وكأنّه يريد إفراغ رجولة العالم فيها بينما هو يُنهي مهمّته، كانت لوسيا غائبة عن الوجود، لم يسمع إلا صرخات ناديا تُدوِي بالمكان، ما هذا يا الله؟! لقد قتلها بتوحّشٍ، ولكنّ الطبيب أوضح أنّها ماتت دون صوتٍ ومن دون أيِّ أذًى ميتة ربِّها.

لم يلحق بها شيء وكأنّ كلمة (الحب) صعقتها فماتت احترامًا لها.

كلّما احتاجت ناديا إرضاء رغبة زبون تأتي بفتاةٍ من إحدى الفتيات المستأجرات التي تعوّدت ضمن اتّفاق سرّي وقّعته شفويًا مع صاحب الماخور الشرقيّ الذي يضمّ أكبر عدد للعاهرات على اختلاف الجنسيّات، وكانت من بينهن الروسيات هن الأكثر طلبًا ودائمًا لهن الحصّة الأكبر ومقامهن الأوّل دون الأخريات لفرط جمالهنّ، حتى أنّهنّ جميلات دون تكلُّفٍ ويستمتعن بمهنتهن، اعتدنَ عليها بعكس العربيّات الحزينات اللواتي لربّما تسمع نعيقها لتصل

لمبغاك، حتى إنّك تقضي ليالي وأنت تشرح لها مهمّتها، وهي تصرُّ على إغماض عينها وتكون خائفة دوما بعكس الروسيّة كان هذا الحديث الذي جرى بين ناديا وصاحب الماخور الذي وعدها بأن تشير للفتاة التي تريد و هو يرسلها لها مقابل مئتي دولار عن كلّ واحدة لا يقبل التعامل بالعملة السوريّة؛ لأنّها تخضع لتفاوضات السوق بين علوٌ وهبوط... و ما أن تعلم بأنّ دفّة الميزان ليست لصالحها وبأنّها وحدَها لا يمكن أن تفي بالغرض بهذا الكمّ الهائل الذي يأتيها يوميًّا كانت تحتاج لمساعدة فتتصارع هي وبناتها من الأسرع لأداء الواجب وكثير من الأحيان تستعين بفتيات الماخور اللواتي يتمتّعن بذكائهنّ المهنيّ.



38

جمالٌ مُحمّديُّ الإدراك



الساعة السادسة من يوم الأحد

ألحّت جورجينا على عدم المغادرة على حدّ قولها أنّها تشعر في الكنيسة باكتئابٍ قطبيٍّ حادّ الإدراك.. لا تملّ من مشاهدة جسدها الطّاهر، فعلى ماذا تذهب؟ ليس لديها ذنبٌ لتغفره لها الكنيسة أو على ماذا تستنجد الرحمة؟ لطالما مذ بدء الخليقة وهي لم تغادر هذه الجدران.

أتمنّى لميا لو أنّ حبلًا من السماء يهبط إلى أرضنا القاحلة أتشبّث به وأصعد للسماء السابعة، أو تهبط نقطة مطر منها تنبت خضار من ثدييَّ

وهل الأثداء تنبت خضار..؟

كلا ربّما لا تنبت ولكن من القحل ينبت الخضار ومن ثدييَّ الجّافين اللذين عمرهما أكثر من مئة عام سينبت خضار يغذّي عقول رجالنا

لأنّ الجهل استفحل فينا لميا إلى الحدّ الذي غدا به الموت أسهل من قضم جزرة.

غادرت لميا وهي تقول: إن كان من الأثداء ينبت خضار فمن جيدي سأرتكب خطيئة وأولد سماء.

تتميّز فتيات هذا الحيّ بجنوهنّ الفطريّ والكحل الذي يزيّن عيوهن، هذا الشيء الذي لم يستطع أحد أن يتحدّث عنه، بدويّات من الغجر أحيانًا إن ما كان دائمًا خلاخل تزيّن الأقدام، الكحل الذي يضعن لا يظهر جمالهنّ إنّما يتفنّنّ بإظهار الحزن المستلقي داخل عيوهن وبعض من الحنّة تزيّن أطراف اليدين.

تروي أمُّ يوسف أنّ الحنّة من أقدم الأقدمين وأنّهم توارثوها عن غجريّة أتت إليهم وتلك الأخرى بدأت تتكلّم عن شجرة الحنّاء وكيف يستمتعون بجمع أوراقها وتحويل هذه النبتة عن طريق طحنها لمسحوق لرسم النقوش التي تزيّن الجسد بها، وأكثر الدول التي تشتهر بها هي الدول العربيّة وبالأخص تونس والمغرب، كما تشتهر بها الهند، وتُزرَع هذه النبتة شمال السودان، والطريقة التي شرحت لهم هذه البدويّة عن طريقة استخدامها هي خلطها مع الشاي ليظهر لونُها وبعدها يتمّ رسمها على الجسد إلى أن يجفَّ أثرها ومن ثمّ يتمّ غسل الجزء العلوي وبعدها تكون ثبتت لعدّة أيّام وهي عادة تستخدم قبل ليلة الزفاف، تأثّروا هم بهذه العادة التي أخبرتهم بها هذه الغجريّة التي غادرت دون رجعةٍ.

39

ماتَتْ دونَ مَوْتٍ



مساء مُظلم لا حرّ فيه على الرغم من نَسمات الصيف التي تخرق القلوب، كان المصلّون يخرجون عددهم لا يتجاوز الستة أشخاص لقلّة عدد النصارى القاطنين في هذا الحيّ، فالسوء لاحقهم. كان من المؤكّد على حدّ قول القدّيس بأنّ ولده سينجب ما يُقاربُ العشرين ذكرًا، ولكنّه في ليلة مظلمة مات من حبّه الذي كتمه قبل أن يظهر للعيان، فيفضح المستور، لم يعرف به إلا أمُّ يوسف والمتوفّاة البريّة.

عندما دخلَ بولوس المنزل لم يجد فيه أحدًا ظنًّا منه أنّ الجميع في صلاة الأحد يتعمّدون الرحمة إلا هو لم يكن يؤمن بالكنيسة، فكيف يذهب؟ كان يعم أرجاء منزلهم هدوءٌ لا يَشوبُه صمت.

وجد باب حجرة جورجينا مفتوحًا حوالي ثلاث انشات .. فتحه دون استئذانٍ فوجدها واقفةً وسط الغرفة عارية من أيّ شائبة قد تؤذي جسدَها .. ذُهِلَ.. صُعِقَ.. جُنّ.. اقتربَ شَهقَ ...تجرّأ أن يقترب أكثر فخانه جسدُه، رأى نورًا لم يسبق أن رأته عيناه، لم يعلم

أنّ جسد الإناث صعب التفسير إلى هذا الحد و أنّه مليء بتفاصيل تربك كأنّه رأى نور عذراوات الأرض اجتمعن فيها هبطن من السماء ليلقين التحية، وكأنّها قطعة من الجنة، لؤلؤة تطفو فوق سطح الماء ولشدّة جمال ما رأى خُيِّل إليه أنّ الحوريّات اللواتي يحكي عنهن الشيخ محي الدين في صلاة يوم الجمعة هبطنَ على أرض لم ترَ السلام، خرج دون صوت، غادرَ دون رجعة، ذنبه أنّه اشتهى تفّاحةً محرّمة.

غادرَ ليجلس عند باب الحيّ يلقي التحيّة على كل مَنْ يدخل ويخرج وكأنه مجنونٌ فَقَدَ عقله في تلك الليلة، هذا ما بدؤوا يردّدونه.

بدأ بتمزيق ثيابه حتى لم يبقَ منها إلا القليل يغطّي ما يؤذي النظر، يصرخ... نار ... نار... اشتعلت من الحرام أرضنا، نار ستحرقني وتحرقكم.

لم يفهم ما يتفوّه به ابنه

ذهل المختار لهول ما يرى، أفراد أسرة القديس غدت تمثالًا يُحتذى به واليوم يراها مُشتّتةً وقد خرج من بينهم مجنون استمرّ على هذه الحالة ستّين يومًا حتى آمن الجميع بأنّه مجنون.

يهذي: أنا أحقّ بالتفّاحة المحرّمة التي خلقتنا من نفس المخاض، على طول الأيام التي غاب بها عن المنزل لم يستثنِ والده يومًا واحدًا لم يَزُرْهُ به، يسأله عن حاله وأن يستهدي بالصلاة، ويدعوه ليذهب ويلتمس الراحة بين جدران الكنيسة في كلّ مرّةٍ يدعوه يصرخ في

وجهه... الكتمان هذا الشيء الذي أفلتنا لا أحد يفهم ما يقول البعض يحاولون أن يجرّوه من خلال كلماتِه ويسألونه سؤالًا وراء الآخر حين ردَّ عليهم:

نار... نار

أيٌّ نار؟

نار قلوبنا.

ما بها..؟

أحرقتنا

ولِمَ عيوننا لم تنجينا...؟

ولكن ....

يأتين النسوة اللواتي تعوّدن أن يأتين بالحليب للمختار صباح كل ثلاثاء يُقارِبُ عددهن الخمس نساء يلقين تحيّة عليه ويمضين لغرفة المختار كانت المتحدّثة بينهن بجرأة وهي الكبرى ترتدي زيّ غجريّة، كانت كلماتها لا تنتمي لهنّ أبدًا وكأنّها أتت لتسأل عن حاله في الفترة الأخيرة التي مضت دون أن يأتيَ لرؤيتها، ولكنّ نار عينيه فضحه حين رآها قبالته، صَرَخَ في وجهِها: ما الذي أتى بك إلى هنا ؟...

لا تخفْ لن أفضحك ولكنّي اشتقتُ إليك.

وأنا اشتقتُ إليك ناديا ولكن هنا الأمور لا تتحسّن..!

أعرف ذلك.

وهل تعرفين أنّ الموت يُعانِقُنا من كلّ صوب وحدب بسبب لعنة فتياتنا؟

متى أراك...؟

قريبًا

وإن لم تأتِ

لا تنسي عهدنا

منزلي ينتظركَ وأنا ..

بينما هي تُكلِّم المختار كانت هناك غجريّة اقتربت من بولوس وبدأت تقبّله دون أن تستأذن، همست في أذنه أتذهب معنا حيث الروح حيث لا عذاب..؟

أذهب ولكنّي لا أستطيع الحراك.

حملته على ظهرها ولم تُبالِ بثقله البالي، سرقته منه وهربت.

أتى والده في اليوم التالي حاملًا إليه بعض الطعام، لم يَرَهُ بدأ يصرخ من سَرَقَ منّي طفلي؟ مَنْ سَرَقَ ولدي؟

عندها أجاب أحدُهم بأنّ امرأه تبدو من الغجر تضع علامة سوداء وسط جبينها مثقلة بالحُلي كانت تُقبِّله من قدميه عندما حملته على ظهرها، غادرت وكأنّها كلمح خيالٍ لم نَرَها لم نستطع اللّحاق بها في بداية الأمر كأنّه لم يرغب، ولكنّها لمست كفّيه وأعادت تقبيل قدميه خمس مرات، وهمست تعالى أحملك لنغادر، كان همسها واضحًا وكأنّه صراخ ناعم.

أجابها أنا أملك قدمين لا يتعبان وإن طلبت الصعود للسماء صعدت من دون ألم.

قبل أن يذهب كأنّه كان يحاورها انتهى به الحال بتقبيل الأرض وغادرَ.

دمعت عينا والده من دون أن يبكي على فراق حبيبه ومضى على غيابه أكثر من ألف ليلة لم يسمع عنه شيئًا عاد لمنزله خائبًا مُحمَّلًا بدمعة واحدة لم يسقط بعدها أخرى.

استيقظَ أب بولوس صبيحة يوم الثلاثاء مفجوعًا عندما رأى طفلته لا تعانق والدها إنّما عيناها جاحظتان على سقف الغرفة دون حراكٍ تعبث مع السماء مُغطاةً بملاءة سوداء نائمة في غرفةٍ بولوس اتّجه يسأل زوجته: ما حال الفتاة نائمة وسط أرضيّة الغرفة؟ بدأت تلك الأخرى تصرخ وكأنّ لعنة حلّت عليها لا تقولها يا أب بولوس.

أزال الأب الملاءة ليوقظها عندما رآها عاريَة عُري الجدران ما كان يغطّيها ليست الملاءة إنّما شعرها الفوضويّ الذي يصل لأسفل قدميها ويزيد تعانق تابوت موهّا بفرح.

أقربُ طريقةٍ للنجاة هي التعاقُد مع الموت في تحالُفٍ خبيثٍ، متى تحين الفرصة تأتِ يعانقك فيقتلُنا عبثًا من هذه الحياة.

بدأت تولول بهمسٍ دون صوت... والقدّيس مذهول إثر الشيء الذي رآه كان يعلَم أنّ لديه ابنه ولكنه لم يدرك يومًا أنّ لديه جمالًا بحدّ السماء، فُجِعَ لأنّه علم بأنّ ابنه غادر من غادرت الحياة دون صوت، ماتت مفجوعة من الفِراق.

لم يحزن والده بقدر ما شكر الله بأنّ ابنته ماتت ميتة ربّها، حمدوا الله كثيرًا لأنّه حفظه من صفعات ألسنة الرجال، فنحن نتميّز بالخوف من ألسنة العرب على أن نخاف الله.

غادرَ الأب دون أن يصلّي على فتاته والأمّ تزفّ مصيبتها وحدَها،

لم يكونوا يعلمون أنّ الجمال يغدو خطيئةً في بعض الأحيان دون الشعور بذلك.

انتهى الأمر بأنّها ماتت حزنا على أخاها المفقود...

ردّدوا فتاة من حيّهم ماتت دون صوت كمثيلاتها.

تداوُلُ الألسنة يُفضي لروايات كثيرة بعضها ربّما يكون صحيحًا والمئات منها ليس صحيحًا. لم يُفْجَعوا بموتِها، فتكرار الموت يغدو

عادةً تُعانِقُ حياتَهم، وتلك الأخرى تقضي باقي أيّامها متجوّلة في الحيّ جيئة وذهابًا لا تطأ قدمَها المترل مذ وداع طفلتِها وهجران زوجها واختفاءِ ولدها لا تكترثُ لعاداتهم البالية التي تقضي باحتوائها داخله، تغيب طيلة المساء وتأتي أحيانًا في النهار وهي تجوب وتشحذ منهم المال، تمرّدوا فماتت القبيلة.

تسأل كلّ من يمرّ قُربها أرأيتُم جورجينا...؟

هل أتى بولوس ..؟ أين أب بولوس..؟ لقدَ تأخّر

وتخبرهم أنّها ستلحقُ بهم في القريب العاجل في الأمد البعيد ستلحق بهم إلى ما وراء الشمس تغيب ما يقارب العشرين يوماً لتعود من جديد لتجمع المال.

حاول المختار كثيرًا بأن يبعث رجاله ليتفقّدوا أثرَها في كلّ مرّة كانوا يتوهون دون أن يروها على حدّ قولهم تدخل في متاهاتٍ كثيرةٍ وحارات لا تفضي لشيءٍ ومن ثمّ ينتهي بهم الأمر في ممرٍّ مفتوحٍ ليس بعده إلا السراب.

وفي كلّ مرّة تأتي تنادي... اقتربت، لقد اقتربت

بعض قروش وتقترب

ينادونها مجنونةً، تجوب حارتَنا مُدعيةً الهرب، تختلس النظرَ، تسرقُ أموالَنا.



40

رَقْصَةُ الدَّراويش

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي



دونَ مبالاَةٍ تُحاكي الرِّصيف، بكلّ تبلّد تجلُس مترفَةً بالعَتيق مزيّنة بحُليٍّ مزركَشة واحِد منهَا يُزيّن جيدَها الخَفيف كنَسمة برقصَة الدَّرَاويش أحَد المارّة رمى لهَا عَشر ليرَات امتزَج فَقْرُها العَاطفيّ بقهقهات هزّت الرصيف، سيّارَات ذات طابعٍ شَعبيّ مصحوبَة بأغانٍ أكثَر إتراقًا من سيّارَة صاحِبها فكلّ واحدٍ يندمِج مع أغنيَةٍ ربّمَا تجذب قلبه ترقصُ حواسُّه وَأحيانًا تموّت فيه كلّ شيءٍ.

"ما أنت روحي" هي إحَدى هذه الأغانِي التي انسابَت لتطرب أذنُها التي لم تعتَد إلا سَماع الحلاج...باخ... شوبان كما ينسَاب طير صغير لعشّه خلعَت حذاءها دون استئذان من الأرض لأنّها الشيء الوحيد الذي لا ينطق بكلمتين "نعم" و"لا"، وما عدا ذلك فهي صمّاء جائعَة، بدأت الرَّقص، مجنونَة، إنّها جميلة ما الذي أصابَها، جنّت، لم تنطق بعض الألسنة إلا بكلمة مجنونَة، كلّما سَمِعتها انهال لخصرِها النحيل وقعَ الطبول بأن تزيد عيار الرقص.

يتكرّر هذا المشهد لربّما يوميًّا كلّما مرّت من هنا وكأنّها تريد أن تعلّمهم شيئًا عن طريق الرقصات المتتالية التي تؤدّيها.

سألت ما اسمها...؟

لا اسم لديها.

ماذا ينادونها..؟

لا نعلم...

أريد أن أتعلّم منها بعضًا من الحريّة...

إنّها مجنونة لا تتكلّم صمّاء...

ردّدت الكلمة.. صمّااااء... صمّااااء

هذا أوّل ما انساب لأذنيها، لِمَ كلما رأوا أحدًا يعبّر عن حريّته عن ماهية ما يحب ينادونه بمجنون لربّما هو أعقل منهم، ما العُقد التي يعانونها؟ ليتني أطير مثلها، أبدأ الرقص بفكّ شعري وفتح يديَّ وتحريك ساقيَّ مع الخصر جيئةً وذهابًا، ياااه كم اشتقته، اشتقت لأجنّ بين يديه، أقبّله متى أشاء، أفكّ له ربطة العُنق خمسين ألف مرّة وأعود لربطها من جديد، أبدّل لونها الأسود بالأحمر وأغيّر له الألوان التي تناسب مزاجي كالوردي لشعوري بالطفولة أظنّه سيعشقه فهو يقول: "الطفولة لها القسم الأكبر من جمالنا" سأهمس في أذنه بأنّه في المرّات القادمة لن أدعه يأكل الدونات وحده بل سأقضم من فمه واحدةً ومن ثمّ أعود لأطعمه إيّاها وليس هذا فقط، بل سأدعوه

لرقص الفلامينكو، السالسا، وإن أراد سنستمع للأغاني اليونانيّة سأخرجه عن روتين فيروز وباخ سنسقط في عوالم ماهيّتنا المجنونة، شبقنا اللا محدود، أنا متأكّدة بأنّه لن يغادرني بل سيغفر فعلتي مذ أحد عشر عامًا وأنا أنتظر لربّما تغيّر ولم يعد يذكرني شتّان ما بين الأرض والسماء وبين أين هو وما أنا عليه الآن.

أدمنت الماضي حتّى أصابني وابلُ الذّكريات التي لا تهدأ، أيعقل بأنّه أنجب مطر وأيلول دوني؟

وماذا عن حب! أما أنا لم يتغيّر لديّ شيء من معاناتي وجهدي المستمر الذي لم أستمر به، بل أهاني، قضى عليّ، أنساني ثورتي، فأصبت بثورته حتى أنّي نسيتُ آخر مرّة ثرتُ بها في وجه المختار أنا الآن أعترف بيأسي، أعترفُ بأنّك أنت الذي أحببتني أكثر وتمسّكت بي أكثر مما فعلت.

حتى حبيبي لم أعرف كيف أحافظ عليه لو لم يغادر لربّما كل شيء تغيّر لا جدوى الآن من هذه التُّرهات لا جدوى من عودة فلسطينيّ الرّمادي أظنّ أنّ الفتيات من تحت التراب يسمعن نحيبي وينتظرنني، أظنّ بأنّهن كن ينتظرن صراخنا علنًا أو بالمعنى الأصح ينتظرن صرُاخي فسمعَ صوتَهنَّ وكتمَ صوتي للعلن.

أصبحت أتكلّم لغة الصمت، لعلّ الكلام لم يعد له أهمّيّة من أن يُسمَع لعلّ صمتي يوصل شيئًا ما زلتُ أحاول أن أُبعِد المتحيونين عن

طريقي وأن يمنحني طريقًا ولو نصف خدعة لأمارس حقّي كأنثى ثلاثينيّة ومن ثمّ أموت لا يهم، لن تنتهي من الرقص طالما ينادونها بمجنونة، جميلة تلك الفتاة، ولكنّها من الرقص تتألّم. كلّما شدّت عيار الرقص كلّما انهالوا ليروا جنونها وكلّما تعالت الأصوات ب"مجنونة" فقدت صوابها من شدّة الحب، متى هم سيتحرّرون من داء أنفسهم؟

هي لم تكن تدري بأنّ هواء اليوم يمهّد لها الطريق لرؤيته عصر اليوم التالي لم تكن تدري أنّ الواقع يباغتها، يُغازِلُها يجتاُحها لم تكن تدري أنّ جسدها بأكمله سينتفض لرؤيته وهي لم تكن تأخذ في الحسبان أنّه ابن البحر، سيكون قُربها وأنّه مذ ما يقارب الثلاث سنوات وهو يُلاحقُها دون أن يعبث بذاكرتها بأن يعرف تفاصيلها المتعبة جنونها اللّحظي معاناتها المستمرّة، وهو على علم بأنّها تمقتُه ولا تطيق رؤيته، وأنّ ناديا تعده في كل مرّة بأنّها ستجهّز له اللقاء وهي التي لن تعرف عن خذلان التي أحبّت عشيقة والدها أصبحت تخاف عليها من ريح تودي بأيّامها الأخيرة لموت دون صوت، تخاف عليها من معاناتها وبأنّها لن تصلّح شيئًا وهي امرأة لرجل وعشيقة لوطن لن تقدر ناديا ولا هي أن تستوعب وجوده داخل معمعة حياتها، وناديا التي همست دومًا لو أنّه أتى قبل هذا اليوم بثلاثة أعوام لكان تزوّجها قبل أن يلتقيها آدم، ويأخذها لجحيم أظنّها لجنة حياتها. لربّما هذا الأمر الذي جعل ناديا تكتم وجوده دومًا لأنّها تعرف في قرارة نفسها أنّ تلك الأخرى لن تتحمّل هذا الوابل من الحنين وآدم لن يتركها بهذه السهولة، فهو شرقيّ متمسّك عندما يتعلّق الأمر بالفوز.

41

هل الغِيابُ يزيدنا يُتمًا أم يميتُنا حنينًا...؟

أنا لحبيبي وحبيبي إلي

وكأنّ فيروز كانت على علمٍ وهي تردّد هذه الأغنية بأنّ عين حاسد ستصيب حبّنا، وكأنّ الجميع قد حادَ عن الحُبِّ فقدوا شهيّته، فقدوا رائحته.

رائحة فنجان القهوة بعد انتهائها على دلوته الأم.

مضى اليوم الألف وستون وما زلتُ أتذكّره كان شبحي الذي لا ينفكّ يُلاحِقني وكأنّه يُداعِبُ وجنتيّ، غافية على حِضنه، لا أعلم إن كان الغياب يزيدنا يتمًا أم يموّتنا حنينًا؟

مات الجميع ... انتفضَ الجميع وجنّت السماء، وما زلتُ على قيد الحياة أعانِقُ خيبات نساء حيّنا، القراءة هي الشيء الوحيد الذي لا يخون، يسمع بصدق، بصمت دقيق تشغلك عن اللّهو بملذّات الكون.

كم أتمنّى مروره الآن، وكأنّه نسمة هادئة عابثة بي أتمنّى وجوده ولو عبثا بكلّ مفردات ذاكرتي نجلس أنا وهو.

لن يكون الصمت إنّما باخ سيّد الموقف، يعزف لنا وكأنّنا من أسطورة قديمة لن تتكرّر ولو خلقت الخليقة من جديد.

ولو قبلة من وراء الخيال تشغل فيها دماغي ينتفض جسدي حنينًا أشتهي أن أداعب تفاصيل عنقه، ظهره، أن أُخربش عليه بأشياء كصبّارة، عصفورة، تعب، حب، غزل، كحل، دونة صغيرة، حبق، بوم كبير وباندا عابثة ...أن أرسم بفمي قبلة كبيرة بحجم حبّي له، أن أربت على كتفه وأحيانًا أمسح عنهما الألم فيرتاح...

يخبرني:

تعالي بومتي

تعالَ غُرابي

لنرقص

ومن بعدها نتعبُ، نهلكُ من أثر التعب الذي عانَقَ قلوبنا، ومن بعدها ننامُ دون خوفٍ، دون احتلالِ الألسنة بعضًا من حُبّنا.

لكم أشتهي تفاصيل صلاة على جسدِه، ولكنّه أين هو خلف بلدان لا أعرفها حتّى بالاسم، يصعب تمييزُها إن كانت مقاطعة عربيّة أم إسرائيليّة

أصنع حوارًا من اللا شيء كمجنونةٍ تجوبُ المدينةَ.

تقفُ، تشدُّ جسدَها.

تعالَ أميري...

أنا هنا أميرتي تحت أمر تصرّفك... أتراقصينني...؟

في هذه المرّة لا أريد الرقص...

وماذا تريدين إذًا؟

أريد أن أمشي على رؤوس قدمي حافية على جمر قلبك.

يضحك...

ماذا؟

أنا تحت أمر تصرّفك.

استلقى وهو لا يعلم كيف سيصنع تفاصيل المشية الأولى تفاصيل امرأة واثقة بخطواتها، فهي اجتازت مرحلة الطفولة.

بدأت بالخطوة الأولى، تُردّد: لن أقع.

يُجيبها: سيحميكِ قلبي.

أنتَ أرضي.

سأفعل جاهدًا بأن أكون أرضًا صلدة تحميك.

يكفي أن تمهّد لي روحك كي لا أقع.

يضحك أثر القهقهات التي نفثها، كادت تقع.

تابعت على طرف قدمها اليمنى مرّة ومرّة على اليسرى إلى أن وصلت لأسفل البطن، اهتزّت من جديد ولكنّها ما زالت ترفع رأسها لمستوى نظرها تنفّست بعمق، اجتازها وكأنّها تمشي بتدلّل على بساط أحمر وكأنّها سيّدة من سيّدات هوليود.

الابتسامة تزيّن تفاصيل وجهه المُتْعَب.

وصلت إلى النقطة التي فوق الصرّة بشبر واحدٍ، كان قد تنفّس، سمعت شهقات تنفّسه، أنهت اجتياز الجسر العالق بين الرأس والصرّة، وعِندما وصلت إلى النّهاية، لتضع قدمها على رأسِه لتقفز سمعت صوتَه اقتليني لا يهم.

عندها وثبت كفراشة كطفلة لم يتجاوز عمرها الثماني سنوات نَهَضَ كفارسٍ أنهى مبارزةٍ ليُعانِقَها.

توقّفت قليلًا، تنهّدت، عادت لمنضدتها لم تبدأ بالبكاء أسندت رأسها على الحائط تفكّر بشيءٍ ما وراء هذا الخيال تذكّرت كلام جدّتها الباريسيّة تحكي لها تفاصيل الاحتلال تخبرها عن تفاصيل الجسد الممزّق والأدمغة المحروقة وأنّهم أعطونا ما سلبونا.

يناديها: ...

لا تسمع، لم تحبّذ فكرة المكوث دون هواء لطالما حرمت منه مدّة أحد عشر عامًا غير قابلة للنقصان ابنة الطبيعة هي لم تعِ أنّها تستنشق الموت وهي في ذروة الحياة.

تذكّرت قدّيسة حين مُنِعَت من أن ترى وجهَها وأن تشهد على دفنِها دون صلاةٍ.

تقول في سرّها: ربّما القبر يغدو أكثر أمانًا من قلوب اعتادت الموت.

مشت قليلًا للبهو المُقابل للباب الخارجي للحيّ، عادت لم تعد تعبث مع الهواء كما اعتادت، جلست ما يُقارِبُ السبع ساعات محاولةً استذكار صوت قدّيسة سبع ساعات ليست كفيلة لإنجاب صوت امرأة أنجبت رجولة أكثر من رجال الحي، هي الحياة لا تعطينا فرصة استرجاع ذاكرتِنا وإنّما تفاجئنا باقتناء الذاكرة.

دومًا هناك الحق لأشخاص سكنوا الذاكرة من سرقة محتوياتها ودائمًا لهؤلاء النصيب الأكبر مِن تعاستِنا... هذا ما قالته قبل غَفوتِها.



42

أُمسيةٌ باريسيةٌ



من الأمسيات التي تعوّد أن يقضيها بصحبة أصدقائه عندما يتحوّل منزله لماخور للعُهر الذكوريّ، كانت تلك التي تقام عادة كل ثلاثين يومًا أو ما يجاوز الشهرين هذا يقف على ضائقته التي يتعرض إليها في تجارته التي نادرًا ما تُصيبه لدهائه التجاري وحُنكته التي ربما جعلت منه تاجرًا من الطراز الرفيع، كان شكل هذة الأمسيات على هيئة احتفال باريسي يتميز بهدوئه العُذري غير صاخب ولكن ذلك كان يؤدي في منتصف الأمسية إلى شعور الأغلبية بالملال، فانقلب لديه الأمر ليتحوّل إلى أمسية رَقَصَ من الطراز الرفيع داخل صالونه الباريسيّ بجدران مزركشة بنقوش أندلسيّة على الرغم من أنّ ذوقه لا ينتمي ليدمج أصالة الفنّ العربيّ بالحضارة الغربيّة إلا أنّ المصمّم الذي أحضره والذي لم يحفظ اسمه كان يتمتّع بذوقٍ هندسيٍّ يفوق ماخوره، فكانت الجدران مطليّة بشكل يناسب الأرضيّة الرخاميّة مع اندماج اللّون البنفسجي لبقيّة الأثاث الموزّعة بشكل بسيط لا يزعج النظر

لتتناسَبَ مع شكله المستطيل لهذا الصالون باب صُنِعَ من خَشَب الماهوجني يختلف عن بقيّة الغرف وكأنّه صُمِّمَ لإرضاء ذوقه الذكوريّ، من يدخل من الباب اليميني، وهذا المعتاد تتجّه عيناه مباشرة للوحات ممزوجة بعبق شرقيّ لفنّانين كبار وبعدها يدخل مُمرّرًا عينيه على بقيّة الحاضرين بسهرة يضمّ فيها تجّار البلد مع زوجاتهم اللواتي تُميّز الواحدة عن الأخرى بمقدار ما ترتدي في حين دخل ما يقارب العشرين رجلًا مصحوبًا بزوجته وربّما صديقته بعد أن استمرّ بالإلحاح عليها عشر ساعات إلا أضعافهم وهو يطلب منها الإذن فقد بالحضور ولا أكثر، لم تقبل مرغمة إنّما كردّ جميل لأنّه يقوم بإطعامها لا تملك مال تردّه سوى بعض من هذا الشيء. في صمت من الفساتين الليليّة تظهر امرأة تُشبهُ في مشيتها زرافة ميّتة ببنطالها الأسود المخمليّ والبلوز القطني الأسود مع حذائها البني الذي اعتادت أن تخوض فيه معارك الأرض.

وجهّت إليها إحدى السيّدات سؤالًا عن العلاقة الزوجيّة...؟

عندما همّت تردّ كان صوت آدم قد أسكتها... تابعت لتقول: "الزواج هو أكبر حظيرة جحشنة يعيشها الإنسان طيلة حياته".

صوت الضحكات علت المكان وزيّنته بنوع من السخرية بينما الواحدة منهنّ تحتسي عصير اللّيمون وهي ترتّب في مخيّلتها نوعيّة

الكلمات التي تناسب هذه الهذليّة، عندما انضمّ زوجها ليرتّب الموقف بقوله: زوجتي تحبّ المزاح.

فالإتيكيت يفرض عليهنّ التصرّف بأناقة أفعى ترتدي البراءة.

صوهّنّ المعتدل القريب للهمس، حملهنّ للكأس بتلوّي الأصابع، جلوسهنّ اللّافت، هذه الأشياء جميعها مهّدت لكوهن سيدات صالونات بامتياز إلا هي لم تكن تعرف ذاهّا إلى أي طبقة من المجتمع تنتمي. كادت تُثيرُ الفضيحة لولا إنقاذه الموقف، زوجتي دومًا تثير المزاح.

اعتذرت عن الجلسة بحجّة الألم المعدي الذي يُرافقُها وأبدًا لم يشعر أحد بفصامها الذي تعانيه بين ماضٍ لا يغفر وواقع لا يرحم وأنّ الخادمات الثلاث اللواتي أتى بهن آدم بعد إخضاعهن لآداب ذوقه الذي يتناسب مع المدعوين سيقُمن بالواجب الذي وكّل إليهنّ بسهرته عندما اعترضت إحدى الجالسات ولكن لا يطيب الجلوس إلا معك يا جميلة عندما ردّت لها أينما تحلُّ الجميلات يطيب السهر عن إذنكم.

تثاقلت مشيتها وكأنّ الألم يعطيها فسحة من الراحة ليعانقها من جديد، انتبه الجميع للصوت الصادر من قدمِها عندما همست واحدة بأذن الأخرى هناك امرأة ترتدي الخلخال كنت أظنّه خاصًّا بنساء الحانات.

الخلخال هو الشيء الوحيد الذي يعانقها، هو الشيء الذي بقي منه عندما ألبسها إيّاه وهو يقول لا يليق بقدمك إلا الفضّة وهو من العتيق أكثر ما يمكن أن يزيّن هذه القدمين العاجيّتين المنتفختين إثر التعب عندما أخبرها البسيني خلخال بقدمك، وإن تعبتِ استلقى على ظهري وتنفّسي. هو الشيء الذي ساومَ عليه وإن لزم الأمر كان سيسرقه من بدويّة عندما بدأت تحادثه عن أيّامها الخوالي وهي الآن تفتح بالكفّ لكسب المال على الرغم من نصف الذي ترويه إن لم يكن كلّه لا يُصدّق ربعه يعيد الأمل في قلوب مهجورة ويزوّج العانس ويُعيد العاهرة بتولًا عذراء بأنّ حبيبها سيأتيها على ظهر حصان أبيض ليخطفها أمام الملء ويذيع صيتُها. كانت تخبره القصص عن خلخال سيحدث العجائب إن ألبسه في قدم محبوبته لن تكون لغيره، طلبت منه خمسة آلاف ليرة سوريّة مقابل خلخال من الفضّة في حين لا يساوي ثمنه نصف الذي طلبت، أعطاها ضعف المبلغ تيمُّنًا منه أن عشيقته لن تكون لسواه، أو كان يريد لأحد أن يؤكد كذبته التي يعيش فيها، عندها فقد اعترفت أنّها سرقته، أخذت النقود اشتمّتها ووضعتها في جعبة من صدرها الفضفاض ليرتاح.

تقول: هنا تنام النقود، تنام لتجد الراحة والسكينة.

سألها: أين تنامين...؟

أنام في أحضان شرنقة.

بدأ يضحك: وهل للشرنقة مكان...؟

بدأت تشرح كإحدى السيّدات المثقّفات ولكأنّها تخرّجت من السوربون بأنّها تصف الرجل بشرنقة، هذه الخبيرة بفنون الرجال لا تخجل ربّما تستنكر فكرة الخجل فهي تنتمي للقلّة القليلة الذين لا يكذبون على الحياة، بل يمارسونها بطبيعتها الهمجيّة حتّى أنّهم يعشقون مفاتنها، بالنسبة لهم سرّ جمال هذا الكون هو عيونهنّ وكحلِ جفونهنّ وقراءة ما يخفي الكفوف والكشف عن المقدور بطريقة تبهم الغريب بعضها صحيح والكثير الذي يخطئ ولكن بأمل.

كلّ واحدة منهنّ بدأت الحديث حسب اهتمامها، من الواضح أنّهنّ جميعهنّ سيّدات مجتمع، يجلسن على طاولات الجمعيّات والمدّخرات الشهريّة التي تُوَزَّع ضمن قائمة المحتاجين وهي تُمَرَّر من تحت الطاولة للمعارف، كلّ واحدة منهنّ تختلق كذبة كنسمة هواء ملوّثة لم تعِ شيئًا مما يقولوه، البعض يجيب بنعم والآخر يرفض وهي في المنتصف تراقب حركاتهم المتقنة، انسحبت كما ينسحب سجين من قرف حياة تدّعي الحياة.

في طريق عودتها لغرفتها بصقتْ على يمينها وهي تهمس: أعوذ من جلوس لا يحوطه إلا نِفاق السنّة نتنة ..

خرجت دون أن يشعر بخروجها وكأنّ الزمن ينصفها، يعطيها فسحة أمل ذهبت للرصيف للشارع للحيّ للهواء للأحجار التي اعتادت أن تكون برُفقتهم.

بعيدًا عن أنفاس الحيّ.

كان يخبرها هنا المترفّعين عن قضيّة الحياة، لن يكشف مختارك الحقود قصّة عشقنا، كانت تنهال بالضحك كما اليوم تنهالُ بكاء.

تقول: مات الهواء الذي أتنفّس منه، فأنا لم أقصّ شعري ثانيةً مذ مغادرته إلا ليلة البارحة خوفًا من أن ينقطع نفسك عنّي.

المرأة في الثلاثين تختلف عن أنثى العشرين تنضج بشكلٍ يثير جمالها على الرغم من عدم مبالاتها أحيانًا لتفاصيل مفاتنها.

تمشي بتدلّل ببطء لتتذكّر تفاصيل الحَبَق العالقة على الجدار ما زالت كما هي ترتجي الراحة من الياسمين الذي يتدلّل على وجودِها والطرف المقابل هو المرآة المنعكسة للآخر، ياسمينات تتكحّل بمفاتن الحَبَق ليزهّر أمام الملء بعيدًا عن التعب العالِق على أغصانه.

بالنّسبة لها الوقت في تذكّرهُ يمضي وكأنّه دقيقة، فمئة عام بالنّسبة لها ستّون دقيقة لا تشبع ذاكرتها.

رنّت الساعةُ الثانية عشرة إلا خمس عشرة دقيقة متّكئًا على كرسيه الهزّاز قبالة الوقت ينتظرها، المكان فارغ من كلّ ما يشوهه،

أعاد ترتيبه وإفراغهِ من كلّ شائبة فتح الباب كان في انتظارها عندما استقبلها بحفاوة لحسن الضيافة الذي قدّمته لم يكن للوقت أهمّيّة بوجودِها اليوم.

سألها عن المرأة ذات الشعر الأشقر

أيّ واحدة فالجميع كنّ هكذا.

التي وجّهت لك سؤال عن العلاقة الزوجيّة.

أظنّها تليق بك ودخلت لغرفتها.

أضافت: أظنّها لن تخيّب ظنّك أبدًا فِهي ترتدي نفس ردائك على الرغم من عمرها ولكنّ عينيها عين ذئب

وأنتِ أفعى سامّة.

بوجودك يا زوجي..

كانت هذه المرّة الأولى التي قالتها مذِ ما يُقارِبُ الثلاث سنوات... فرح بما سمع.. وبدأ يردّد:

"زووووجي" جميلة منها. دخلت لغرفتها فرحت لنسيانه اتيكت الضيافة بالعودة للحيونة التي اعتاد أن يعاملها بها. أغلقت باب غرفتها وأدارت المفتاح من الداخل دورةً كاملة للأمام لتنفصل عن عالمه، فهي اليوم ككلّ يوم لا تشتهي أن تعبث بذاكرتها الشهيّة، لم تعد تطيق فكرة أن يأتيها بالوقت الذي هو ملك الذاكرة.

بدأ العويل والصراخ، قال في سرّه: لا يهم ما دامت جميلاتي هناك وملاكي هنا يمارس جميع الممارسات الرجوليّة الدنيئة ولا ينتمي سوى للذكورة ولولا عُضوه الذي يتفاخر به لَتوّج على رأس النسوة جميعهنّ بأنّه أكبر عاهر ماخور في عصره متواطئ مع الإنسانيّين، متواطئ حتّى مع ذاته، ولكنّها هي حكمة الله الذي أهدته هذا الشيء، أظنّه لو كان لامرأة لكانت أشدّ رجولةً منه ولكنه وضيع بالفطرة وغفت على أثر كلماتها...

43

"أن تغازلي فلسطينيًّا، هذا يعني أنّك استثنائيّة في حُرمة الشعراء."

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي...



ملّت جدران غِرفتي الحديث معي، فحديثي دومًا مكرّر كلماتي ذاتها حتّى الهواء الذي أعبثَ به ذاته، سجّادة الصلاة هي الشيء الوحيد الذي كلّما سجدت عليها أقبّلها أدعو الله بأن يرفعني للسماء السابعة لعلّك مختبئٌ هناك في حُجرة من حجراتها،كما يُخيَّل إليّ أنّ طيفك هنا ساجدٌ أمامي يلاحِقُني كطيف حمامة لا ينفكّ يقبّلني، يُخَيَّل أنّي أرتّلك صلاة ومعبودة تَخاف السجود ربّما تراك ليس في الحلم فقط إنّما في السجود.

حاولتُ مرات عديدة أن اقرأ شعوري عندما أقف أمام الكنيسة أستمع لتراتيل صوتِها المؤذّن من الجامع الخلفي هذا التمازُج الطبيعي يُثير ذاكرتي.

لم تعد تحتمل فكرة أنّها في واقع دونه...

أصبحت أنفث عن يساري سبع صلوات والثامنة هي أن تعود لي عند الفجر.

فوق سريرها نقشت: سرقوا منّي عمري، سأحرق النار بيدي وهي ليست قادرة على كسر بصلة، هنا أمام هذا الجمع الكبير على

الجدار أخطُّ جميع المحرّمات التي أباحوها تحت مسمّى الدين، سأحرق كلّ تشريعة مهما كانت صغيرةً بحقّ الإناث، سنقيم ثورة ليست على الوطن إنّما على الرجال، نحن إناث بثورة متناقضة، كلّ شيء يغدو لا شيء الفقد يولّد بدواخلنا أشياء نشتهيها كوقوفها أمام المرآة لاستعادة أنوثتها لو بعض قليل بتبديل ملابسها بفستان أرجوانيّ مع قلم الحُمرة على الشفاه اللؤلؤية مصاحبًا بقلم الكحل، نسيت من تكون لربّما لا تريد أن تتذكّر تريد لحالها أن تمارس لحظةً من الخيال لم يسبق لها أن عاشتها في لحظات الواقع، لربّما الخيال أو الهروب إلى ما ورائه يعطيك فسحةً من الصّدق، الأمان، يُعطيها فرصة بأنّه ينتظرها في مكان ما من هذا العالم بأنّها إن تأخّرت عن موعدها سيقلب الدنيا رأسًا على عقب، بأنّه سيطعمها الدونات المغطّاة بالشوكولاتة، بأنّها طفلته المدلّلة. تريد أن تعبث بتفاصيلها المشاكسة كالجلوس وحدها واستحضاره في خيالاتها مع صوت فيروز الذي أعادها من تيتّمها لواقعها بكلماتها "أنا لحبيبي و حبيبي إلي"... زياراتها المتكرّرة إلى ما وراء الواقع أفقدها من تكون، سألت ذاتها لِمَ ترتدي اللّون الأرجواني؟ لم يسبق أن ارتدته هي تختبئ وراء انفصامها الفطري عادت ومزّقته دون أن تبدّله وكأنّها تريد انتشاله منها بتفاصيله بتعقيداته المربكة، تريد أن تخبره كم طال وجودك فيّ، ألم تملّني كما أنّي مَلَلتُ ذاتي ... أناجي ربّ السماء أن يحتويني بين يديه أو يرميني باللا مبالاة إلى قلبك لأستحوذ عليك بكلّك، بكاملك، بأن أكون لا فراشة بل بومة تحميك بصمتِها.

44

البِذْرَة المحرّمة "الحُبُّ"



شاع خبر أنّ فتاة من بنات الحيّ أعلنت انشقاقها عن بناهم وأنّها تمارس البذرة المحرّمة وهي البذرة البريئة والطفلة الشهيّة "الحب".

رأوها مصادفةً بين أزقّة الحارات تجوب الموسيقى بصحبتها تعلن جمالها للغرباء في غُرفهم كلّ فرد لا ينتمي لعصبيّة أفكارِهم فهو غريب محرّم عن نسائهم.

صَدَرَ قانونٌ يخصّ كوكبهم مفاده..

"تُمنع منعًا باتًا هذه المجنونة أن تُمارسَ الحرام "الحب" وعليها أن تخضع لحكمة المختار، والشيخ الذي يبلغ من العمر المئة والثمانية أعوام مضت والقسّ الذي انقرض من قبل أن يعلن وفاته وقضي بأن تُحرّم من الخروج إلا بعد التأكّد بصكٍّ يثبت بأنّ الحبيب لم يقربها، وأنّه رجل تحت شرع الله وأمام الملأ وأن يتمّ الموافقة عليه أمام الجميع ما عدا قطّ المختار."

في الوقت الذي صدر فيه النبأ أمام مرأى الجميع كان الحبيب قد نُفِيَ أصبحَ في عِداد المخفيّين.

ثلاث محاولات هروب أودت بها لغرفة الموت عندما رأوها تجوب إحدى الحارات عندما لهث بها التعب وأرادت أن تقف قليلًا بصحبة حقيبتها المؤلّفة من لفافةٍ سوداء فيها القليل ممّا تحتاج كان أمرها قد كُشِفَ والقوّادة أمُّ يوسف سبب كلّ هذا البلاء، كانت قد عرفت مخبأها وأخبرتهم به في غضون عشر دقائق كانت غرفة الموت في انتظارِها.

كان المختار يثير الكلامِ، ما يحاول القيام به هو تزويجه لأكبر أرملة معمّرة في الحيّ وهي أم يوسف وهو على يقين أنه سيجنّ لأنّ ما من رَجل دخل لغرفتها إلا وجُنّ ومارس الشُّذوذ السبعة، لم يعلم أحد بأنّ سبب جنونهم هو فرجها الذي حاكته بيديها وبعنايةٍ فائقةٍ حاكت الشيء الواقع بين ساقيها لم تُبالِ بالوجع الذي أصابها لولا وابل الدم الذي استمرَّ سبع أيّام بلياليها، كان الهاجس الوحيد الذي يلاحقها هو أن تخيط هذا الشيء الذي يربك البشريّة.

تكاثرت الألسنة عنها بأنّها امرأة لا تتكلّم صماء ما يتكلّم فيها هو عيناها فهي تتقن لغة العُيون.

يقال عنها: إنّها المرأة الوحيدة التي قتلت طفلتها بيديها ولم يُعرَف من ابنتها، انتشرت بعض الأقاويل أنّها عاشت عشرين عامًا والبعض

الآخر أربعة عشر وآخر رواية بأنّ ابنتها كانت تحمل طفلًا بالحرام لهذا السبب تواطأت على قتلها بيديها. الرواية الصحيحة أنّها قتلت طفلتها الوحيدة بيديها أمام عيني زوجها لحملها بطفل من المختار ممّا سبّب فاجعة أودت لموته ومذ ذلك الوقت وكأنّها تنتقم من رجال الحيّ.

كأنّ وحيًّا من السماء أخبرها باللّعنة التي تلحق فتيات الحيّ واحدة تلو الأخرى لخطيّة فتاها التي اختارت لها مصيرها قبل أن تختار الموت.



45

ماتت ووعدها لم يمتْ.



أخبرهم بأنّ بعد موتها سيموت أربع إناث، مات ثلاث منهنّ وبقيت واحدة من أجمل نساء الحي.

إنّ قارن جمالهنّ فهو جمال لا يُنافس، مسدلات الشعر، اللّبّ كالفستق والجسد بدر لم يرَ النور، يسرق السجين من سجنه، يُحرّر الوطن من المعتقل، ويحمي الميّت في ليلة القدر، منحوت بعنايةٍ فائقة، فكلٌّ تفصيلة لربّما قُضيَ مئة عام لإنجازها بهذا الإتقان الإلهي.

حيٌّ سُرِقَت فتياتُه من بين أعين الرجال.. الرابعة التي ظنّ الجميع بعد حبسها بأربعين يومًا أنّها ستهتدي ولكنّها لم تهتدِ فتواطؤ كلاً من أمِّ يوسف ووالدها وموافقتهما على حبسها في حجرة الموت التي لم تُفتح مذ ما يقارب المئة عام هناك بقيت منفيّة عن النور وعن ضجيج الحيِّ وآهات الإناث داخل هو مربعٍ عرضُه مع طوله لا يتجاوز الثلاثة أمتار مع فتحة صغيرة يزورّها نورٌ خَجِلٌ منها، معتمة بشكل نهائي، يحيط بك السواد من كل جانب. مكان قضاء الحاجة هو على

رمل أرضيتها، تُغْلَقُ بباب مصنوع من الحديد الخالص، لم يسمح لها الخروج منها الا قبل موتِهم بيوم عندما خطفتها ناديا بأمر من المختار.

في الليالي العشر الأولى كادت تُصاب بالعمى لولا جدتها الباريسية التي زارتها في الحلم وهي تخبرها سافري... تكرر منامها أكثر من سبع مرات حتى فهمت كيف تسافر... كان يحين مغيب الشمس عندما تأخذ تموضعها بلفٍّ رجليها إحداهما فوق الأخرى، تعقص خصلات شعرها للخلف، تفتح يديها هي تتحكم بإغلاق عينيها غير مباليةٍ بالسواد الذي يجبرها على إغماضهما لتبدأ رحلتها في الكتابة عن نذالة أم يوسف وكشفها لخدعة المختار، والنسوة اللواتي يدخلن إليه خُلسة حتى أنها توصلت إلى أن نسيت الطعام الذي يمرر إليها من صُنع والدها، لم تعد تميز طعمه ولا حتى لونه أصبح كل شيء لديها سواء، لم يعد يهمها ما وصلت إليه في مرحلة مخاضها داخل الكلمات. حتى أنّها كانت تسمع كلّ شيء يتناهى لسمعها بأنّه خلاصهم وكأنّها لعنة جليلة تُلاحِقهم، ماتت دون صوتٍ، وما زالت لعنتها إلى هذا الوقت لم يعرف عنها لولا الورقة التي رأتها تحت الرمل التي كانت نائمة فوقه، أضاءت من نور خافت كان يزورها من ساعات الفجر من نافذةٍ قريبة إلى شقّ أكثر منه نافذة شبه موجودةٍ عندما قرأت...:

أنا جليلة ابنة الواحد والعشرين عامًا أنا المعذّبة من داء الخطيئة ألبسونا العار تحت ألسنة القيل والقال، أنا اليتيمة على رصيف الحياة، استغلّني المختار بحجّة أنّي أحببت عابر سبيل لم أرَه إلا مرّةً، شاب عمري بعدها هنا في هذا المكان أُعلن حملي والخطيئة هي أنّي أنجبت طفلًا من رجل يناهز عمري بضعفين ابن حرام لولا وجود أم يوسف التي اقتلعته من جسدي، وهنا وعلى هذه الورقة طفلي يلعن الجميع وأنا لن أغفر خطيئتكم، فخطيئتي ستلحقكم للموت، وحتّى في القبر سأخرج من بين أعينكم أنادي مَنْ سرق طفلي؟ سألعنكم ليوم القيامة ولو كان غدًا فَلتَقُم القيامة، لقد آن الأوان بعد ساعات قليلة سأموت تحت يدي أمي الملوّثتين بدمائي وستدخل مجرمة أخرى على مرأى الجميع بحجّة أنّ الحبَّ ممنوع ملعون تحت ألسنة القيل والقال وبنات حيّنا سيموتون خطيئة وأنا الخطيئة الكبرى أعلن موتي بهذه الشمعة وداعًا ليوم القيامة.

لم تكد تصدّق ما قرأت، جليلة ماتت هنا.

هل يعقل أنّهم أخفوها خوفًا من الفضيحة؟ وأم يوسف الخبيثة متواطئة، والمختار من أكذب رجل على وجه الخليقة، نحن لا نعيش في حيٍّ للبشر وإنّما كأنّنا نعيش حياة البهائم. أظنّ أنّنا نحن البهائم تأخّرنا عن موكب التقدّم لربّما إصراري المستمرّ زاد مقته، نساؤنا هم العقدة الأكبر، أظنّهنّ متواطئات بكلّ شرف مع رجالنا وقط المختار أظنّ أنّه يملك رجولة يناهز جميع الرجال، فتاة، طفل، مختار، أم يوسف لعنة الله على من كان السبب في كبتنا.

غرفة سوداء، أرضيّة رمليّة، ضوء يأتي من فتحة خارجيّة يختفي عندما تغرب الشمس والمنفيّ ماذا تراه يفعل، أترى نسيني؟!

لم أذنب بهذا الشيء العظيم لو أنّي لم أتأخّر لما كشفت أمري أم يوسف ولكنت تركت كلّ شيء ورائي، لهربت إلى القدس رأيت جمالها الذي يملك نصفه على ما أظن، أين هو الآن...؟

بدأت بتخيل أماكن وجوده داخل كل تفصيلة من جسدها تحت جهنم جلدها!

هل عاد لموطنه؟ غادرني دون مغادرة.

بدأت بالكتابة وهي تستعيد لحظة توضيب بعض من ثيابها، وضعت فيها فنجانها المزين باللّون الوردي أحضرته لها جدّتها مصاحب بدفتر صغير وقلم قرّرت بعد جلوسها ثماني ساعات مع ذاتها وهي تراقب جدران طفولتها، تفاصيل والدتها، انتهى بها المطاف بالمغادرة مع مَنْ تحب لأوّل مرّة تشعر بأنّها ذاتها، رتّبت ساعات الخروج الساعة السادسة صباحًا سيكون الجميع في منزله حتّى المختار لن يكون قد استيقظ، ستخرج دون رجعة، ولكنّه هو نداء الأمومة، نداء اليتم وجودها مع ذاتها تنتظر أن يأتيها مَنْ يعوّضها عن شعور اليتم الذي احتلّ تفاصيل طفولتها تائهة كمشاكسة تريد مباغتة من يأتيها هو الآخر يعدّ دقائق حضورها، كل ما يملك أصبح في طيّ الانتظار،

ملك الوقت زرع المكان جيئةً وذهابًا أكثر من مئة خطوة وهو يردّد على أصابعه:

ستأتي،

لن تأتي،

ولكنّها أخبرتني بأنّها ستأتي،

أظنّها لن تخيب خيبتي فأنا فاقد الحب،

أعاني الفَقْدَ من سوء الذاكرة، من يُتم الأمومة.

أظنّها ستأتي،

متعب أنا أرجوك لا تخذليني.

بَقِيَ على هذه الحال وهو يردّد جملته: أرجوك لا تخذليني وتعالي، تسعين دقيقة انتظرها يومين متتاليين مضاف إليهما تربيعهما ولم تأت، همّ بالمغادرة دون أن يسأل أين تكون، عندما رنّ جرس منزله صدمَه المشهدُ، امرأة من أيّ عصر أتت لا علم له بردائها الأسود، طولها الممشوق وهيئتها التي تظهر فيها بكلّ ثقة، جسدها المكتظّ، ونظرتها الحادّة، وصلت إليه رائحة تنفّسها وكأنّها قبل مجيئها كانت قد أطفأت آخر سيجارة لها .

وهو كل ما كان يشغله أنّها خذلته وهي الأخرى تفكّر أنّها لو كانت ريشة حمام تطير إليه كان الخيار بين يديه، ولكنْ هو رأفة بما

أمامه أفقدها صوابها شعورها بأنّه سيكون لها، بأنّها ستراه، لم تعِ بأنّه ذهب دون رجعة، لم تعِ أنّ أم يوسف دبّرت كلّ شيء، لم تعِ أنّها ستكتب عن زياراته وانتظارها له على لوح الذاكرة، وهو لم يعِ بأنّها تعاني داء اليُتم الطفولي، فرؤية والدها لها في الجرم المشهود بما تحمل سلّمتها أم يوسف لوالدها بيديها، وهذا ما جعل موقفها مدعومًا بشكل أقوى بأن تفسح المجال للمختار بأن يحبسها داخل غرفة الموت.

46

"المجانين كالأطفال في مُخيّلتِهم كُلُّ شيءٍ ممكنٌ، ولا شيءَ ممكِنٌ لهم".



خراب ...خراب... خراب... حرب دمار وشؤمٍ هذا كل ما سيحلّ بالعِباد ...

كما يُنادونه الحاج فلامينكو على الرغم من الروايات الكثيرة عن اسمه الذي نسيه في أحد الطرقات التي تاه فيها.

بدأ أحد رجال الحي يروي أنّه جاب البلاد كلّها مشيًا، وفي كلّ عام يأتيهم وهو ينادي: نار، نار، وكأنّ جهنّم نهضت من مكانِها، يتميّز بهيئته الهمجيّة وشعره الأشعث وهندامه الذي يرتديه، وكأنّه لون الأرض، بنطال فضفاض من بقايا قماش ناهز قرنًا ونصف القرن، لحيته التي تصل لأسفل بطنه في كلّ مرة يزور فيها الحي يهذي بكلماتٍ مُبهمةٍ مفادُها أن النساء قد نُفين، جميع الإناث سُرِقن لن تنجب السماء مطر.

كانت آخر زيارة له بعد وفاة جورجينا في أكثر الأحيان لا يظهر إلا بعد الوفاة أو قبله بعدّة أيّام وكأنّ الموت عقد قرانه معه أو أنّه متواطئ هو الآخر.

عارض المختار فكرة وجود المجانين المتكرّر ولو أنّ باب الحيّ لو أُغلِق في وجه الغرباء لن يُحدثَ جلبةً ولكنّه لم يمانع لأنّهم من الصِّنف الذي يحكي دون أن يعي شيئًا على عكس تفكيره، فالمجانين هم أكثر الناس صِدقًا، فيدُهم على قلوبِهم وهم أقرب للسماء من العُقلاء، وجوده يعطي طابعًا فوضويًّا يجلس ليرتاح وسط الحي، يُراقِبُ تهافُت الرجال ونُدرة النساء، القسّ الذي يمشي يزور الحيّ وكأنّه في كلّ يوم جديد لم يقربه، حُرِم نعمة الكلام مذ ولادته. الشيء الوحيد الذي يزيّن صدره هو الصليب الذي يعطيه بعضًا من الأمان على امتنانه عندما يرى الموت اقترب يضع يده على صدره ويُتمتم بكلماتٍ مُبهمةٍ لا يفهم أحد منها شيئًا والشيخ المتسامح مع جميع طقوس الحياة بعد تنحّي الشيخ السابق من بعد وفاة قدّيسة، الجميع في تناغمٍ مغطّى بالآلام مكتومة محرومة طعم الحياة.

لا يرَى ما يُرى، وكأنّه ينتظر موت واحدة لا يأتي إلا بعد فوات الأوان، يريد أن يشهد الموت من أمامه، ربّما يُعانقُه يوشوش له بأن يرأف بحال المساكين، يشتهي أن يرى صبابة تروي الظمأ ولكن دون جدوى.

كان يحمل بعضه ليغادر عندما تذكّر اليماميّة التي همست له لا تغادر الجنون جلس مذهولًا من الرداء الأسود الذي ترتديه، لم يرَ منها شيئًا حتى مشيتها المعتدلة يخفيها هذا الرداء ولكن لا يهم، ارتاح قلبَه لعدم خلو هذا المكان من النساء، فالنساء روح الحياة.

بدأ يردّد: هنا الجنّة، ولكنّها جنّة تشعل نارًا، هنا الفضيلة خراب والخراب سيعمّ أرجاء البلاَد.

حينها تتبّعها إلى أن غابت عنه هذه الزيوسيّة الجميلة.

يقول في ذات سِرِّه: الأطفال كالمجانين في مخيّلتهم كل شيء ممكن ولا شيء ممكن. استضافه المختار هذه المرّة وبدأ ينهال عليه وابلٌ من أطباق مختلفة من الطعام، ولكنّه فضّل المكوثَ وسط الحيّ دون أن يتنبه لِمَ أتوا به؟ جلس يراقب وهو يتمتم: هذه السراويل التي يرتدونها مِنْ أين يأتون بها؟ أيعقل أنّهم يخيطونها؟ مشيتُ بلدان المدن السبع ولم أرَ مثيلًا لها، الحمد لله على نعمة الجنون، لولاها لقتلوني.



47

رُمّانة الروح

أنا لحبيبي وحبيبي إلي



تعالَ نجلس على عقارب الزمن.

أريدُ أن أجلس على دقّات قلبك.

تعالي

آتية

مشتهيّة أطبخلك

ما تحكيش إشي،

حرّاء ياصبعو

وش جابو على بالك،

وأيش بصير لو أكلت صابيعك وتصيري حرّاء ياصبعو

تضحك، عينها أمي تشوفك

أيش بصير لو شافتني

لح تطبخك

يضحك، طفل أمام عينيها

آه يا غزلي

بصير نام بين خصلات شعرك حتى من أمك ما بخفش؟

لا تخاف، ما يهمّ أنّك بين أحضان يديَّ كرمّانة أَلملمها بشتاء يدي

والتفاحة؟

عن أيّ تفاحة تتكلّم؟

تفاحة خدّيك، أظنّها الخطيئة الشهيّة

حفرت بأطراف أصابع يديها على جدران غرفتها حتّى امتلأت يداها بالدم "حرقولي قلبي يما "

حروفها تنبّئ بموت لا يشبه الأموات، تنبّئ بشيء حضر ولم يحتضر، تتابع تفاصيل وجهها المليئة بالخيبة، تتحسّس بقايا الدموع قائلة هذا أكثر شيء أمقته

تعالي لميا

ولِمَ؟

أريدك الآن.

تضحك وكأنه سيّد الدنيا، ألم تمل؟ بالله عليك ألا تخجل من ذاتك عاهر مستيقظ على عتبة أنثى منسيّة بين الجدران، تنتظر مُعانقةَ الموت.

أقرف منك ألا تفهم أنت مقرف حدّ الموت وأكثر.

تُضاجِعُ مئات العاهرات وتريدني، تقرفني من نفسي أشعر وكأنّي أعيش مع جحشٍ لا ينتمي للإنسانيّة، أعيش بين العفن، ما فائدة هذا المنزل ولا يحوي إلا العفن؟! أشعر وكأنّي في ماخور ماذا تشتهي!؟

المرض أكل جسدي بنهمٍ، انظر ماذا ترى؟ أشلاء روح فقدت الحياة، متعبة، الحبّ الذي عانقني أفقدني شهيّة الحياة، سَرَقَ منّي عمري وهرب وأنت لا تعرف إلا لغة الجنس وكأنّ تفكيرك تجرّد من كلّ شيءٍ عدا الفِراش، أقرفُ من ادّعائك الحبّ وأنت لم تفهم قوانينه حتّى كلمة "ح ب" بحدّ ذاتها لا تفهم ما معنى الحاء والباء، أنت لم يمرّ عليك حب إلا المضاجعة.

لا تسمع إلا صوت ذكورتك تخبرك بأنّي لك وأنا أقسم بالله أمام الملء عصفوري وجدار غرفتي المقرفة والروائيّين العظماء الذين تحميهم الكتب والباب الذي يسمع آهات دمعي وأمام هذا المسرح الجميل، وأمام أكبر ممثّل في الدّنيا، وأعظم مخرج رأته البشريّة، وبالكتاب العظيم والإنجيل والزّبور بأنّك لن تقرب من روحي، ولو اجتمعت شياطين الإنس تستعطف حبّك لن تقرب أنفاسُك من أنفاس

قلبي، مدنّس أتمنّى دفني بين صخور حارتنا وإعادتي لحياة الأوّلين على أن تقرب روحي... ضاجعْ جسدي ما شئتَ لا يهمُّ.

فأنتَ لولا هديّة السماء لك والذكورة النائمة بين فخذيك لكنتَ مخنّثًا في عصر فَقَدَ رجولتَه

بدأ بشتمها عاهرة ابنة عاهرة.

ابنة العاهرة التي تتكلّم عنها أشرف من رجال الوطن.

أمسكها من شعرها غرز أظافره بجسدها وهو ينتحب جعلتِ منّي رجل يكره النساء، لم يكتفِ بضربِها، بل جلبَ الكتب التي تقرأ، وبدأ بتمزيقها ورشّها على جسدِها هذه الأشياء التي تقرئين هي التي أودت بحياة البشريّة إلى الجحيم ...تضحك... إن كنت تمزّق ورقًا فلن تستطيع تفتيت عقل حفظ تفاصيلها، تركها وغادر.

هي تضحك أنا اليوم أنام على ريشٍ من نعامٍ

لم يبقَ إلا كتاب لم يرَه كانت قد خبّأته تحت وسادتها.. مجموعة من شعر محمّد الماغوط.

من الألم تضحكُ.

حملت أوراقها بعد غفوة ستّين دقيقة، رتّبتهم بعنايةٍ وبدأت تحاول إعادة ما مُزّقَ، ذهبت لكتابها وهي تتأوّه تعبًا ووجعًا، لا تُبالي، وبدأت تقرأ، تحاول أن تستوعب هذا الكمّ من الكلمات المنهال على ذاكرتها

علّها تنسيها ما حدثَ مذ سبعٍ وستّين دقيقة تريد أن تسرق ساعةً من الزمن، تخبرها أنّ ما حدث هو مُزحة من مُزحات القَدَرِ وألا يصدمها بعودتهِ تريد أن تستعيد الوقت، تريد أن تُعَرّي رجولة الجدران وأنوثة الأرض أن تعرّي سماء الذكريات، بأن تثقب السماء بصرخة تُنجب منها ولو رجلًا، ولو نصف رجل، ولِو ربع رجل.



48

مغازلة عصفور تمنحك تذكرة جنون

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي...



يُخيَّل إليها بأنّها تُحادثُه يعود بها الزمن إلى ما خلف الأحد عشر عامًا قبل أن تُهرَم من الأنثى الطفلة إلى المرأة العاشقة لسيّدة الياسمين لعريشة الحبق التي تزيّن هالاتها وتعب عينيها.

ماذا سترتدين ليلة زفافنا؟

بيجاما بيضا

يضحك

نعم بيجاما بكمين طويلين وبنطال فضفاض يسع لي ولك، لا أشابه أحدًا معك أغدو ليس بفستان أبيض وإنّما ملائكة بيضاء لا أحبّ فكرة أن أقضي ثلاثة أرباع عمري وأنا أفكّر بفستان العرس يكفيني بيجاما وخفٌّ صغير قُربك، أرقص معك تحت المطر لتشهد السماء والنجوم وبحضرتك يا قمري بأنّي أحبك، هذا كل ما أحتاج

لأنهال عليك بالتقبيل وأقتلك من شدّة حبي، أريد أن أقتلك بأنفاسي أن أنجب ثورة تحتلّك بأكملك.

مجنونة.

ربّما لأنّي أشبهُك

لم أرَ بتاريخ البشر أنثى تُغازِلُ حبيبها كأنتِ.

ولن ترى المفردات تغار منكَ عندما أنهال بتقبيلِك غَزلًا.

"الأنثى السورية همجيّة في بعض الأحيان، مجنونة لا تهتمّ لقانون القبيلة، تغدو في رحم الفلسطينيّ حوريّة من الحور العين".

أريد أن أخلق أبجديّة توحّد أقصاي بأُمويّك

أنت سكّري وصباحي عصري ومسائي

ما عشاؤنا اليوم؟

وجبة اسمها أحمد.

طبق من الزعتر وقليل من المكدوس المحشوّ بالجوز والثوم والكثير من حبّات الزيتون والكثير الذي لا ينتهي من أحمد....

أشتهي أن أحوّلك طبقي الشهي، لكن لا أستطيع، فأنتَ طبقي المفضل، طبق الحياة الذي أتناول منه لأشبع الفرح، أخاف لميا أن يأتي يوم... وغلبه الصمت.

يكفينا هذا العشاء لهذا المساء والباقي لا يهم.

آه يا مطر... متى سيأتي أحمد؟

عندما ينتهي المطر.

ومتى ينتهي المطر؟

عندما يأتي الموت.

إذًا أين أنت يا موت؟ تعالَ واقترب.



49

ابْنَةُ الطبيعة

أنا لحبيبي وحبيبي إلي...



تمشي وكأنّ الموت لا يتنفّس منها إلا هيكل قد دمّر ما لديها، شاخت جميع مفاصلها والاكتئاب الذي تعانيه وجلوسها المستمرّ لوحدها لولا زيارة ناديا النادرة لغدت ظلًّا للموت، جلوسها على نافذة الانتظار جعل منها امرأة بعمر السبعين عامًا.

شعرها المتهدّل دون تسريح، يداها النحيلتان تتلمّسان زهرة الحبق، تتحسّس بقايا الزجاج ظنّا منها أنّ زجاجه سيعكس صورته فتراه، صوت عصفورها البريّ هو الشيء الذي بقي دون كذبٍ.

العَتمة والتعب المتكاثف حول عينيها يغطّي شفتيها لونٌ باهتٌ، لم يبقَ إلا لؤلؤ عينيها اللّوزي المتراقِص تحت هذه العتمة هو الشيء الذي لم يستطع الزمن أن يعبث به .

لم تختر الأسود ليكون حدادها بل ارتدت الأبيض ليكون كفنها، ثوب يغطّيها لأسفل القدمين حول اليدين دانتيل من حرير يصل

لجيدها، الوشاح الذي يغطّي رأسها فيروزي، شعرها الفوضويّ الثائر على الحياة لم يشهد الثورة بعد.

جسدها المنحوتِ بعنايةٍ إلهيةٍ مهما يَشِخْ يبقَ في طيّاته لؤم الطفولة يخيّل لبشر أن إلهًا ابتدعه كمنحوتةٍ إغريقيّةٍ تعيش أبد الدّهر.

إلى أين أنت ذاهبة؟

لحيّنا القديم، أريد أن أتنفّس.

بعد ثلاث ساعات من المشي وسبع عشرة دقيقة وصلت ببطء إثر المرض الذي تعانيه، ظَهَرَ واضحًا على وجهِها، تعاني ضعفًا في النظر في اختلال شبكيّة العين، أصبح ما تراه واضحًا أمامها هو ضباب أجسام، ما زالت تُميّز الأجساد دون الملامح، ترفض النظّارة باعتبارها ستؤذي مشهدَها الطبيعي، ابنة الطبيعة هي.

تحسّست المكان تنفّست شيئًا من التعب، لم تدخله، تحاول أن تشتمَّ الحجارة إن كانت بذلك اللّؤم الذي يخفي عُهر الرجولة، الإناث اللواتي خطفن من بين أعين الفرح.. رام... قدّيسة وجورجينا تتابع كل شيء بصمت.

أحمد

أأنت هنا؟ أحمد

لم ينطق بكلمةٍ.

أحمد أشعر بوجودك.

أجاب الصوت بنعم.

لا أحبُّ المُزاح.

نعم

أرجوك اقترب.

هذه المرة الثانية بعد أن تركته منتصبًا يُشاهِدُها تغادرُه والبحر الشّاهد الوحيد على تمرّدها، هي المرّة الثانية أمامها والمئة من خلف الأبواب يراقبها لا يريد أن يزعجها ظنًّا منه على حدّ ما أخبرته ناديا أنّ هذا ما يريحها لكن هو لؤم الانتظار ملّ غيابها.

وكأنّها كانت تنتظر رؤيته ثانيةً بعد أن ودّعته متجاهلةً وجودَه بعد أحد عشر عامًا.

بدأت تتحسّس كلّ شيء فيه، عينيه السوداويين اللذين رافقهما الحزن شعرت بمسامات وجهِه المتعبة التي أكل منها التعب، بدأت تمسح بيديها دمع خديه.

ما بكَ...؟

أنت ما بكِ...؟

لا شيء هأنا إلا انّ عمري أصبح عمر الغياب.

تعبتُ وأنا أنتظر أن تأتي.

أنا هنا لميا.

تضحك.

أشعر بكِ كما كنت، وجهكِ البريء، شعرِك الفوضوي، عينيك اللّتين تعانقان الطفولة، يديك حتى أنّي أرى فِيكِ ثورةً.

تضحك ثانية: ثورة لا تنجب إلا الخيبة:

الثورة تنجبُ وطنًا.

نحن بثورتنا بعنا الوطن.

طفولتكِ شيء عابث.

طفولتي غادرتني.

يا نور عيني.

يا سارق منّي النور.

كانت تشتهي أن تسأله عن الغياب ولكنّها أنثى لا تتمتّع بالأسئلة، تبغضها، تكرّهها، يكفيها وجوده ليلغي جميع الأسئلة.

لا تسمح للأسئلة بأن تغتال الحب.

أشعر بصوتكَ شيء يشبه الحزن.

أتظنّين أنّي غدرت بكِ؟

لم يخطر في بالي ما تقول، لا أحتاج للكلام الكثير، أحتاج للصمت القليل

كل ما يهمّني أنّكَ بخير.

تركته وغادرت

مشى خلفها... توقّفت، أرجوك لا تلحق بي دعني أعود لقبري.

"السوريّة تجعل منك إله الحب، لا حبّ بعدها".

تنجبك مرّةً واحدة وتجهضك آلاف المرات تجعلك تشعر بآلام المخاض دون أن تتألّم.

في ذاكرِها تودّع أحمد، رجل العبث مع الطبيعة.

لم تكره الشرقيّين، كانت تردّد: أحبّ هذا الشرقيّ الساكن فيك، أحبّ حنانك... صمتك... يديك... شاماتك وهالاتك الرماديّة، وأحبّ الشرقيّ الذي يكسرني وبكلمةٍ يُعيدني لا يُلقي بي على عتبة الانتظار فهذا الشرقيّ لن أغفر له، عَشِقتُ جميع الفلسطينيّين، وتواضعت مع العقليّة الشرقيّة لأجله، عشقت غرفة الموت والمجانين الذين في حيّنا لأجله، نبذوني عن مجتمعنا، أعلنوا جنوني فيها...لم يدخلها إلا اثنتان، جليلة ابنة أم يوسف وأنا الثانية بكلّ فخر.

كان ينتظرها عند باب البناء.

عندما رأت شبحًا، خُيِّلَ لها أنّه رجلٌ من المارّة لولا صوتُه.

أريد أن أسمع أنّك بخيرٍ.

لو رآها المتحيون بصحبته لقتله وأعلن مشنقته للعلن.

أجابته:

تكسرون فينا كلّ شيء، تلحقون بأجسادنا الواهنة التّعبَ، تلبسوننا داء الانتظار وتأتي لتسألني إن كنتَ بخير، اسأل ذاتَك التي أنجبتْ ثورتَك العظيمة.

لا يعلم أنها لا ترى إلا خياله، لا يعلم أنّها تعاني انفصامَ الذاكرة، هي بين ماضيها خيالها الجميل وحاضرها واقعها المقيت، لا يعلم أنّها تعيش في الماضي، إنّما ضربات الواقع هي التي توقظها من نومها السرمدي.

شبّه لها رجلٌ يحمل تفاصيلَ أحمد لكنّها ضبابيّة، أخبرته أحتاج أن أقرأ المعاني، أحتاج صورة تفسّر لي تفاصيل القصيدة، تُعنيني.

وقف أمامها لحظةَ صمتٍ تعانق المكان، لم يتخلّل هذا الصمت إلا أصواتُ الباعة المتجوّلين ينادون باللّيمون، سكرات الأطفال والكرة التي دوت المكان.

قولي أي كلمة:

نحن في الجنّة، ألا ترى في الجنّة لا يطيب الكلام، اذهب ..!

تتبّع خطواهّا بصمتٍ اغتالته كلماتُها كان يترقّبها كما يترقّب طفلةً.

أمسكها من يدِها وهو يقول: لن أدعك دون أن تجيبي...!

ضحكت وأبعدت يدَه عنهَا...!

أخبرته: في الجنّة لا يطيب الكلام والشرقيّ في طبعِه يبيع الكلام.

دخلت منزلها رأته كما تركتْهُ.

اليوم إجازة لا عمل.

كم سيرتاح الوطن لو لم تكن؟

لم يردّ على كلماتِها.

رآها تُوضِّبُ حقيبتها دون أن يسألها، كان على علم في كلّ مرة يراها تحمل حقيبتها الصفراء فهي في طريقِها لمنزل ناديا، لغرفتها الكئيبة كما كان يهمس دون أن تسمعه.

كانت قد أجابته دون أن يسألها وكأنّها سمعت خسيس صوتِه:

أريد أن أغادر لمنزل ناديا.. لغرفتي أريد أن أرتاح أتنفّس بعيدًا عن هذا الماخور، أحتاج أن أرتاح بعيدًا عن أصوات النسوة اللواتي تأتي بهنّ ليلًا فعوائهنّ يمقُتني .

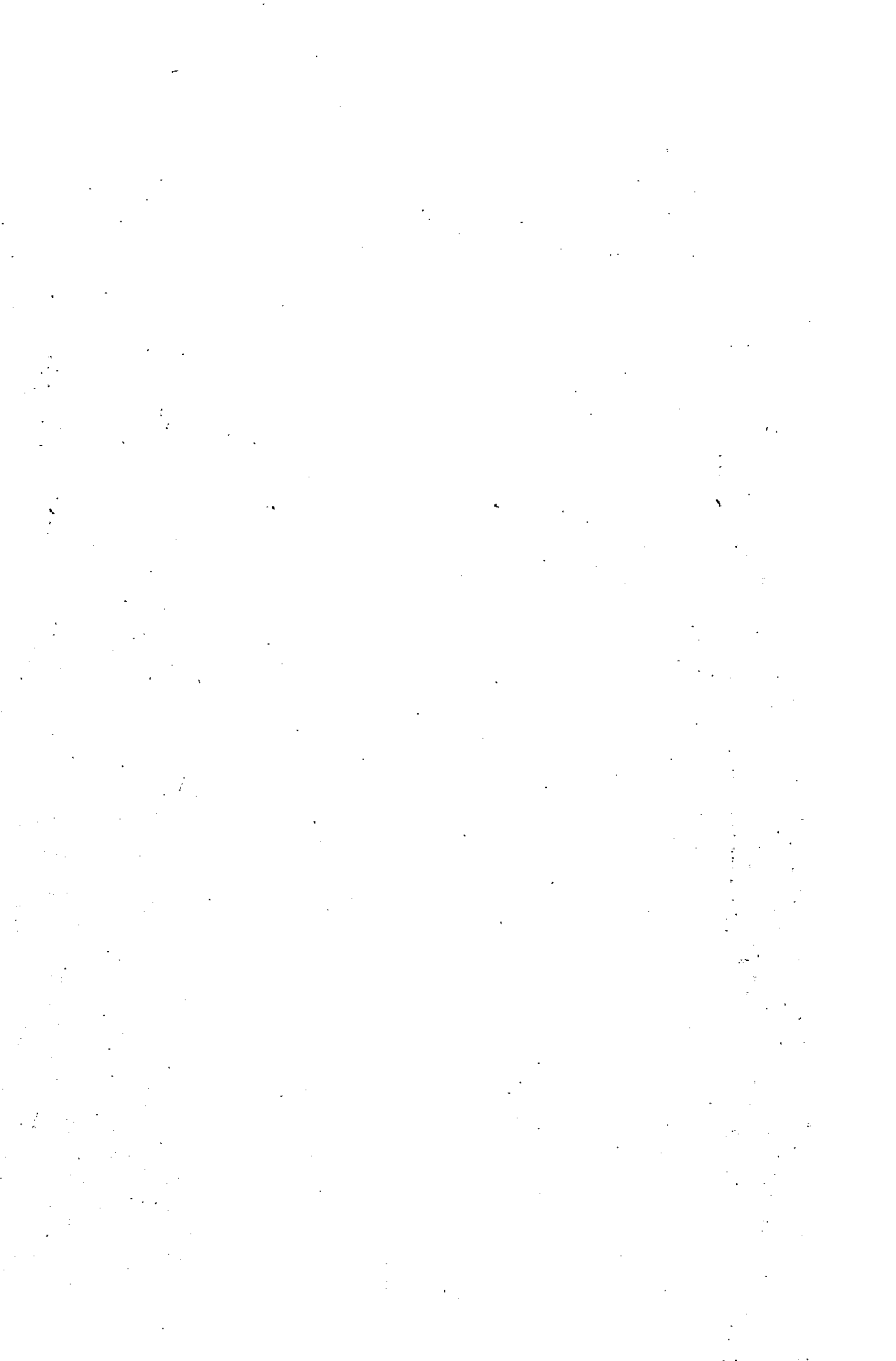
أتغارين؟!

بل أقرف من أنوثتي وأخجل من ذكورتِك.



50

الـرَّذيلةُ طغتْ على سـوادِ المدينة.



بضعة أيام كانت كفيلة بتغيير مزاج مترله لينقلب رأسًا على عقبٍ هذه المرّة الأولى التي تغيب فيها لتعود وترى مترله مختلفًا... لا تبالي.

ذهبت لغرفتها فهي في حالة شوقٍ دائمة معها أكثر شيء تحتاجه هو الكتاب الذي بَقِيَ دون تمزيق...

كُتِبَ عليه أحمد عدّة مرّاتٍ متكرّرة:

إنّي أتوق يومًا أن أجلس معك في جزيرة نتصفّح كتابًا.

لم تُبدّل ملابسها، آدم لم يغلق الباب حتّى أنّه غادر دون أن يقفله،

لا يهم اتّكأت على السرير وغفت.

استيقظت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

خرجت من باب غرفتها لتلقى الشموع مضاءة في كل مكان سواد يزين المكان تبدأ من عند الباب الخارجي لتنتهي عند غرفة آدم، وكأنّك تمشي في ممر من ممرّات إيطاليا، وقفتْ عند الباب مشتْ إلى أن وصلت لغرفة آدم، أيعقل أنّ آدم جُنّ ويريد أن يحتفل بنفسه؟ اجتازتِ الباب الرئيسي الغرفة اليمنى المقابلة للباب والممر الذي يفصل الصالون الباريسي عنهما، غرفة تبديل الملابس وقفتْ مُقابِل الحمَّام الذي يفصل غرفتها عنه، مقابلة له سمعت قهقهة فتحت الباب لتراه فوق امرأة تضحك لم تتحرّك إلى أن رأته ابتعد عن المرأة العارية و هو شِبْهُ عارٍ، تمكّنت من رؤيتها، ليست بتفاصيلها الحادّة ولكنّها رأت شعرها القصير وجسدها المكتنز، كان لونه أصفر، تلك الأخرى ركضت ولملمت ثيابها المبعثرة ارتدتها بسرعة متناهية بدءًا من سروالها الداخلي للبنطال الخارجي، كانت تحاول إخفاء وجهها لولا أنّها بقيت تنظر إليها، امرأة في الستين من العمر كان يخطر في ذهنها ما الذي يجعل امرأة في عمرها تنام في أحضان رجل الثلاثين؟ أي أنّها ضعف عمره، كانت قد أبعدت ليا خطوة وخرجت...

بدوره آدم وقفَ مدهوشًا كيف غاب عنه ألا يقفل باب غرفتها ولكنّه كان على عِلْمٍ مُسبقٍ بأنّها ليست في الغرفة هذا ما كان يظنُّ.

كانت تردّد: مسخرة نحن يا وطن!

مهزلة نحن يا وطن! عندما تبعها لاهثًا ككلب يستوطن الراحة كلّ ما يحيط بها هي أنفاس بشر كاذبة.

اعتذر منها وهو يقول: اعذريها فهي مجنونة.

هل رأيتِ يومًا امرأة تضحك وهي ترى زوجها ينام مع امرأة أمام الملأ تضحك؟

ردّت: إن كان زوجي كنت سأقتل نفسي.

ردّت ليا من خلفهما: هذه أنتِ، أظنّ أنّ خلفك عددًا لا يُحصى من الأيتام كالذي أمامك.

صرخ في وجهها.

ردّت: عذرًا منكما.. أستأذن، تابعا عملكما.

أنتِ ألم تخرجي دون رجعة؟

لربما رأت بأنها الفرصة المناسبة لها لتستغل ذكاءها وطلبت ما تحلم به منذ سنوات ...

أتيتُ، منتظرةً تأشيرة الطلاق، امنحني إيّاها.

أنتِ متى ستتأدّبين؟

عندما يختفي أمثالُك.

تمتمت.. مهزلة الحياة التي أعيشها مع رجل من أرذل رجال الأرض.

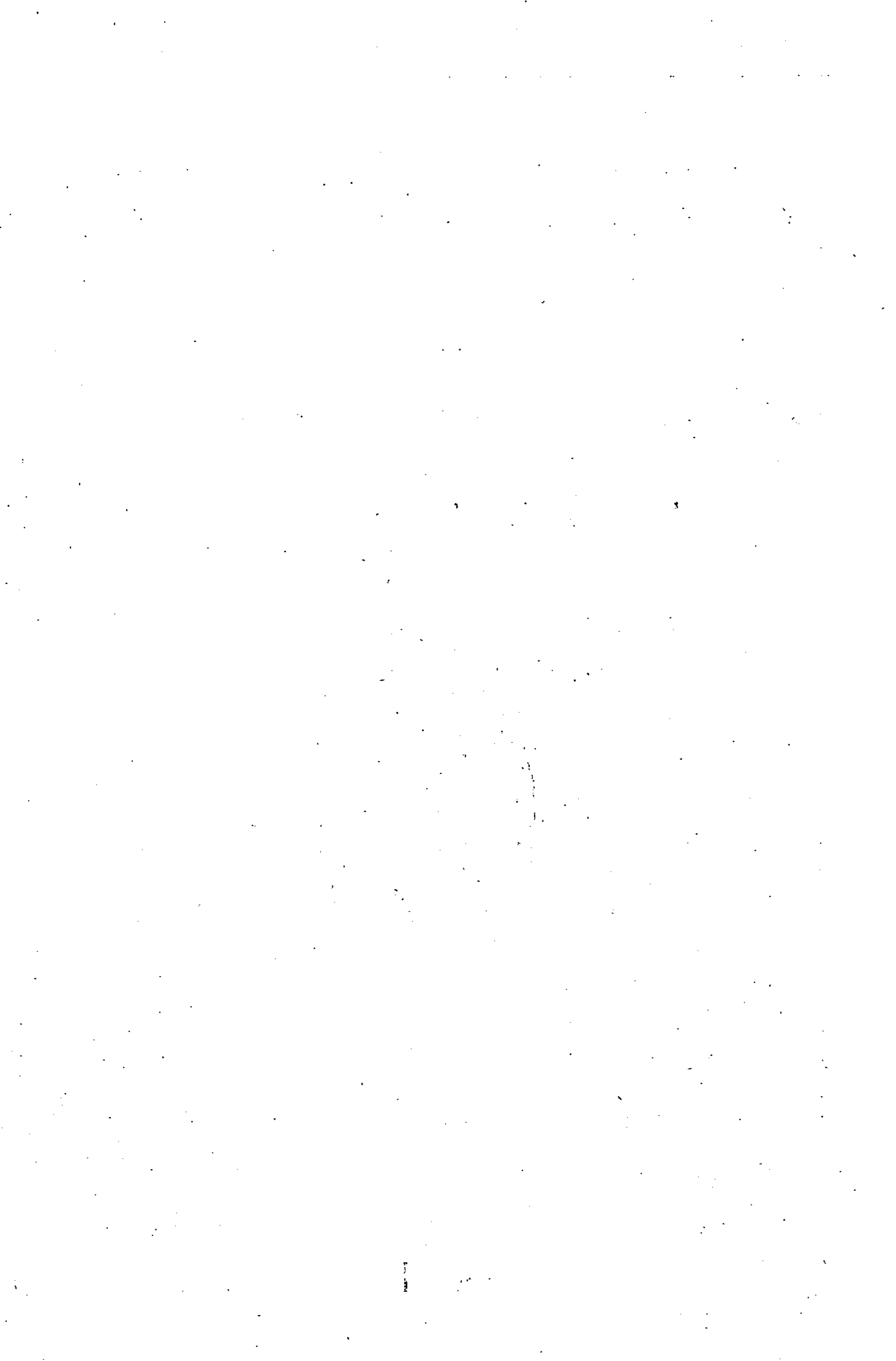
ما السبب الذي جعلها تضاجع رجلًا في عمر ولدها إن كان لديها ولد؟ أقرأ التعب من عينيها.

قبل أن همس: آدم على حقٍّ، ما الذي أتى بي ...؟

51

قَلْبُها حاخام يهودي وأنتَ مُلحِدُها

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألي...



ما بكِ حلوتي..؟ هل حزنتِ لأن عصفوركِ "حبيبي" ليس معي .

حملتها وقبّلتها ربّما تلك الأخرى لم تستوعب كمّ القُبَل التي انهالت عليها حتّى أنّه لم يبقَ منها إلا وريقات صفراء، غاردينيا متعبة.

أعلم أنّه في الجنة لا عذاب ولا أديان ولا اختلاف على وطن ولا على من باعوا وخانوا أبجديّتنا.

معتوهي الأبله يجهّز لفيلم جديد.

صوت صرير الباب.

تسأل: مَنْ هنا...؟

أتيتُ حبيبتي..!

ولِمَ أنتَ هنا..؟

أريد أن أتنفّس معكِ..!!

مُقرف.

أظنّك كنتِ تبدّلين ثيابك يا جميلتي الجميلة.

لم تجيب بأي كلمة

اقترب ليساعدها، أبعدت يده: نحن نعيش في دوّامة متكرّرة، نُشبهُ التاريخ، وفي النهاية نفضي للا شيء، أنتَ تعلم كل هذه الأشياء مكرّر لعذابات النساء، ابتعد ..

غرفتها تكفيها وحدها مع سرير و نافذة بلونها البني وكأن لونها القاتم دخل في معركة حربٍ تُشْبِهُ حربَ الإبادة في تلك عرّينا الإنسانيّة وهو يعرّيها من جسدها إن لزم الأمر، جلس يشاهدها متكوّرة على نفسِها فارغة من أيّ شيء، والضّوء هو العاكس الاستثنائي لعاجية حضورِها.

كم أنتِ جميلة...؟ أحبّ أن أشاهدكِ كثيرًا.. أحيانًا أتساءل: بِمَ كان الربُّ يفكّر عندما أنجبَكِ؟

لم تجِبه، ترتجف ربّما الروماتزم الذي أصاب مفاصلها بالتعب وضعف نظرها أبطآ فِعْلَ حركتِها.

من النوادر أنّي صادفت امرأةً في الثلاثين تحمل جمال الأطفال، أشعر وكأنّك الآن تتفتّحي، زهرة لا عبثَ فيها.

أريد أن أثقب جسدكِ.

إن كنتِ رافضة مراقصتي.

تضحك: أنتَ تتطاول على امرأةٍ رافضة وجودك فكيف مراقصتك؟

قل هل تفهم الفلامينكو والسالسا ورقصة الجاز..؟ أنتَ ربّما سمعت بنساء الحانات وعاهراتك الثمانين، وعن معشوقتك التي جنّنتك صاحبة السبعة وستين عامًا حتّى هي ربّما لا تطيقك، أنتَ مجنون بها... لم تعبث به مفرداتها بالقدر الذي عبث به جسدُها ليقترب منها وينهال عليها بالقُبَل بدأ بهالات صدرها العاري بشغف انتهاءً بتقبيل ما تحت الصرة بقليل.. ليفقدها حركات جسدها المتتالية والصرخات المتعالية برفضه، حملها بصعوبةٍ وضعها على السرير، عندما اقترب منها أكثر كانت عيناها في حالة خدرٍ تبحلقانِ به عندما همس: أنتِ هنا أجمل وكأنّك آلهة على عرش السماء.

غابت عيناها عن الوجود وكأنّ الموت زارها يعطيها استراحةً غابت بها عن الحياة، اقترب منها أكثر يقبّلها من شفتيها لم يشعر بحرارة جسدِها، فهو لا يحتاجها ميّتة يريدها على قيد الحياة، ليشعر بأنفاسها، نظر هنا ها هنا لا دم ولا شيء، ما الذي أدى بها...؟ نسي أنّ هذه الحالة متكرّرة عندها كلّما قرّر أن يضاجعها، نَسِيَ أنّها تفقد وجودَها في حالة إثبات ذاته... تدخل في حالة انفصام عصيان تامٌّ عن هذا الواقع وكأنّ كل ما فيه ليس فيها، وكأنّ ما تناديه ليس لها

تبحث عن مُلحدِها لقلبها الحاخامي تناديه، ما مِنْ مُستمعٍ لتأوّهاها فتدخل الخدر غير مباليةٍ بدناءته .

وضع طرف أذنه اليمنى فوق فمها، ولكن لا شيء إنّها بسبعة أرواح بعد قليل ستعود وكأنّ الله خلقها لتُقلق راحتي، بعد سبع دقائق اقترب من جسدِها، كان باردًا لا حراكَ فيه، ابتعد عنها كمَن يبتعد عن ميّت.. عندما رأت الباب شبه مغلق بضربة من رجلها الناعمة فُتح.

نادتها ليا... علمت باسمها من زوجها عندما شتمها أمامها، كان أول لقاء معها، وتلك الأخرى لا تقلُّ مهارةً عن ناديا عندما حاولت أن تضعها بشكلها الصحيح على سريرِها وألبستها ما كان أمامها، رداءها الأبيض ... سمعت تأوُّهَ صوتِها عندما كانت تخبرها: لا تخافي، أخبرتني ناديا بأنكِ تريدين فقط أن تكلميني... أنا آسفة..

لا يهم ...قالتها بثقل كان يهيأ لها أنه أمامها، لم تستوعب بعد فكرة أنه لم يعد قُربها، تُناجي عذابها وحدها تحدّث خيالها وتلك الأخرى تحكي لها قصتها، كيف هربت من منزل زوجِها السِّكّير لتستنجد بأمِّها التي رفضت مكوثها لأنها تريد الطلاق، تركت كل شيءٍ خلفها بما في ذلك طفلها القدسي، وأتت تستنجد بهم عندما طردوها، لم يبقَ لها إلا منزل خالتها السورية، جمعت بعض المال من الأيام التي كانت تقضيها في الحانات وبعد أن أمضت ستة أشهر

مترنحةً في موطن والديها، متخفيةً خوفًا من أن يرياها فيقتلاها باسم الشرف، قررت أن تأتي لمنزل خالتها التي لم تجد لها منزلًا، سألت كثيرًا كل واحد كان يخبرها بشيءٍ يخالف الآخر، فهي على حد قولها انقطعت أخبار خالتها مذ آخر رسالةٍ بعثتها لهم تدعوهم لزيارتها مذ ما يُقاربِ السبعة أعوام، وبعدها لم يسمعوا عنها شيئًا وهم لم يسألوا عن حالها فكان الطريق لسورية يفتح لها الأبواب على مصراعيه، لم تنم إلا في حِضن سبعة رجالٍ قبل آدم، وكان ذلك الأخير الختام، صار لها معه ما يقارب الأربع سنوات.. هي معشوقته التي تبكيه بأنها لا ترضى الزواج به بحجة أنها تكبره بعمره... كانت لميا تستوعب نصف ما تقول والنصف الآخر في حِوارٍ تصطنعه مع ماخُورِها وكأنه سَمِعَ حسيسَ صوتِها..

هل أتيتَ؟

إني هنا حبيبتي.

لتذهبْ للجحيم.

اقتربَ منها، همس: أقسمُ بالله إن لم تموتِي ميتة ربِّك فسأقتلُك بيدي،

ابنة عاهرة.

أنتَ تعلمُ أني ابنة الطبيعة، توقَّفت قليلًا وتابَعت: العُهر في لسانِك ينام نوم ابن حرام.

حقودة.

وأنتَ هكذا سُواد لسانِك يغطي المدينة.

أتمنى لو أنه يمحو أخطاء المدينة، ويُحيل السواد بياضًا وصمتت...
كان هذا آخر ما تخيلته عن آدم وغابت في سماء خيالِها البريء.

52

الرُّوح



صمتتْ أمُّ يوسف ما يُقارب الألفي عام...

تجوب الحي، تصرخُ: لعنة... لعنة، ذُهِلَ الجميع للخبر الذي دوَّى بالحي

سيعمُّ الخراب أرجاء الحي.

ستموت نساؤنا، لن ينجو منهن إلا أنا صاحبة الفرج المقطوب .

ردَّد المختار: هي الأخرى جُنت إثر المصاب الذي ألحقته بجميع الرجال.

ظلّت تهذي ما يُقارب السبعين يومًا، لا أحد يُصغي إليها.. أصبح الجميعُ ينادونها بالمجنونة.

أجمعَ الجميعُ: الشيخ طاهر والقديس اب بولوس ومعمدان الكنيسة والمختار والرجال ذوو السراويل الطويلة أن فلامينكو لم

يجلس في الحي كعادته وهنا نطق أصحاب السراويل الطويلة: إنما يمشي بين الزوايا الضيقة، وصل إلى غرفة الموت، كان يحاول أن يسمع شيئًا أو لربما يرى كما قال القديس وهنا عاد أصحاب السراويل الطويلة للقول: ظنَّ أن أشباحًا تسكن هذا الحي، وعاد صوت أصحاب السراويل الطويلة، كان يصرخ: خراب، خراب، خراب، نُذُر حربٍ ودمار، عندها أتى به القديس وسأله ماذا تعني بالخراب يا فلامينكو؟

دمار سيحلُّ بالعباد

عندها عاد القديس اب بولوس وسأله: ماذا تقصد يا فلامينكو؟ ما هو الخراب الذي تنوي أن تخبرنا به؟

خراب، حرب شؤم، هذا كل ما سيحلُّ بالعباد.

ارتجفَ اب بولوس لكلامِه، وضعَ يدَه اليُمنى على قلبِه الأيمن وردَّد: ارحمنا يا رب، صاعقة شؤمٍ قد تحولُ بيننا.

مَنْ أخبرك بهذا يا فلامينكو؟

قال جملته وغادر، اسال روحك تجيبك؟

هل أنت دومًا تسأل الروح؟

أنا لا أسألها أمشي خلفها حيث تأخذني... روح تذهب خلفها.

أخبره أن في السماء مدينةً أخرى يوجد فيها أناس من صفائه و نقاء السريرة ويوجد عليها أرض.

السماء! أه، إني أسمع نبض أصواتها يتكاثرُ، اسمعوها.

جفلَ القِديس من الكلام الذي يسمعُ.

الجميع هنا يبصرون من وراء عضوهم، هذه هي الخطيئة التي تلحق البشرية.

استعاذ القديس منه وأخبره أن يخرج.

ضحك فلامينكو هههههههههههه خائفون من الروح، فلتلعنكم السماء.

عند عودته توقّف ثانيةً عند باب الغرفة ظنًّا منه أن هنا روحًا تسأله شيئًا أو لربما صاعقة تفتحه.

لكن لا شيء، تابَعَ خطوات الروح.

بعد سبع ساعات من خلو القديس وحده يتلو الصلاة.

يُردِّدُ: البصيرة هي كل الحيرة.

لم ينفذ من كلمته الأخيرة حتى كان فلامينكو قد غادَرَ الحيَّ خلف الروح وأمُّ يوسف التي تاهت تُردِّدُ جليلة غادرت دون رجعة.

كان كل شيءٍ قد انقلبَ رأسًا على عقب المختار الذي لم يهن عليهِ أن تموت طفلته في غرفة الموت أخذها لمنزل معشوقته ناديا على حسب الاتفاق أن تأتيَ في ليلة عمياء لتخطفها، كان على علمٍ بسُباتها الصوفي أمانة في عنقها هذه جمال الحياة ناديا، أعطاها كل ما يملك عدا الأشياء التي بقيت له في الحي فهي طفلته من رجلٍ ظنَّ نفسه أنه والدها عندما اكتشف خيانة زوجتِه مع المختار، كان في أثنائها في جوار أم رام، عرف حينها أنه ليس الأب المعهود لم يحمل أغراضه، إنما طرد من غدر امرأة أتى بها لتصبح من متواطئات الحي ضده...

كليلة الثورة، ظلماء سوداء لا تشبه شيءَ ككُحل المدينة غطّاها المطر المتكاثف وكأنه مخاضُ سماءٍ على أرض ملعونة...

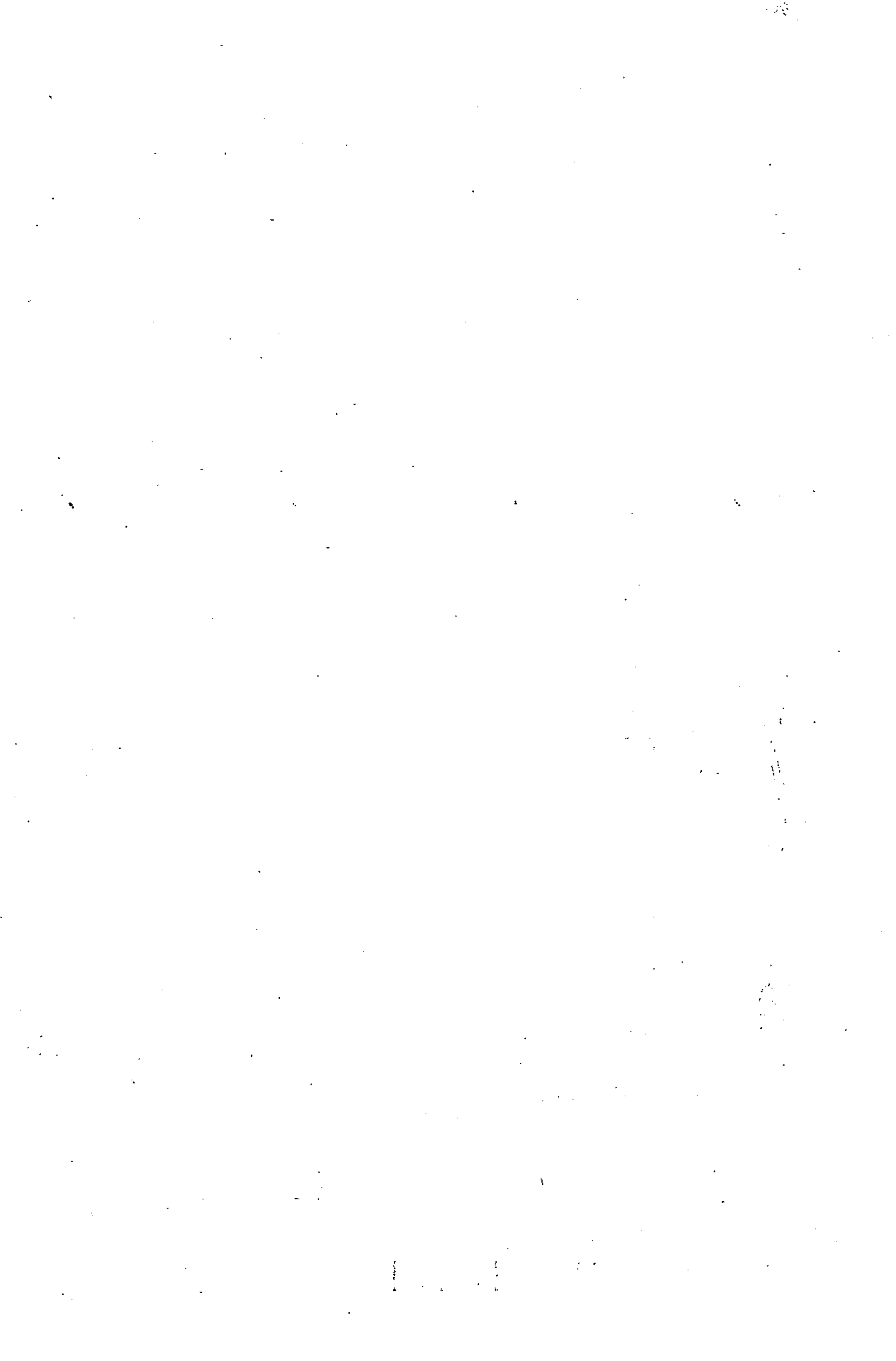
الحقَ الخراب في كل زاويةٍ من الحي والأرض انقلب نصفها ليغطي بيوت أصحاب السراويل الطويلة، ريح أضرمت البيوت جميعها، المختار الذي مات واقفًا إثر الضرر الذي لَحِقَ بجميع أجزاء جسدِه حتى عضوه الذي انتصب أمامه مذعورًا مات مفجوعًا.

القطُّ الذي خلفه بقي ينوء حتى مات لفجاعة منظر صاحبِه.

القديس الذي يُعانِقُ صليبَه مات على طرف قلبه الأيمن مقلوبًا فوق صليبه، قال: ارحمنا يا يسوع، فجاءت الرحمة بهيئة شيطان، الشيخ الذي مات وهو ينادي للصلاة من على المئذنة شاهد شيئًا أدهشه فوقَعَ منها ودوَّى مُضرجًا بدمائه بأرجاء الحي.

نساء الحي اللواتي ينتحبن خوفًا مُتن دون صوت جميعهن بسماع النفخة السابعة، كانت أرواحهنَّ قد صعدت للسماء الأولى، والرجال ذوو السراويل الطويلة مُزِّقت سراويلهم عُراة ماتوا من شِدَّة ريح صرصر خرت عظامهم، الشيء الوحيد الذي لم تلعنه العاصفة هي توابيت الفتيات اللواتي متن دون صوتٍ وجليلة تعانقهم مِنْ خلف اللَّحد ومن قلب المهد وكأن السماء استجابت لدعوة جورجينا، فأسدلت حبلًا من حرير لتصعد إليه النساء، فوقع بعضهنَّ فوق بعضٍ...

الرُّوح هي الشيء الوحي الذي بقي دون مساس بالإضافة لتوابيت النسوة، هي العباءات السوداء معلقة على جدران كل واحدة منهنَّ كما بدء الخليقة دون حراك منتصباتٍ دون صوت والمناديل التي تُعانِقُ الجدران لم تنحني للموت.



53

يَتيمَةٌ، ابنةُ الحياةِ أنا



طلِّقيه.

أطُلِّقُه وإن كان متعاقدًا مع السماء، لا صوت لي، لا أحد لديَّ، وحيدة أنا.

أنا معكِ.

بدأت تبكي:

أحمد لا وجود لديَّ، عقد زواجي مسلوب... هويتي سَرَقَها... جواز سفري لا يقبل أن يكون لي هوية وطني، سلبَ مني الوطن.

بعثتُ لكِ سبعًا وثلاثمئة رسالة، لم يصلني منكِ شيئًا

ربما كان يقرؤها المختار، أخذها معه في رحلة موتِه الرحيم في الجحيم،

ما همّني الرسائل، جميعها كلماتٌ شرقيةٌ لا تفي الثورة بالغرض، لن يستيقظ الوطن بها... قضيتنا أصبحت قضية وطنٍ يُسرق أمام الملأ ونحن بكل وقاحة لا نُبالي.

لم يعد لي وطنٌ، سلبوا مني أنتَ.

انظر لحالي كل ما فيَّ يئنُّ.

يئنُّ ثورةً.

عن أيِّ ثورةٍ تتكلم؟! وما هذا الهراء الذي أتكلم؟! ضائعة بين شيئين، عبثوا بي كل هذا الوقت، وأبحثُ عن حبيبي، أرض فلسطين كلها هي الأرض المسلوبة، أم أبحث عن أمي التي ماتت أمام الأعين مع بقية النساء؟ أم أُلَمْلِمُ بعضي على بعضي وأعزِّي نفسي فيك؟

كان يخطر لي أنك لن تأتي، كنتُ متأكدةً مَنْ يدخل سور الوطنية لن يعود.

أنتِ وطني، ألم تُنجبي؟

أنجبتُ طفلًا، طفلًا لا خير فيه، غدرَ بوالدتِه وهربَ.

أنا لم أغدرْ بكِ ولم أهربْ، أرغموني.

أخبرتني ناديا كلَّ شيء، وأخبرتني بلعبة المختار الخبيثة مع أمِّ يوسف عندما أتتك لتُحذِّركَ أن تهربَ، لربما هذا أفضل شيء قد فعلتْهُ طيلة حياتِها.

أشتاق إلى حِضنك مذ ما يُقارب الألف عام.

تضحك، هو الهروب من طبيعة الشرقي والاشتياق من عاداتِه، هو رجل الخيبات الكبيرة.

يصنعُ أنثى مُدلَّلةً على عرش الانتظار، أنثى ثورة من الصعب أن تنسى ومن الأصعب أن تُجرِّب الغُفران تحت داء العمر.

54

جميلي الرَّماديّ

حلم الأنثى في الثلاثين ينضج، يختلف عن حُلم الطفلة في العشرين، دومًا في عينيها جمال لا تَشوبُه العشوائيةُ، لديها في مشيتها موسيقى خاصة صمّمت لها تُشبهُ صوتَ القنابل دونما أن تحدث أذًى، تهبط بكل لُطفٍ بهدوء تامٍّ وكأن الكون صُمِّمَ ليسمع صوتها الذي يدوي بالمكان دونما ضررٍ دونما موتٍ يحدث رذاذ فرحٍ يُنجِبُ أدمغةً.

لا تضحكي، لا تجعلي مني مجنونًا فتعبي أكبر من هموم هذا الوطن.

كيف لي أن أصرُخ؟

قُلْ ولو كلمةً، لن يهتزَّ عرش هذا الكون.

كيف يستعمر العاشِقُ بوطنٍ يجهل عالمه وجغرافيته حتى أنه جاهلٌ لتاريخه، جاهلٌ بمخاض الخوض في معركة هي بين يديه تضعه في دائرة الحرب.

أنت لي وفيٌّ ربما معًا سنقيم مأتم الوطن في الرقصة الأولى يكمن كل شيءٍ.

العشاق كالمجانين، كالأطفال، كالمراهقين في مخيلتهم كل شيءٍ ممكن ولا شيء ممكن.

أحمد لا وقت للجنون لقد غادرني فما عدتُ أرضى بالعشوائية حلًّا، لا أحبِّذُ فكرة أن يراكِ فيقتُلَك حقاً إنّ كل شيء مات من حولي اذهب، ارقصْ، عِشْ أنتَ حُلوي الأجمل، وأسمري الذي أعشقُ، ولن أنسى فأنا يوميًّا أتغزل بك جميلي الرماديّ.

هو الآخر لا يهتمُّ بما تقول، يُراقِبُ عينيها، فالثورة بدمه هو رجل ثورة، من وطن الثورة، لا يهمُّ إن قامت معركةٌ على شرفِ عِشقه، لا يهمُ إن مات شهيدُ الحبِّ في وطنٍ سُرِقَ منه الحبُّ.

55

كاظم يا صوتَ إلهٍ مِن العَتمة يخرجُ.

عادتْ لتراهُ يحتضِن معشوقته عندما رأتها لم تنظر في وجهِها بل غادرت معه بينما هي دخلت غرفته عندما لمحت حقيبة حمراء على الطاولة التي تتموضع قُرب سريرِه، اقتربت منها، حملتها بين يديها، فتحتها، بدأت تبحثُ وكأنها تبحث عن شيءٍ جوهريٍّ داخلها، لم تهتمّ بالجواز اللبناني، ولا بهويتها، ولم تفتش عن ماضٍ عندما لمحت صورةً لطفل في السابعة من عُمرِه يرتدي بزّةً رماديةً وكأنه ينتمي لأحد الرجال السياسيين، وجهُه مُكتنِز كما جسده الطفولي، براءة عينيه كأنما تعرفه، كأنها التقت هذا الطفل يومًا، عاد زوجها ليصرخ في وجهِها: وما دَخْلُ ذلك بحقيبتها؟

لا شيءَ خُذْها، فقد رأيتها، وكنت أنوي أن أعطيكِ إياها حالما عودتك.

أعطته الحقيبة، وخبأت الشيء الآخر خلف ظهرها تريد أن تتمعَّن بالطفل الجميل.

كم أنت بريء وكأنك لا تنتمي لخُبْثِ هذا الزمن!

ولكن لِمَ ترتدى بزّة رمادية وكأن القَدَرَ حكَمَ عليك بالحداد طفلي؟

سهوًا قالتها: طفلي! أمضت مساءها خاليًا من التعب، لا نفس كذب ولا هياجة الحيوان، أمضتها بصحبة الصورة وهي تتمعن البراءة التي ترتدي عيناه والتعب المخفي والرجولة التي ارتدته من خلال بزته الرمادية وبراءة وجهه وعصفورها يغني، فجأةً توقّف عن الغناء، كأنه تقوقَعَ في ذاته لربما كان يخالجه شعورٌ بأن هذا آخر يومٍ سيراها فيه.

ذهبتْ وأطفأت جميع الأنوار كانت بحاجة لضوء شمعة، الراديو لكن لا جديد، همست: صوته هو الشيء الجميل.

كاظم يا صوت إله من العتمة يخرج.

تأتيها ناديا في موعد استراحتها.

أعطتها الصورة التي وجدها في حقيبة الغريبة.

طفل جميل ما به؟

لا شيء هاتيها؟

جاءني ليلة أمس يسألني عنك.

ماذا قلتِ له...؟

أن يذهبَ.

صدمني عندما عرفني.

أظنُّه كان يعرف مكاني، أعرفه كان يُراقِبُني.

أخبرتُه بألا يعود، في صوت ناديا شيء تُخبِّئه، كانت على علمٍ أنها رأته مذ ما يُقارب الثلاث سنوات وأنها أخبرته بألا يقربها ولكنها تخفي عنها، لا تريد أن تصرَّ عليها فناديا آخر مَنْ بَقِيَ لها.

هذا جيد.

أظنُّه لن يعود؛ لأنه ذهب بصمتٍ.

ناديا ساعديني أريد أن أعرف أكثر عن هذه المرأة.

ماذا تريدين أن تعرفي؟

علمتُ أنها ليست سوريةً، والصورة من الخلف موجود عليها طبعة مكتوب فوقها فلسطيني مع ختم لبناني.

وما علاقة ذا بذلك؟

أنتِ معارفك كُثر، وتستطيعين في ليلةٍ واحدة أن تعرفي تاريخها كله،

هي عشيقة آدم.

شَهِقَتْ ناديا، ووضعت يدَها على صَدْرِها، وهل لزوجك عشيقة؟

تضحك: نعم إنه يعشقها حَدَّ الجنون، وتكبره بعُمرِه، ولكنه سعيد بها، تُشبِهُهُ.

لميا لا تغوصي بشيءْ لا دخلَ لكِ فيه.

لن يؤذيني .. قضيتُ حياتي أعيشُ في دوامةٍ كبيرةٍ.

56

باخ



بصُراخِه الأهوج يولول: أين هي؟

دَخَلَ غُرفتها ليراها على سرير الحنين، لم يُطِلْ أغلق الباب.

عاد ثانيةً أزال الغطاء الحريري وبدأ يصرخُ في وجهِها كلمات متتاليةً، لم يتضح إلا أنه يريد إفراغ شيءٍ فيها، بدأ بتمزيق ثيابها، فجأةً توقَّف وغادَرَ.

لا يهمُّ ما حدثَ، فسيمفونية الموت لباخ تنسيني الألم، بدأت التحليق في الأسطوانة ؤتُردِّد: أنتَ

أنا

ؤالثورة.

بعد ساعتين وسبع عشرة دقيقة كان جرس المترل قد دوَّى بالمكان، وصوت ناديا انتشر في أنحاء المترل إن لم يكن في أنحاء المدينة بأكملها بدأت تُردِّد:

لقد مات، مااااااااات لميا.

مات بين أحضان امرأة، بين أحضان عشيقته فُجعَ.

أأنتِ متأكدة؟

نعم.

ومَنْ أخبركِ...؟

أحدُ رجالي بأنه اصيب بنوبةٍ قلبيةٍ وهو في حِضن معشوقتِه، نُقلَ إثرها للمستشفى..

وتلك الأخرى لم تستوعب ما تقولُ حملتْ وشاحَها وذهبتْ تحتَ المطر تبكي، تئنُّ، تضحك، تركُضُ...

وصلت لمنزله، رنَّت الجرس ثلاث مرات في المرة السابعة خرج يلهثُ

مَنْ؟

وجهُها خليط من الدموع والمطر

هو الثّمِل أمام عتمتها.

ما بِكِ؟ ادخلي

لقد مات.

مَنْ...؟

استجابت السماء لي، لربما الجحيم في الغرفة السِّرية، سَمِعَ صدى جسدي وماااااات.

توقّفا بُرهةً وكأن الوقت توقّف احترامًا لهذه السيمفونية الإلهية.

بدأت تتجوّل في أرجاء منزله المزين بالعَتمة، لوحات متتالية، اسم دافنشي..نزار و محمود درويش.. محمد الماغوط والكثيرين على حائط خاص، أقراصًا متتالية لموسيقيين: تشايكوفسكي وباخ بالإضافة لروايات و كتب لكتّاب فرنسيين يروقه الأدب الفرنسي والروسي على حَدٍّ الخصوص.

جدار كامل لهؤلاء العظماء وبقية الجدران كيفما اتجهت اسمها بخطوط مختلفة، مرةً بخطٍّ عربيٍّ وسامري وأوغاريتي، وحتى أنه كتبه بالعبرية والفرنسية وفي آخر المطاف مزركش بالإسبانية.

لم تأتِ بحركةٍ، كان الصمت موسيقى الموقف تكفل بالعشاء الأخير.

احترمَ الصمت ولم يشعل الأنوار ثلاث ساعات أو لربما سبع ساعات غير كافية لتترجم الكلمات التي تزين بها الجدران.

وكأني أرى شبيه ذاتي في فوضى الكون،

يضحك.

أنتَ زيوس الشرق.

وأنتِ أدوني الأنوثة.

كأنها نجمة في سماء خالية بصحبة القمر.

تبلّلت الأرض من تحتِها إثر المطر الذي حملته، كان يشهدُها يعتصره بكاء دون أن يبكي.

أنتَ مَوطني ومنفاي، أنا المستقيل في حُبّكِ.

أنا الثّمل الضعيف في حاناتِ منزلي

سقطَ على ركبتيه وما زالت عيناها تتجوّلان بالمكان لم تخبره أنها تقضي ربما عشرات الدقائق لتُعيد النظر والتركيز في كلّ كلمةٍ لم تعد كقبلٍ، حاولت أن تَفُكّ حروف كلمةِ مكتوبٍ بين أحرفها لميا: "أنا الميت على قيد الحياة" استدارت إليه لترى رأسه يستند على ركبتيه، يشهق بكاءً، يُردّدُ: قاتلتي أمامي.

اتكأت هي الأخرى على ركبتيها متكورة.. بدأت تطالعه كأنها ترى رجلًا أول مرة تتعرف إليه، بدأ البكاء.

البكاء هو الشيء النقي الذي لم تُوسّخه يدُ الواقع.

حاولت أن تضع يدَها على رأسه ولكنها خانتها، أعادتها لا تريد أن تزيده تعبًا، لربما لو وضعتها لمسحت عنه كل التعبِ الذي يعانقه مذ ما يقارب الألف عام.

كلاهما وسط غرفة لا ضوء فيها بين كبّار الكتاب ومشاهير الفنون والمطر، كانت موسيقى الكون التي تعزف سيمفونية الموت، كان البكاء لا الصمت سيد الموقف

لو أن مؤسسة المياه تتبنى دموع العاشقين لما رأيت أن ثُلث العالم يعاني مجاعة العطش.

لم يتلفظ اسمها حتى حملت بعضها وركضت خارجةً من منزله عادت تركضُ تحت المطر وهو المنسي القابِعُ في غرفة كل شيء لها وكل رائحة فيها لها

وما أن فتحت ناديا لها الباب حتى رأتها على غير عادتها ... ما بكِ ناديا...؟

أريد أن أخبركِ شيئًا... آدم لم يمُتْ إنه حيٌّ يُرزق، لم تكن نوبة كما قال أحد رجالي، إنما دوار بسيط كان يعانيه، وتلك الأخرى لم تنبس بأي كلمة، صدمَها ما قالته لها ... وقعت أرضًا.

كان موت زوجها ولادة روحٍ مع موت روح، هذا ما ظنّته داخل الموت للموت دوامة تدور فيها لا تفضي إلا إليه.

بعد سبع دقائق استيقظت لترى نفسها أمام وجه ناديا الشاحب وشعرها الأحمر

أين هو...؟ لا تمزحي ناديا... إنه مات، أليس كذلك...؟

في منزل عشيقته يقضي ليلتَه كالعادة.

بدأت تلك الأخرى البكاء، وكأنها تنتحبُ، ظننتُ أن السماء ستسمعُ مُناجاتي لتأخذَه أو تأخذني..

كأنك تنوين الموت كفتيات حيِّك ونسائكم والمختار والرجال ذوي السراويل المفتوحة، لم يبقَ في حيِّكم إلا توابيت إناث مُتن من نار الخطيئة وهنَّ لم يعرفنها.

ناديا! أنت لم تُجربي أن تموتي من عارٍ دون أن ترتديه نحن في حَيِّنا يلبسوننا الخطيئة دونما خطئ، يُخيَّل إليهن.

أنا آخر حزينة أنجبها الوطن.

شهيدة على ثورتنا على النساء الشاحبات، الأطفال المشردين أمهات الشهداء اللواتي يتعطرن بالموت، تحالفهن معه أنهن في مأتمه تحت وليمةِ الوطن.

عانَقَت جدران غرفتي مُتناسيةً تقاليد العشيرة، تمرَّدت على ذاتي في خيال يتتبعني، ظننتُه قمرًا وإذ به شيطانٌ يُرافِقني.

أوهمونا أن على أرضنا الحبٍّ في كلِّ مكانٍ وقتلونا، ألبسوا أجسادنا كفن الوطن، حمَّلونا نعوشنا وأغرقوه في البحر، وقالوا لنا عيشوا.

هراء ما تتكلمين، لميا، هُراء.

وإن مرضت، وإن متُّ لا يهم ما أعاني، حرقت النور، شاخ وجهي، تهدَّل شعري، ذَبَلَ جسدي، حتى ظهري بدا تظهر عليه انحناءات الشيخوخة لا يهم إن مشيتُ بعكاز الزمن أتكئُ على دمع الوطن، لا يهمُّ إن الكون كله سمع كلماتي يومًا.

جُننت أنتِ

ألم تريه البارحة...؟

بلى، ولم تزد عليها بكلمةٍ أخرى.

أخبرتها ناديا: الرجل الشرقي طفلٌ يخاف والدته، يعشق حضنها، وإن ضربته يبكي مُتلمسًا عفوها، يتوهُ إن تركتُه هو بالفطرة رجلٌ يعشق الحاجة.

رَجُلُك هذا فلسطيني لا يهدأ، لا يملُّ، لا يستكين من قلب الثورة يُحدِثُ ثورةً، لن يهدأ إلا في حِضنك، هؤلاء رجال وُلِدُوا بالثورة يتمردون على الطبيعة، بدوي همجي إنه يستحقُّ العِشق.

تضحك الأخرى، نعم إنه يستحقُّ، تركته يبكي البارحة،

البكاء هو سيد كَسْرِ قلوب الرجال، لميا هي الأداة التي إن بكى الرجل فيها سيُدمِّرُ كل شيءٍ بعدها.

أنتِ خبيرةٌ بالرِّجال ناديا أظنُّ أن رجال الدنيا قد مروا عليك؟

لا يا عزيزتي، نصفهم أتمنى لو أني أقابلهم جميعًا، أخاف عليك لميا.

لا تخافي ناديا إن خِفتِ فخافي على رجالِك الذين سيتيتمون من بعدك، دون حِضنك يتوهون.

الكتب التي تقرئينها أفسدتك.

أظن أن آدم هو مَنْ قالها لك.

اعذريني أريد أن أكمل عملي، فهو رزقي ،دائمًا تنتهي حواراهن بأنّ ناديا تريد أن تكمل عملها لأنها تعرف بأنه لا مفرَّ ولا نهاية من الحوار مع الأموية..

قبل خروجِك أغلقي الباب خلفكِ..

كان هذا قبل نَقلِها للمستشفى، وبعد خروجِها بدقائق أتاها آدم عندما دخلت مرحلة الخدر التي تعانيها في كُلِّ مرةٍ يقرب منها... قبل أن يأتيَ وأثناء خروج الأخيرة كانت تكتب قبل نهاية الجملة الأخيرة:

إلى والدي وطفلي وطفل روحي وعقلي إلى الرجل الذي قابلته روحي قبل أن ألدَه، إلى رجل طفولتي المبعثرة تائهة في حيِّنا أبحث عنك، إلى الرجل الذي أنجبني خارقًا قوانين الطبيعة، إلى زيوس الألهة العظيمة في الشرق إلى نهديَّ اللذين لم يكبرا، بل كبرا وصغرا فيه إلى العام الذي به أبدأ وبه أنتهي، إلى شيطاني الأسود إلى خيالي الجميل وإبليس المميت، إلى الأبجدية التي خلقها المطر، إلى الرمل الذي محاه

البحرُ، إلى عُصفوري القمر الشاحب، عندها سقط قلمُها يتّم صوت سيارةُ الإسعافِ زفافَ حمل العروس.

هو في غرفتهِ يكتب: بالحبِّ سنموتُ ونحيا.

توقّف بصمتٍ يُداعِبُ الأحرف، ذهبَ تحت المطر وروحه تقلقه، أصبحتُ أخاف منها على قدر ما أحبُّها على قدر ما أخافُها.

يقولُ في ذات سِرِّهِ: سأنام تحت نافذتك، سأكون الخرافي الذي تحلمين به،

مرَّت من أمامه سيارة الأسعاف وهو يهذي بجنونها، كان يُسافِر بأحلامِه بأنها عندما ستراهُ ستسافر معه.

لا نورَ يطلُّ من غُرفتِها.

ذهبَ لمنزل ناديا.

عرفت مَن الطارق من نبرة صوتِه، يكفي أن همس مرةً أمامها لتحفظَ صوتَه.

أتية، ستكسر الباب عندها ستدفع أضعافه.

تُردِّدُ: لا يتركونني أُنهي عملي، دومًا يقطعونه عندما أكون في الذُّروة،

خرجتْ بثوبِها الأبيض لتُخبِره ستضطر عزيزي لأن تنتظر لأنتهي، فأنا مشغولة الآن. أمسكته من يدِه وأدخلته.

جلس على الأريكة المقابلة للباب، وكأنك في غرفة استقبال.

كانت تُعلّقُ فوق باب منزلها الرمادي ورقةً كبيرةً مكتوبًا عليها:

"كتبتُ عن جميع المظالم، سأمارسِ جميع الشهوات ولن أترك رجلًا لن يمر في حبي، لن أغفرَ واحدةً حتى دعواتي المستمرة وشتمي الهزيل على وجودِك وبصوتٍ عال...

أنا ناديا طفلة السبع سنوات وامرأة الثمانية والخمسين عامًا المشمئزة أحتسي القهوة دون سكر كرهتها لأني ذات يومٍ كنت أناديك يا سكري وليس هذا فقط بل سأنقش على صدري جدارية فالتحيَ النساء وليأخُذِ اللهُ رجال العالم إلى الجحيم الثامن، لأكون صادقةً سرقت جملة الجحيم الثامن من كتاب لميا الطفلة اليتيمة ابنة عشيقي، ولن أسمح لنفسي أن أكون بلهاء وصماء، ولن يسرطن أيُّ حبٍّ فيَّ حتى زوجي الأنثوي لا أطيقه إنه لا يعرف القراءة ولن يستوعب الكلمات التي تُكتب، وإن حدثَ وأحببت عندها سأضطرُّ لأن أقتلع قلبي مني وأحفر له حفرةً وأدفنُه فيها وبهذا أكون ضربت حجرين بواحد، إنني أمقتُ الفتيات اللواتي ك(لميا) يخفنَ الحياةَ، وأعشق بنات منزلي وإنني دومًا أدلّلُهنَّ وأجهزهنَّ لممارسة الحب بطريقةٍ راقية لهذا إن دخلت منزلي ستعتاد المجيء يومًا، فالفتيات كهي

بائساتٍ يتلوَّينَ من الحب و يمتن قهرًا، حتى إنه يسلب براءهنَّ حتى العجوز التي تصلي قبالة مترلي امقتها لأنها ثرثارة من الدرجة الازلى و لو أتيح لها فرصة للتكلُّم عن خالقها لتكلَّمت حتى العجوز الروسية التي أفلتها القدر سهوًا تضع الصليب على صدرِها وتصلي عشرات الصلوات، وأحيانًا بالخفاء تسبُّ رجالَ الحي وتلقي عليهم آلاف اللّعنات، أمقتُها جدًّا على الرَّغم من أني لا أفهم ما تقول، ولكن أكثر شيء أمقتُه هو ألا تحبَّ، تعالَ لمترلي وسترى الحبَّ".

أخبرته أنه الوحيد الذي انتبهَ لهذه الورقة وقرأها... ربما فهمتْ محتواها لأن الجميع مروا قُربها ولم يلتفتوا إليها حتى.

فنجان قهوة بسكر...؟

أحبُّها دون سكر

ولكن أتيتُ بها بسكر يا طفلي.

لم أظنّ يومًا أنك تعانين لهذه الدرجة يا ناديا.

اصمتْ أيها الوغد.

صدقًا أريد أن أسمعكِ تتكلمين عن والدتك...

وكأنه ضربها على وَتَرِ الخليقة عندما انفجرت كلماتُها...

لا أم لديَّ... وُلِدْتُ في الشارع.

في أيِّ شارع كان مخاض والدتي؟ لا عِلْمَ لي، كبرت على متن أرصفة عدة ولكن أقساها كان ذاك الذي يمُدُّ ساقيه لي مُنفرجًا كالمصلوب، أعطيه إنسانيةً فلا يمنحني إلا المزيد من المقت المعدي.

آخر مرةٍ بَصَقَ عليّ أحدُهم ومن بعدها أصبح الجميع يُقبِّلونني بدأً من أخمصي قدمي لأعلى رأسي، عندما كنتُ أسأله أن يُعطيني عشر ليراتٍ لا غير، مذ تلك البصقة وأنا ناقمةٌ على الإنسانيين كما ترى ذاع اسمي ليس فقط بأرجاء الحي وإنما في دور الأيتام كافةً كأشهر ماخور يستقطب فتيات الشارع عندما فقدت الإنسانية اسمها كان اسم ناديا يتجاوزهم كما تراني ما زلتُ أنا ويعوض الفضل لذاك الرجل الذي انتشلني من حفرتي إلى القمة التي أنا فيها مقابل أن ينام معي خمسين ليلةً، لربما أنتَ تكرهني لأني لستُ ك(لميا) التي بالرغم من الذي تراه أمامها تكنُّ لي الحب والاحترام.

ومن قال لكِ إني أكرهك ناديا؟ أنا معجبٌ بكِ جدًّا لأنك تمارسين خطيئتك وتتكلمين عنها أمام الملأ، يكفي أنك لم ترتدي رداء الفضيلة وأنتِ لستِ لها.

شكرًا لكَ لأنك تنظر إلى ناديا كمن لا ينظر لها أحدًا.

لربما أحاديث ناديا تنسيك صلب الشيء الذي تأتي لأجله لأنه لو أرادت أن تُعيد الميت من قبره لأعادته...

تذكّر ما الذي أتى لأجله... أين لميا...؟

في غرفتِها

الأنوار مُطفأة.

لكني تركتها مُضاءةً مذ ثلاث ساعاتٍ ونصف كنتُ في زيارتِها.

حملت بعضها وعادت لغرفة لميا التي يفصلها عنها ممرٌ بعشر أقدامٍ ينتهي بباب بني، تتميَّز غرفتها بوجود بابين، باب يصلها بمنزل ناديا والباب الآخر يُخرِجُها للعالم، لسكينةِ الله.

الباب لم يكن مُغلقًا كاملًا، كان خلفها يتتبعها بخطواتِه المثقلة المُتردِّدة بخوفٍ.

صرخت لا يعقل أن صوت سيارة الإسعاف كانت هي ولكن أنا من أغلقه، من دخل إليها بعدي؟

كانت عشيقة آدم هي من أخبرت الإسعاف، فهي كانت برُفْقتِها.

أين هي...؟

إنها تموت، فهي مريضة.

ولِمَ تقولينها بهدوء؟

لأنها حتمًا تموت.

رَكَضَ خلف سيارة الإسعاف علّه يلحقُ بها ولكن دون جدوًى، وَصَلَ للمستشفى، أخبرَه الطبيبُ المُناوِبُ أن حالتها سيئةً، فالارتجاج

الذي تعانيه والتهاب المفاصل وأحيانًا تفقد أشياء حتى أنها فقدت مَنْ هي وتتكلم عن أشياء مُبهَمةٍ لم يفهم منها شيئًا... الذي أهلكها ساهمًا ببطء حركاتها، أصابَ جسدَها الوهنُ.

سَمِعَ صوتَها تُناديه.

أتى إليها.

همست: أحمد المطر وأنا

لا تتكلمي، يكفيني وجودك اليتيم.

أعرف أنك تعشق الصمت، فالصمت أنثويتك الأجمل.

أنا أكرهُ هذه الأماكن.

لم أعد أرى وجهَك البريء.

سترينه قريبًا.

أتعلم ماذا...؟

أريد قبلَ موتي أن أراك للمرة الأخيرة، أن أُكحّل عيني بسماء وجهِك البدوي.

أنتِ بخير.

تضحك: والثورة؟

ما بها؟

ماذا ستنجب؟ أيعقل أن أموت وأنا أشتهي وطنًا بريئًا يعود من جديد؟ لا حسرة ولا دموع أمهات ولا شهداء ولا مشردين ولا انفجارات ولا ياسمين يضج بالدماء؟ أريد أرضًا نظيفةً كبدء الخليقة.

كُلُّ شيءٍ سيعودُ عندما تعودي

دعني ألمسْ وجهَك، كنتُ أُخطِّط أنا وعُصفوري أن نزور القدس معك. نُعانِقُ ليمون يافا، أن نزور الفلاحات الجميلات، أن نقبّل أرضها وأقبّلك.

عصفوري سيبقى يتيمًا دوني، ليس لديه أحد دونك.

لا تخافي عليه.

خائفة على الوطن.

اشتقتُ أن أركضُ وأعانقك متجاوزةً حدود عشيرتنا متمردةً على النساء أيضًا.

أريد أن أقبّلك مُتجاوزةً حدود السماء.

أريد أن أرقص على جسدِك كطفلة المهد.

أريد أن ننام تحت شجرة الزيتون، نأكل برتقال نسرق حرام جارِتنا التركي تركضُ خلفنا وهي تصرخ: أطفال سرقوا ما جنيته طوال عمري.

تضحك ملء الكون صوتها، شيء واحد بَقِيَ عالقًا معها خبَّأته في المحفظة التي أخبرت ناديا أن تأتي بها.

أحمد خُذني.

إلى أين؟

خُذني أنام تحت المطر.

ليس الآن.

لا تكن شرقيًّا كُنْ مطري يومًا واحدًا، ساعة، دقيقة، ثانية.

احملني بين يديك اليوم هو عرسنا يا زيوس.

ما بك؟ سآخذك إلى الجنة، ولكن بعد إجراء الفُحوصات.

أرجوك خُذني بين يديك أنام تحت المطر، أشتهي رائحة زهر الليمون، رائحة الحبق، وأشتهي الياسمين من بين يديك، تقطف لي واحدةً وتضعها على شعري.

كُفّي عن هذا الهُراء.

إن لم تأخذني سأمشي وحدي، أريد التمرُّد، أن أثور على جميع قبائل عشيرتِنا أن أنام تحت ما هو محرمٌ أمام الملأ، ملء عينيك أنام.

أنا أنام بين وجعِك يا وجعي.

دعني أُعانِقْ المطر يعانقني أعانقك، وأنا على عرش الموت، لا أريدُ أن أموت كما يموت الأحياء من الحياة إلى كفن الموت.

أريد أن أجعل جارتنا تغار من موتي لكثرة ما استهزأت بحبي وبكتبي، أحملها معي، أريد أن يكرهني آدم أكثر...

تعالَ أريد أن آخذ جميع الكُتَّاب العظماء معي: شوبان وباخ، أريدهم برفقتي أيضًا جميلتي فيروز أريدها ملائكتي المخملية.

الجميع سيتلاسن، فتاة تمرَّدت وماتت تحت المطر أمام أعينهم دون أن تخاف من الموت، أنا أشعر أن إبليس سيرفُق بي، قبضته لن تكون مؤلمةً، ورحلتي إلى العالم الآخر لن تكون بطويلةً، ولكني أخاف من عتمة القبر دونك.

كُفّي عن هذا الهُراء، الموت يخشاك، يخشى وجهَك القمري، يتلعثَمُ أمام جبروت عينيك اللوزيتين وجمالك الهمجي.

لن يظهر جمالي إلا تحت المطر، أريدُ التكحُّل بالياسمين، أريد أن تزهر يا حبق، أريده يدلو ويتدلَّل الكحل على وجنتي برفقتك، أريد لرذاذ المطر أن يُشاكِسَ وجنتي ويتغلغل لمسامات جسدي، ويتفاعل كما تتفاعَلُ الكيمياء فتغازِلُني.

مشاكسةٌ أنتِ.

فقط معك أغدو كأطفال الحارات مشاكسين حَدَّ التعب وأكثر.

اليوم هو عُرسي أريدُ أن أُزفَّ بطريقة سماوية، لم أحلم بعرف الفستان الأبيض ما دام اختراعه لم يكن شرطًا إنما ملكة أتت به لتدلّ على الطُّهْر ولكن السماء أجمل من ذاك بكثيرٍ، وأطهر من مئة عذراء ترتديه لتغطي عُهْرَ الألسنة.

حملها بين ذراعيه مُتجاوزًا صوت الأجهزة.

آه، كم يداك دافئتان!

غازلني.. سرقتْ قُبلةً من خدِّه، سأسرِقُك منك وأهربُ عندما ألقاك.

يضحك.

رجلٌ هو يجمع مُفرداتِها يفهمها كما يفهم رجلٌ في الستين مَعشوقتَه...

بدوية همجيةٌ تنامُ بين يدي حبيبها، تتدلّلُ على المطر، تمرَّدت على جميع الألسنة.

لم تنطق بالوجع، بل تبسَّمت له.

لا أحبُّ الألم ولكن لو علمت بأنه سيأتيني بك لتمنيتُه مذ ألف عالمٍ، هكذا هو حبُّ الأنثى الشرقية.

لي حبيبٌ نذرتُه للأيام، احفظْه لي يا ربّ.

مشى بها أمام الملأ ما يُقارِبُ الساعتين وسبعًا وثلاثين دقيقة تحت المطر وهي في كل ثانية تضحك بأعلى صوتِها، تسرق قُبلةً وتنام على كتفِه، لم تُبالِ لعدد الأعين التي تُراقبهما والألسنة التي وضعت يدها على فمِها، وصوت الانفجارات كأنها في عُرسٍ همجيٍّ من صُنع الطبيعة، على رأسها وشاحُ جَدَّتها الفيروزي يُغطيها حملته ولفّته حول جيدها

نعم هنا أريدُ أن أنام وسط الحيّ تحت المطر، هذه هي الحبقة التي تكلمت عنها جليلة في رسالتها...

الياسمين في يدي يتدلّل عليك لتكحل عينها، تلمس من العطر الذي في جيبك الأيسر تحمله تضع الكحل فيه وتُكحِّلُني أسمري.

مجنونة، متى وضعتِه؟

غمزته بطرف عينها وقالت: عندما قبَّلْتُك.

تعالَ واقترب مني، اقتربْ ...أريدُ أن أهمسَ بشيءٍ.

بصوتٍ خفيف: "إني أحبُّك" حَدَّ التعب وأكثر.

حُبُّ الأنثى السورية يُتعِبُ، صعب الإدراك ونادر الوقوع إن مَرَّ بك فأنتَ من المحظوظين.

هنا أريدُ أن أموتَ قُرب فتياتٍ حيّنا: رام التي اختارت موتها خنقًا، قديسة التي قررت أن تنتحر بسكينةِ جدّتها البكر وكأنها

نَحَرَتْ ذاهًا، جورجينا العاشقة المفجوعة، وجليلة التي قُتِلت على يدي مَنْ أنجبتها "أمُّ يوسف".

هُنَّ المتمردات على التقاليد، صانعات القَدَرِ، فتمرَّد عليهنَّ الموتُ، وخَطَفَهنَّ دون شُعورهنَّ بشغف جُنونهنَّ، أرجو أن تغفر لهنَّ السماء خطيئاهنَّ.

هنا نامي يا حبيبة، عانقيني يا غالية.

قبلَ أن أنسى في جيبِك اليُمنى صورة طفلٍ صغير، خُذْها لصاحبتِها، ستراها تنتظرُ عند ناديا، إنها صاحبة الصورة ومالكتك والأوراق جميعها مرتبةً تنتظرُك.

سيقرأُ الجميع ما كتبتُ قبل موتي.

قبل موتي سيكتبون...

"فتاة تمرَّدت على قانون قَبيلتِها وأمام الملأ ماتت تُعانِقُ حبيبها".

عندما أنهى جُملتَه الأخيرة -

كان صوت ناديا يئنُّ يخبرها : أخبركِ صدقًا ناديا، لا أعرف مَن كتبَ الآخر؟ هي مَنْ كتبتني أو لربما هي مَن أنجبتني لأني إلى هذه اللحظة التي أقرأ فيها لكِ لا أعترف بالتي تُسمي نفسها أمّي والتي هي الآن زوجة آدم أم أني مَنْ كتبتها، أظنُّ لربما أنتِ، وصمتتْ تلك الأخرى وهي تضمُّه بين يديها متلمسةً دموعَه التي لا تنفكُّ تُودِّعُه

لتعودَ إليه مُنهمرةً بشكلٍ أكبر لتُذكِّرَه أو لتُحضِرَ له تلك اليتيمة التي دَفَنَها بين يديه ويتخيل ضحكتها التي تأتيه على شكل مطرٍ ينساب لِرأتيه ليشعر برذاذ الكلمات التي تنهال، اختتم كتابته متابعًا...

كتبت الجملة التي لا تنفكُّ تقولها لي: "إلى أسمري جميل الأقصى، مذ الولادة أحبُّك وما زلتُ أحبُّك وسأمارسه بقبري إلى أن تُعلن القيامة قيامتها وتأتيني بكَ" .







تعيشُ معظمُ النساء للمطالبة بحقِّ المساواة.. كان أجدر بهنَّ لو أنهن حدّدن ما نوعها، إن كانت فكرية أو بيولوجية أو لربما جنسية، ومن ثمَّ يعمل الرجل على نسيانها أو الهروب منها عمدًا إلى ما وراء الجنس؛ لتبدأ نقيضتُه بالاستسلام للواقع الذي تعيش فيه، والتذمر على ما هي عليه، أو لربما النهوض عليه ليتحول مُعظمهن بالطريقة التي اخترن بها النهوض بأنفسهن؛ ليُوصفنَ بالوقحات اللواتي تمرّدن على الواقع فتمرد هو عليهنَّ، وأعلن شنقَهُنَّ أمام العلن ليتعالى صوت ناديا أمام الجميع لتصرخ بأعلى صوتها:

- أنا العاهرة الجميلة الحظّ, ليعلن مهنتي أمام الملأ لكثرة ما كتمتُم صوتي، ومشيتُم عليَّ، هأنا هنا أُعلن ثورة صمتي ليكتُمَ زعيقَ صوتِكم.


9789774884856



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01144552557